باب صحرا



الطبعة الأولى

١٤٤٤هـ - ٢٠٢٣م

اسم الرواية: باب صحرا

اسم المؤلف: أمير شوقي

التدقيق اللغوي: د. محمود صبري

تصميم الغلاف: محمد دربالة

الإخراج الداخلي: خالد محمود

رقم الإيداع: ٢٨٠٧٧ / ٢٠٢٢

الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٨٦٤٢٨-٦-٥




ش- حسن خطاب - قسم يوسف بيك - الزقازيق - الشرقية


01020439639


massar.pub1@gmail.com

باب صحرا



مسار
للنشر والتوزيع



إهداء

الشكر والعرفان لقائد أو قائدة السيارة ذات الدفع الرباعي الذي ألهمني" أو ألهمتني".. الفكرة والعنوان.

أن تنتصر على ما مالت إليه نفسك.. أمر عظيم،

أما أن تسردَ معركتك بنفسك.. فهذا أعظم.

وربما يأت يوم ما تخبرنا فيه بقصتك.

(١)

هنالك عالم شاسع لا تغطيه إحداثيات ولا تلتقطه رادارات ولا تحدّه أجوبه، عالم قريب لكن لا تزوره العامة، موجود لكننا لا نراه، لم يثبته علم ومع ذلك لا تنكره روح، يحيطنا ولا نعلم تدابيره ولا نفقه مخططاته، تلقائي التشغيل ولذلك لا يشغلني كيفية إدارته، وأنا مؤمن إيمانًا معقودًا بقوانينه الخاصة به، ومن قُدر له يومًا زيارته فَعليه الالتزام بمعاييره، على ألّا تتبدل أو تتشوه مبادئ الزائر حتى ولو لمع بريق سراب الطموحات، وتزايد وهج الإغراءات وميضًا، وأفرزت غُدَد الفضول هرموناتها، فالثبات قرين الثقة، ومن فَقد الثقة بنفسه، فقد نفسه، ومن فقد نفسه هان عليه الاختيار وتلاشى مغزى وجوده وكيانه، وكثير ما أجد نفسي داخل هذا العالم مؤمنًا بقوانينه وفي الوقت ذاته ملتزمًا بمبادئي الخاصة، ممتطيًا جوادًا حالك السواد، لجامه شعرهُ وأقبض عليه بيُسراي، أقف به فوق صخرة ملساء مُقاتلًا لا يتبعني جُند، قابضًا بيميني على سيف فولاذي أمام صدري بلا غمد، مرتديًا عباءة سوداء بغطاء رأس مصدره ذات العباءة، مشحون الطاقة والقوة لأعلى الدرجات، وعيناي تلمع بدمع الرغبة، راصدًا طريقًا صخريًا مخيفًا تترامى على جانبيه زِنْزَانات تُقاطع قضبانها أيادٍ لأرواح أسيرة ترجو إطلاق السراح، يعلو عَلى صرير أنفاسها أصواتٌ ترانيم خفيّة بلغات متداخلة، ويدفعني نداء داخلي مجهول لتحرير ذوي الأيدي، وأدركُ أن التحرير يستلزم قتالًا، كما أدرك أنه لا مفر لتلك الأرواح سواي.

حقًا، لقد وجدت ما توقعته، حيث اصطف عبر الطريق الذي يحوي

الزنْزَانات جنود ملعونون مجهولو الهوية، تتزايد أعدادهم كما تتعالى أطوالهم، يقوِدهم كيان مجهول تنسدل من فوقه ظلمة شلال مخيف، تتبعته حين تقدم من خلف الاصطفاف حتى أصبح في الطليعة، وما كانت تلك الطليعة سوى سرية بين سرايا عدة، فجاء أمر الهجوم من تحت جناح الظلمة، آمراً جنوده ذوي الهيئات المرعبة بالاجتياح، وفي المقابل صدر بداخلي أمر رد الهجوم انطلاقًا من نداء داخلي، فَالْتَقَى جمعهم مع سيفي وأنا امتطي صهوة جوادي أمده بالطاقة ويمدني بالرشاقة، أضرب عنق هذا وأنحر رقبة ذاك، تتطاير الأشلاء وتتناثر القطع وتنفجر الدماء، يتناقص عددهم ولا تتناقص قوتي، أقاتل ونصب عيني ساكني الزنْزَانات، فتحريرهم هو المراد، معذرةً... فهذا ما يخيّم على واقعي بعضًا وأحَلامي عادةً، ومازال تفسيره هائماً لم يرسِ على ميناء إدراكي بعد، والدخول رأسًا إلى لُبّ الحدث واحد من عيوبِ عدة أتسم بها، على كل حال أنا كمال أسعد، صحفي فاشل، وأكاد أقصدها حرفيًا، فأنا فعلًا فاشل من طراز فاخر، أصلح لكي أكون تجربة معملية أو إجابة نموذجية معلقة على حائط سالكي طريق الفشل، والناجي الوحيد هو اسمي. وعلى الرغم من ذلك فهو لن ينال الكمال ولن يختبر السعادة، ولكنه مجرور بالتبعية مع المادة الخام للفشل.

ما كانت مهنتي سوى تأكيد دامغ على ذلك، فكم من سبق صحفي أضعته بسذاجة بالغة، وكم من أحداث انفجارية خُمدت نيرانها عبثًا لتنير صفحات جرائد منافسة أخرى، ويعود صبر وتحمل جريدتي على تلك الحماقات إلى لا شيء، فأنا شخصيًا منبهر من اهتمامهم بوجودي ولا أجد تفسيرًا لتمسكهم بي رغم إخفاقاتي المتكررة والتي تفوّت دومًا علي الجريدة الفرصة لأن تكون في مصاف الأوائل بتصدر المشهد في نقل الحدث أو الخبر، وتكون إجابتي عن ذلك في قرارة نفسي الفاشلة هو الرد الأمدي "التوقيت"، التوقيت لا

غيره، فكما يؤجلون توقيت إلقائي خارجًا بضربة قـدم عسكرية محترمة كما أظـن، أرى أن عـدم نجاحي المهني يعود إلى سـوء اختيار التوقيت للتدخـل من طرفي أو ربما.... لا أعلم.

التوقيت هو عدوي الأول لكنه ليس الأخير. لم اكتسب الخبرة بعد لحصر أعـدائي، غير أن معـاركي بدأت معهم مبكرًا، ولكنني لا أتذكر التفاصيل من كثرتها أو دقتها، إلا أنها تأتي على شكل ومضات متقطعة مثلها مثل فلاش كاميرا التصوير الفوتوغرافي، فأنا نشأت في منزل يضج بأكثر من خمسة ألسنة، يعلوني لسان ويقع أدنى مني ثلاثة ألسن أخرى، وناهيك عمن هم أدنى مني، فهم لا يندرجـون تحت بنـد كائن بشري، بل لا يندرجـون تحت بند كائنًا من الأساس، يتمتعون بحصانة أكبر فأبرز لسانين في المنزل هما أبي أستاذ الكيمياء المحنك، وأمي طبيبة الأسنان المجتهدة.

الأول يعطيني آرائه بالنسب، ويمنحني من خبراته بالتقطير، أما الثانية فتذيقني ألوان النصائح حشوًا، كما تمطرني بأمطار التوبيخ سيلًا، وأنا بين التقطير والحشو واجتياح النمل الأبيض، أعاني كمن وقع في قلب رياح جزيرة بارو، ولا يلهمني صبرًا سوى من هو أعلى منّي لسانًا، فقد مر بتلك التجارب مسبقًا وهو أعلم بها منّي، وقد نجح في اجتياز بعض ندبات الزمن، والتي نالت بعضًا من ملامحه ليصبح مهندس اتصالات بارعًا، وله من الخبرات ما يجعلني أنظر إليه ثم أحمد الله على حالي وأنتظر التوقيت.

أما بالنسبة لحياتي الشخصية فتختلف تمامًا عن حياتي الأسرية والمهنية، فلا أنا أبله ولا أعاني من الأمراض الانطوائية، كما أنني أجيد الاختلاط، ولي من الأصدقاء كما للصـرصور النافق من نمل يتوافدون عليه لحمله ونقله لمدينة النمل، كما أنني لا أشكو من أمراض جسدية كالنحافة أو البدانة أو

الضعف، بل يتمتع جسدي بلياقة بدنية لافتة. أنا جيد على المستوى الإنساني والأخلاقي، وملامحي تبث قدرًا من الارتياح وتوحي بنضارة لن تفارقني حتى أصل إلى العقد السابع أو الثامن من عمري، كما أنني أثق بنفسي وعقلي وأعلم يقينًا بأنه سيكون لي صيتًا ذائعًا يومًا ما، وأن الفشل الحالي مجرد مرحلة زمنية عابرة سوف أبتسم مستقبلًا عند تذكري لها، وأظن أن هذا ما يراه فيّ رئيس تحرير الجريدة، وأنا على يقين بأنه يختزنّ قدراتي على أمل تفجير قنابل صحفية مدوية يصل مداها لمدى صيتي المنتظر.

لقد اخترت بكامل إرادتي الاستقلال والعيش بمفردي منذ أن أصبح لي دخلًا شهريًا ثابتًا أتاح لي الهروب مما ذكرته سلفًا، وشقتي المتواضعة كتواضع راتبي عبارة عن ديسك صحفي غير مُرتب، وهذا ما أثار اشمئزاز صالح حينما لبّى دعوتي غير الصادقة في طلبها، لكنه استجاب لها على غير رغبتي، فالتطفل أحد أهم أسباب نجاحه الصحفي، والفارق بيننا كالفرق بين مرحلتي الفاشلة الحالية وبين ما أصبو إليه راجيًا...

بالمناسبة؛ صالح زميل غرفة مكتب واحدة، ولا ينفك وجهه أن يبرح وجهي يوميًا سواء داخل الجريدة أو خارجها في معاركنا الصُحفية الخارجية، يتمتع بقدر عال من الفضول المَرضي، وينمو بجوار فضوله كثبان من الثرثرة المُغرقة لأي حديث ذو شأن، الكل عنده سواء فيخلط الغث مع الثمين، ترغب في سكوته حتى أثناء سكوته، سكوت نظراته المتطفلة، سكوت عن محاولاته الدؤوبة لاختلاق فرص للحديث، لا للأهمية، وإنما لمجرد إشباع شهوة تطفو أعراض عدم إشباعها على وجهه، فيبدو مهمومًا مدحورًا. كما أن لديه قناعة لافتة بأنه الحل الألمعي لكل معضلة والمَخْرَج الموصوف لأي ضائقة، متزوج ويمتلك ابن يحمل نفس صفاته، إلى جانب اتسامه بالبدانة، وعلى الرغم من ذلك فعلاقتي به تتعدي حدود الزمالة لتمس خط الصداقة

لطهارة نفسه ووضوح نواياه، وعلى أمل أن تنتقل لي عدوى التطفل لأكتشف خبايا النجاح المنتظر أو على أقل تقدير عدوى الفضول. إلا أن الجذور لا تقتلع من منبتها أبدًا، فلم يستطع صالح أن يمنع نفسه من التصـريح العلني بالاشمئزاز من شقتي حين قال....

كيف تطيق يا زميل أن تحيا مع كومة الورق هذه؟

أجبت في أدب بأنها شيمة العباقرة، أليس كذلك؟

فقالها صراحة وصداقة ووقاحة معتادة، بالقطع لا تقصد ذلك، فيا ليت لي عائلة كعائلتك كي أنجو بقارب شملهم من جزيرة وحدتي، وكم أردت أن أرى عائلتك، فقد أثرت شغفي للقائهم من فرط حبهم لك الظاهر في حديثك عنهم.

سكتَ صالح برهة ثم سأل....

هل تشبه عائلتك الجميلة تلك عائلة زميلنا نادر؟! إنها حقًا عائلة ودودة محترمة ودافئة، ألم تلحظ ذلك في استقبالهم لنا أثناء زيارتنا في ذلك العشاء القريب؟

سألت وقفزت بكلامي على كلامه....

وماذا عن أسرتك؟

أجاب بفلسفة لدى ظهور سيرة أسرته على هامش الحوار....

أسرتي هي من أحيا لها، وحبها ووجودها بمثابة الوقود لاستمراري في السعي، أما أبواي فهم من كنت أحيا بهم، فهم شهيق الروح وزفير الحياة.

قلتُ مبـررًا ومتجاوزًا فجوة اشتياق صالح لأبويه...

لكني لم أقطـع رحِمَهُم، لم ولن أقدر على ذلك، كل ما في الأمر هو بعض الخصوصية التي قد تساعدني في حياتي والعمل.

قال صالح ساخرًا ....

فعلًا.. وها هي أثبتت نجاحها.

أجبت ساخرًا....

ألا يجدر بك إظهار بعضًا من الاحترام!

فقال "بغرور مقبول" ناصحًا...

الموهبة وحدها لا تكفي، فأنا موهوب بالفطرة، وأنت كذلك، لكنها لكي تتوهج وتلمع تحت الأضواء تحتاج إلى دعم أو سند، وهذا ينقصك يا زميلي، ولهذا أنا أعيش في كنف السيدة زوجة رئيس التحرير ونائبته، السيدة الوقورة أريام العطيفي.

السيدة "أريام العطيفي" تمتد جذور عائلتها لأصول عربية عريقة، منبتها محافظة أسيوط ومرتعها عواصم العـالم، خمسينية العمـر عشرينية الهيئة، تزوجها السيد رئيس تحرير الجريدة منذ ما يقرب من عامين أو يزيد قليلًا وهي أرملة لصاحب سمو ما في عائلة ملكية بالخليج العربي، توفى عنها ووهب لها من الإرث عطايا ومن التركات منح، تمتلك أراض وعقارات وأرصدة تعادل ما يمتلكه زوجها ولذلك تبدو الكفة موزونة بين طرفي العلاقة بلا ميل أو جنوح، سيدة حديثها دليل خالص لفن الإتيكيت، وسلوكها كتيب للأصالة والرفعة، تضمها لمحارمك بمجرد إبدائها دماثة خلقها، وتنتهي عند عتبتها محاولات الذكور للفت الانتباه لاكتفائها ولعدم كفاءتهم وإن كفوا، فالعلاقة مع زوجها علاقة كاملة متكاملة تتأرجح بين

الحب الجم والانتماء اللامحدود، فإن أردت تفصيل سيدة تصلح للزواج والعمل والعالمين، فلن تخرج عن السيدة الوقورة "أريام العطيفي".

قلت وأنا أنهض لإعداد شيئًا للشرب....

تلك هـي ميزة أن تعمل في جريدة خاصة، والوصول على قدر الوصول، ولذلك أحاول جاهدًا محاكاتك أيها المتفرد.

رمقته بنظرة ساخرة، ثم أكملت بنبرة مثلها ....

ولكن نفاقك ليس له نسخة أخرى، حقوق نشـره لك وحدك دون غيرك، وغير قابل للنسخ أيها المرائي عتيد النفاق.

ابتسم صالح بعفوية كعادته ثم أدار دفة الحديث من السطح إلى العمق مباشرة وقال....

ما أجملها اليوم!

أجبتُ بتلعثم ثلاثي الأبعاد وأنا أُعطيه ما قمت بإعداده....

من؟!، تقصد من؟

أتقصد زوجة رئيس التحرير؟

رمقني صالح نظرة عالمة بخبايا الأمور وقال مستخفًا بسؤالي....

نعم، نعم، بالطبع أقصدها هي دون غيرها.

فأبحرت معه في بحيرة الاستخفاف بالواقع وقلت....

عار عليك يا زميل أن تغتاب صاحبة النعم، أو أن ترمقها نظرة بعيدة عن إطار العمل.

قال صالح بالهمس غير المبرر وكأنه يعلم أمرًا ما ليس بالقليل من وراء الكواليس....

لقد جاءت اليوم خصيصًا لإبلاغنا بالمأمورية التي كلفنا بها رئيس التحرير، ولهذا أجبت دعوتك حتى نناقش تفاصيلها سويًا بعيدًا عن ضغط العمل.

ثم أردف وقد عادت نبرة صوته للمعدل الطبيعي أو تزيد قليلًا...

وللحقيقة أردت أيضًا اكتشاف محرابك الذي تأتينا منه يوميًا كل صباح، والذي للأمانة كنت أظنه مميزًا كهيئتك المنمقة، والتي تطل علينا بها موزونة بميزان الأناقة، كعهدك، أما الآن فقد اختلت المعايير، فكيف لرجل يبدو دومًا أنيقًا كما لو كان عارض أزياء بأرقى بيوت الموضة أن تكون نقطة انطلاقه تلك الأنقاض. قالها وهو يشير لأركان شقتي باستهانة مثيرة للعصبية.

أجبت صالح متخطيًا ما صدر عنه من وقاحة، حتى لا أرد عليه بلكمة في ذقنه، وقد أشحت بنظري بعيدًا عن عينيه المثبتتين نحوي، وقلت في استخفاف....

أهه، أتقصد كيان؟

نظر لي صالح مطولًا وارتشف رشفة طويلة ثم أجاب من وراء الكوب باعوجاج....

ممم، دهاءك طفولي للغاية!

ثم أردف بنفس النبرة وقد استفزته بلاهتي المصطنعة...

نعم، أقصد كيان، أقصدها هي بعينها أيها المخبول.

كيان هي زميلتي بالعمل، بالكاد أعلم عنها قشورًا من المعلومات. اسمها كيان تامر شوقي أحمد شوقي، خريجة إعلام جامعة القاهرة، حديثة التعيين بالجريدة بعد فترة مكوث بالبيت لا بأس بها، تعمل بالقسم الخاص بملابس الموضة، كما أنها المسئولة عن تنظيم جدول أعمال رئيس التحرير لذكائها وجودة طلتها، فهي تبدو جميلة للجميع، أما بالنسبة لي فإن ملامحها مُذيبة للجلطات -إن وُجدت- وكابحة للأعصاب إن فلتت، إذا تحدثت روت الظمآن، وإن صمتت فصمتها يهدي السرحان، تصغرني ببضع سنين، تقطن بالمعادي مع والديها، لديها أختان يصغرانها، وأخ أكبر يعمل محاسب في بنك بنفس مربع سكنها، ليست مخطوبة، شغوفة بالقراءة عن عالم الماورائيات، تؤمن إيمانًا مطلقًا بدور المرأة في الصحافة ومنها إلى المجتمع، ولذلك تحسبها ثائرة عندما تتبنى إحدى القضايا ذات الصلة، تعشق الأحمر والقرمزي، تظن أن الأسود لا يليق بها ولهذا هي نادرة ارتدائه، ولكن إن كسرت القاعدة يومًا وارتدته، لتهلّلت أسارير الغربان، وتروضتِ الفهود وهدأت الجوارح، واليوم كان أحد تلك الأوقات النادرة، حيث أَمرت الحراس أن يفتحوا بوابات ممالك الجمال وحصون التميز وقلاع المتابعين وأنا كبيرهم، وهذا ما جعل صالح ينتبه إلى عشقي المفضوح ليعيد استخفافه بدهائي الساذج حيث قال باعوجاج أكثر....

نعم أيها العاشق المغفل، أقصد كيان.

تحدثت بنبرة صحفي متقاعد غطت جسده ندبات المعارك الصحفية وسألت بحنكة....

برأيك، ما نوع تلك المأمورية التي خصص لها رئيس تحرير الجريدة اجتماعًا خاصًا لمناقشة تفاصيلها؟

أجاب صالح وقـد نسي تمامًا شغفي بكيـان قـائلًا...

لقد علمت من مصادري الخاصة أن تلك المأمورية لن تكون هنا بالعاصمة وإنما خارجها، كما علمت أيضًا أنها غير محدودة الميزانية وكذلك عدد أيامها، وقد تم تحديد ثلاثتنا لتلك المهمة والتي وصلت إلى حد السرية.

لم أكترث لكل تلك التفاصيل التي سردها صالح بشأن المهمة السـرية أكثر من اهتمامي بتلك الجملة "تم تحديد ثلاثتنا" وسألت في عجلة وبذات الاهتمام....

أي ثلاثي تقصد؟!، أتقصد أنا وأنت و....؟

لم يمهلني صالح إكمال سؤالي وقال في حذاقة....

نعم يا سيدي، أنا وأنت وكيانك المقلوب رأسًا على عقب.

سألت في لهفة....

أتقصد أنها سوف تسافر معنا إلى خارج العاصمة؟

أجاب صالح متشككًا....

لا أعلم بالتحديد كيف ستسير المأمورية!

ثم أضاف شارحًا....

لكننا سنعلم في الاجتماع المخصص لذلك.

سألت مستفهمًا....

ومتى سيكون؟

رد صالح مبشرًا....

صباح الغد، وهذا ما قالته كيان اليوم عندما جاءت إلى مكتبنا اليوم لإبلاغنا.

سكتَ صالح قليلًا ثم سأل ممتعضًا....

ألا تتذكر ذلك حقًا؟

أجبته بهدوء....

نعم، نعم.

سكتُ برهة ثم أعقبت سكوتي بنفس الرد....

نعم أتذكر، أتذكر بالفعل.

قلت ذلك وأنا فعلًا لا أتذكر أي كلمة أو جملة قالتها كيان عن تلك المهمة، وجل ما أتذكره ولا أنفك أنساه هو ذلك الفستان الأسود الذي خيم بجماله على عقلي مما منعه من تلقي أي معلومة واردة، ولا أزال أعاني من ذلك الوضع حتى الآن حتى قطع صالح حبل أفكاري قائلًا...

سأرحل الآن أيها المفتون ونتقابل غدًا بالاجتماع.

ثم استطرد لدى باب الخروج ....

لقد سعدت حقًا بكومة الورق تلك.

ثم أردف بملحوظة سريعة...

أتعلم أن انطلاقة السيد رئيس التحرير كانت من نقطة تشبه تلك الكومة، ولطالما أتحفنا بروايات ومغامرات عن بداية انطلاقته الملحمية والتي تصلح لأن تكون مادة لروايات الجيب لليافعين في الحياة، تصلح لأن تكون دليلًا إرشاديًا لسيرة أقل ما يطلق عليها سيرة ذاتية ماسية.

وقف لدى باب الشقة وقال مداعبًا....

سأراك يومًا ما محله، هذا ما ألاحظه على الرغم من محدوديتك.

لم أبادله ملاحظته بأي انطباع، وأجبته بإشارة تحية عابثة وأسرعت إلى خزانة ملابسي فـور إغلاقه باب الشقة، حتى أتخير من القليل الموجود ما سيجعلني لائقًا للمهمة... تفهمني طبعًا.

جهزت ما جهزت لتلك الانطلاقة وشرعت بالنوم، وقد همّ بي وهممت به بسبب تطلعي للغد الذي أراه بعيدًا لأن كيان ستكون شمسه، وما كادت عيناي تغفل حتى هب نسيم غريب في أرجاء غرفة نومي المظلمة المتواضعة، نسيم غير معهود للمكان، ليس له مصدر لإحكام غلق مداخله، ولكنه تيار داخلي له أنفاس وكأنها ذبذبات يدور في الغرفة كما لو كان يتحسس له مخرج، ففزعت من دورانه الذي يأس ولم يجد بد سوى أن يقترب من أنفاسي المتسارعة جراء تلك الصدمة ليقترن بما يماثله، وما أن شعرت بدنوه من وجهي حتى احتبست أنفاسي رغمًا عنها وعني، ولم يجد ذلك التيار الغريب ما يجانس جنسه الذي اقترب لأجله فابتعد رويدًا حتى سكن في ركن من أركان الغرفة، طال هو في ركنه وطالت أنفاسي في الاحتباس ولم يكن هناك مفر من إنهاء هذا الوضع إما بموتي اختناقًا أو ببعض الشجاعة لاكتشاف ماهية ما حضر.

انتصر الاختيار الثاني كوني كائنًا حـيًا لا يفرط في روحـه مطلقًا، مددت يدي جانبي وكافئني الحظ بهاتفي، فأضئت كشافه ودفنت إضاءته في صدري ومنه إلى الركن بطيئًا، فكشف ضوء هاتفي عما أوقف بصيلات شعري في جذورها، إذ وجدت ذلك التيار ذا الذبذبات متجسدًا فيما لا أستطيع أن أصفه بأنه شخص ما، بل هو شيء ما، شيء طويل يكاد يصل إلى سقف

الغرفة، يقف مواجهًا للحائط ويرتدي عباءة سوداء، مغطى الرأس بغطاء ملتصق بما يرتديه، وما أن تم تسليط ضوء الهاتف الخافت عليه بالكامل حتى هدأت أنفاسه وتلاشت ذبذباته الصادرة عنه، فسألت بشجاعة زائفة وبصوت يؤكد زيفها....

من أنت؟

ماذا تريد؟

لم يستجب لنداءاتي واستمر في تسمره، مما جعلني أكرر أسئلتي الرخيصة على ما يبدو من وجهة نظره، ولكن عدم الاستجابة كانت هي الإجابة، فقررت نتيجة لذلك أن أتوجه ببطئ لمفتاح إنارة الغرفة ليكون عونًا لي في وقت لن ينفع فيه العون، وبالفعل شرعت في تنفيذ ما خطر ببالي، لكنه تعطّل نتيجة لعـودة الأنفاس ذات الذبذبات الاهتزازية إلى هذا الشيء وأنا في طريقي، فأصابني ما كان يصيبه من تسمر، وكأنها عدوى منتقلة لكنها مُعدّلة بإضافة رعشات إضافية لجسد أوشك على التبول لا إراديًا، إذ تحولت ذبذباته إلى حركه وشرع في استدارته ببطء مخيف حتى يواجهني وجهًا لوجه، فلم أتحمّل ذلك اللقـاء، وأغمضتُ عيني حتى لا أرى نهـايتي، وما أن عصرتها غمضًا حتى وجـدت رنين هاتفي يتعالى في يدي، فلم أستجب له بديهيًا لكون مزاجي لا يسمح باستقبال مكالمات في الوقت الحالي، وما جعل مزاجي يصل إلى الحد المميت هو اقتراب تلك الأنفاس ذات الذبذبات من مكاني ولايزال رنين هاتفي يتعالى، وتقترب الأنفاس في دنو ويتعالى الرنين في علو، حتى صرخت منفجرًا لعـدم تحملي ذلك الاقتراب، وفجأة اتسعتْ عيناي بعد انغلاقها لأجـد نفسي طريحًا فـوق فراشي محتضنًا هاتفي فوق صدري، بينما كان صالح هو صاحب الرنين، إذ هو المتصل.

اعتدلت في جلستي فرحًا لكوني حيًا ورددت على مكالمة صالح دون كلمات، حيث أنتظر كلماته للتأكد من أن الأمر كان مجرد حلم ثقيل، وبالفعل سأل في تذمر....

أين أنت أيها القتيل؟

أجبته بفزع وأنا أتفقد الغرفة بحثًا عن وجود أي زائرين....

موجود، أنا موجود، لكنني كنتُ مُنغمسًا في كابوس لا يكتبه الله على إنسان.

قال صالح مستنكرًا ما قلته توًا....

أتـرك كوابيسك الآن، عليك الحضور فــورًا، فلا مجال لتفويت اجتمـاع كهذا مع السيد رئيس التحرير شخصيًا، ولا تنس تأنقـك يا دنجوان.

لم أجب بسبب انتقالي فجأة من هول الكابوس الفائت إلى جمال الحلم القادم، وبدأت أغوص في تخيلات جميلة قطعها صالح بصوته صارخًا من الطرف الآخر....

يا كمال، عليك أن تسرع.

قلت بامتنان جم لكونه انتشلني من محيط ما كنت به إلى جزيرة ما سأكون به....

نعم، سأكون لديك فورًا.

ثم أعقبتُ بنبرة الناجي....

سأوافيك بقدر ما أتمنى أن أوافيك.

***

(٢)

وصلتُ وصالح إلى غرفة الاجتماعات المخصصة لكبار الزوار، والتي يُمنع منعًا باتًا دخول أي موظف إليها، أو على الأقل المرور من أمام مدخلها الفاخر، وقد حملت على بابها لافتة ذهبية تحمل اسم السيد رئيس التحرير مكتوب عليها....

"قاعة السيد كمال العمّاري"

كمال العماري هو رئيس مجلس إدارة جريدتنا ومالكها إلى جانب ممتلكات تمتد تخومها في كل ركن من خريطة جمهورية مصر العربية وخارجها أيضًا، أخطبوط رأس مالي متعدد الأنشطة، نجح في شراء كل ما وطأته قدمه من شركات وعقارات وأراضي، شخص عصامي بنى نفسه على أنقاض أعدائه، تحاك حوله أساطير وقصص يرى الأغلبية أنها حقيقة أما الأقلية فيؤمنون بأنها مجرد خرافات تُنسج حوله لإضفاء جو من الغموض الذي يساعده في إنهاء الصفقات المستعصية، قليل الظهور عظيم التأثير، صريح في سياسته منذ تملكه الجريدة حيث قال إنها آلة إعلامية ناطقة بلسان إمبراطوريته العظيمة على الرغم من تعدد الأنشطة التي تسلكها وتخطو بها.

تارة أري ملامحي في تجاعيده، وتارة أتمناها، وتارة أخرى أشعر بأنه الأنسب ليكون المثل الأعلى المثالي لأي شخص رغبَ في امتلاك النجم المجاور للقمر. وعلى الرغم من أنه على مشارف نهاية العقد السابع، إلّا أنه يتمتع بهيئة هوليودية رائعة، ممشوق القوام وكأنه بطل ألعاب قوى متقاعد،

يتمتع بصلعة غير ممتدة ناتجة عن تصادم الخبرات غير المتناهية، كما أن هناك خصلات من الشعر الرمادي المثير في جنبات رأسه، يُقال إنه زير نساء عميق، لكن الشواهد تؤكد وفاءه منقطع النظير لزوجته التي هي في الأصل نائبته وكاتمة أسراره، حيث تقول الأسطورة إنه ليس له عزيز أو قريب أو كاتم أسرار، لا أحد يتنبأ بأفعاله، أقرب شخص له يقف عند حدود مكتبه العظيم ولا يتخطاه، ومن اقترب احترق.

جلستُ وصالح متقابلان عند بداية طاولة غرفة الاجتماعات نتأمل جمالها، ومن يجلس عند آخرها يبدو أصغر حجمًا من فرط طولها الزائد عن الحد، وعلى رأسها يوجد مقعدًا مُغريًا للجلوس، من المؤكد أنه المخصص لرئيس تحرير الجريدة لوجود صورة شخصية له تعلوه، وفي نهايتها توجد شاشة من الحجم الذي يغطي كافة أرجاء الغرفة فبدت وكأنها قاعة سينما مخصصة للعروض الخاصة، كما تقبع جوار مقعد رئيس التحرير ثلاجة متوسطة الحجم يبدو من طلتها مدى رفاهية محتوياتها الداخلية، فقال صالح متجاهلًا تأنقي....

إذا كان هذا هو الحال مع بداية تفاصيل المأمورية، فما الحال إذًا عند نجاحنا في القيام بما كُلّفنا به.

لم أرد عليه واهتممت بهندامي بمجرد دخول كيان الغرفة مرتدية فستانًا أحمر دموي يصلح ليكون غلاف مجلة لأحدث صيحات الجمال، ويغطي شعرها غطاء رأس أسود فبدت بتلك الألوان بالإضافة إلى لون بشرتها الأبيض الأصلي وكأنها راية علم مصر في نهائيات أعظم البطولات، وقالت بأنوثة جادة....

أحسنتم، فالسيد رئيس التحرير يُقدر الالتزام بالمواعيد.

ثم أكملت بنفس النبرة موجهه حديثها نحوي...

يا لها من طلة، تبدو وكأنك تحضر حفل توقيع كتابك الأول.

لاحظ صالح المجاملة التي في محلها، وقبل أن يعقب استطردت كيان حديثها ونظرت إليه وقالت بذكاء حاد...

كلاكما للأمانة.

نظر صالح إلى مدخل غرفة الاجتماعات متلصصًا ثم سأل كيان بصوت منخفض للغاية بالكاد أسمعه لدقته وقال....

ألديكِ أي تفاصيل عن تلك المأمورية؟

أجابت وهي تضع بعض الملفات أمام المقعد المُغري وقالت بصوت خلاف نبرة صالح...

بالطبع أعلم عنها بعض التفاصيل، ولكن الشيء المؤكد هو أنها مهمة تحمل طابع السرية، كما أنها خاصة بالسيد رئيس التحرير شخصيًا.

اكتست غرفة الاجتماعات بوشاح الصمت لبرهة والذي تبدد بدخول السيد رئيس التحرير الوقور وزوجته المصون، حيث تقدم لينزل بالمكان المساوي لمنزلته وجلس على رأس المائدة محاطًا بكيان عن يمينه وزوجته عن يساره واقفتين.

بادرت السيدة أريام بافتتاحية الكلام ترمقني بنظرة ثاقبة متبادلة بيني وبين السيد رئيس التحرير زوجها، وقالت وكل قولها جسارة مُحاطة بابتسامة ملكية وقورة بقدرها....

ما أشبه اليوم بالبارحة وبالغد أيضًا، تزداد يومًا بعد الآخر ثقتي بالسيد

رئيس التحرير واختياره لمقاتليه، فعلي الرغم من انضمامك الطازج لنا لكنني أرى فيك نبوءة زوجي، وستكون أنت وباقي الفريق خير جنود لأهم مهمة.

صمتت ونظرت بجلال تجاه السيد رئيس التحرير لكي يلتقط منها طرف الحديث، وبالفعل بدأ كلامه موجهًا إلى صالح عن يمينه وقال بذات الوقار المعهود...

لقد تم ترشيحك لتلك المهمة من قبل السيدة زوجتي "نائبة رئيس التحرير" وقد أثنت عليك ثناءً جعلني أختارك مطمئنًا.

وواصل حديثه بنفس الجهة اليمنى "والتي تمنيتُ أن يعود منها تجاهي" وقال بثقة مشيرًا إلى كيان....

وكذلك كيان، شهادتي بها مجروحة من دون شك.

ثم عاد أخيرًا أدراجه جهة اليسار موجهًا حديثه لي...

أما أنت، فعلى الرغم من أن نجاحاتك محدودة بالجريدة، وهذا واضح من تقييم أداءك، إلا أنني أرى فيك شبابي، لا أعلم لماذا؟ ولكنني لا أشك مطلقًا في حدسي الصحفي، لا ينقصك سوى التوقيت، وسيكون لك شأن عظيم ولهذا اخترتك لهذه المهمة.

ابتسم ابتسامة عالية انتقلت آثارها إلى الجميع وقال مازحًا....

ويكفيك تشابه أسامينا.

علت وجهي ابتسامة فخر خفي، رأيت انعكاسها على وجه كيان خلف ملامحها الجميلة الجامدة، ثم قلت بحماسة مهذبة...

سأكون بإذن الله عند حُسن ظن حضرتك والجريدة.

صمت للحظة ثم أردفت بنفس الحماسة.....

وسوف نكون أنا والفريق "صالح وكيان" إضافة صُحفية مخيفة بين سائر المؤسسات الصحفية المنافسة داخل البلاد ونسعى لأن نكون الأفضل خارجها أيضًا.

سكت السيد رئيس التحرير برهة ثم نظر لكيان وسأل في تذمر...

أين نادر؟

جاءه رد لاهث من فم يحمل أنفاس متقطعة ناتجة عن خطوات سريعة عند مدخل غرفة الاجتماعات، وتقدمت تلك الخطوات حتى هدأت عند مقعد بجواري...

عذرًا سيدي، ما كان ليمنعني عن الالتزام بالموعد سوى حادث مروع، فلم أستطع تجاهل حدسي الصحفي مما دفعني إلى نقل ملابساته، ثم مررت بقسم التحرير لإعداده للنشر حتى يكون لنا السبق. هذا سبب تأخيري.

تبدّل التذمر سريعًا على وجه السيد رئيس التحرير إلى ثناء مبتسم وقال بفخر متصاعد....

هذا ما أعهده عنك يا نادر، ولهذا أيضًا كان يجب ألا تفتقد تلك المأمورية طاقات مثلك، فبادله نادر ابتسامة نصر تحولت إلى اعتزاز بالنفس عندما وصلت إلى كيان، ثم استخفاف عند صالح إلى أن انتهت بشماتة عندما وصلت عندي.

لم أعجب مطلقًا بقدرة نادر على ليّ عنق ابتسامته لتحتوي على هذا التنوع، والذي إن دل على شيء فإنما يدل على قدرته على التلون كالحرباء حتى تستطيع أن تتعايش مع الأوضاع المتغيرة. هذا بالنسبة للحيوان، أما في حالة

نعت الإنسان بالحرباء فهذا له وقع معلوم لدى البشر ونحن نعلمه بالطبع لأننا منهم، وهذا ما يعلمه صالح أيضًا، بخلاف باقي أعضاء الجريدة.

إنه نادر أسعد، يظن أهل الجريدة لوهلة أنه شقيقي لتشابه اسم الوالد، لكن حمدًا لله على أنه ليس كذلك، وإن كان لتبرأتُ منه مثلما يتبرأ الوطن من ابنه لو كان جاسوسًا، أو حتى لو كان بطلًا؛؛ فالتبرؤ مبدأ مع أمثاله، يستحوذ نادر على ثقة كل مديريه وصولًا للسيد رئيس التحرير شخصيًا، فهم يرون فيه الوتد الذي سيستقيم عليه كيان الجريدة لعقود بفضل مجهوداته وانفراداته، كما يرون فيه النموذج المثالي للصحفي الفذ، فهو متشعب وممتد الأضلع وله سيل من المعارف كغثائه. أما الواقع فغير، فلو اطّلع نادر جدلًا على موعد القيامة لأخفاه عنّا حتى يفوّت فرصة التوبة علينا. يعتقد أنه جذاب، لكن ما الجدوى من هيئة ظاهرها الجمال وباطنها العذاب، يري نفسه رسولًا للتفوق من دون أن يعير اهتمام بالكيفية، كما يعتبر نفسه إمامًا للتميز من دون أن يلتزم بمعاييره، ولا توجد لديه أدنى موانع لرسم أي طريق سوي أو متعرج للوصول إلى هدفه، ولقد رسم إحداها لاستهداف قلب كيان، وهذا ما جعل الصدام بيننا واقعًا لا محالة، ووجوده معنا في ذات المهمة يدق ناقوس خطر يحتم علي التصدي الحتمي لرذالته، أما إن تعلّق الأمر بكيان فلن يجدي نفعًا كل ما تحتويه جعبته من أسلحة سامة أمام عاشق صادق، وهذا ما جعلني شريكًا أصيلًا في أي حدث قد يجمعهما، نعم، أنا عاشق لكيان، وهذا ما لاحظه صالح حينما بادلت ابتسامته الشامتة بنظرة حديدية عنيدة فتدخل مداعبًا وقال....

سنغزو العالم إذن، إن استلزم الأمر ذلك سيدي.

أشعل السيد رئيس التحرير سيجار من نفس نوع غرفة الاجتماعات،

وقال مع زفير أول نفس دخان جملة لم يتقبلها عقلي لاستحالة انسجامها مع تكويني لوجود نادر في ذلك التشكيل....

وصلني قدر الروح الطيبة السائدة بينكم من خلال تجمعكم وتفهمكم، وهذا هو ما يجب توفره بالفعل بين أعضاء الفريق الواحد.

سكتَ برهة ونظر لنا جميعًا نظرة تحليلية ثاقبة بدأها من داخل عيني ثم إلى الكل وقال ....

حسنًا، سنرى، لأن هذا تكليف من نوع خاص، تحسبه للوهلة الأولى بسيطًا، لكنه يمثل بداية هامة لبناء ما يتلوه من خطوات، ثم صمتَ برهة من دون سبب جعلتني أنا وصالح على وشك الانقضاض عليه لنستخرج ما به من تفاصيل بالقوة، إلّا أنه أجهض محاولتنا وقال....

البداية ستكون من النمسا.

تجمدت أعضائنا حرفيًا وظهرت أثار التجمد على ملامحنا لولا تدخل كيان والتي بدورها أذابت هذا التجمد بقولها....

قرية النمسا مركز إسنا محافظة الأقصر، مسقط رأس السيد رئيس التحرير، وهي الدائرة التي ينوي سيادته الترشح عنها في الدورة الانتخابية القادمة.

رد نادر في حماسة وكأنه لن يفوّت أي فرصة قد تلوح في الأفق من شأنها أن تقربه من ذلك المقعد المغري مهما كانت وقال...

وما هي مهمتنا بالتحديد.. سيادتك؟

أجابت السيدة زوجة رئيس التحرير موجهة شرحها للجميع...

النمسا هي الدائرة التي سيترشح عنها سيادته كما وضحتْ كيان، وكما ترون فإن ظروف العمل والمهام التي يقوم بها جعلته نادر الوجود هناك أو حتى التواصل مع أهل قريته منذ فترة، ولذلك فمهمتكم هي دراسة البيئة الانتخابية بعد طرح اسم السيد كمال العمّاري للترشح وكذلك دراسة المرشحين المحتملين وبرامجهم الانتخابية، مع ضرورة الوضع في الحسبان بأن هناك أسماءً راسخةً جاثية على كرسي الدائرة ولا تتزحزح أبدًا

رمقت السيدة أريام زوجها نظرة طمأنينة ثم أردفت....

هناك خطة تم وضعها، وخطوات تمت دراستها سواء عند طرح الاسم أو عند الكشف عن البرنامج الانتخابي، وعلينا ألّا ننسى قوة اسم السيد كمال العمّاري، والذي سيساعدنا على حجز المقعد الانتخابي عن الدائرة الخاصة بمسقط رأسه، وعلى الرغم من قدر العداوة الذي قد يبدو لقافلتنا هناك، إلّا أننا لن نتوان في الدفاع عن كامل حقنا في الفوز بالمقعد الانتخابي دون ادّخار أي جهد أو وقت أو مال.

ابتسم صالح وقال في جو من المرح...

يالها من مهمة بسيطة جدًا وسيكون المقعد من نصيبنا بإذن الله.

قال رئيس التحرير في صرامة...

عليك ألّا تستهين بتلك المهمة، فعلى الرغم من ابتعادي عن قريتي إلّا أنني متأكد من أنهم قادرون على التفريق بين صاحب الوعود الحقيقية والعهود الواهية، كما أنهم مهما حدث ستجدهم يميلون ميلًا من الجائز أن يكون كاملًا للعصبية القبلية والتي قد ترجح كفة المرشحين الدائمين، حتى لو لم يفوا بوعودهم الانتخابية السابقة، ثم نظر تجاهي وسأل بود...

ما رأيك يا كمال؟!، فلم أسمع منك أي تعليق حتى الآن.

أجبت بابتسامة مصطنعة...

قرية النمسا مركز إسنا محافظة الأقصر، على الرغم من أن لون بشرة حضرتك لا يدل على أصلك الجنوبي إلّا أن هذا يفسر الأصالة المصرية التي تشع من طباعك الجميلة.

ابتسم الحضور بمن فيهم كيان والتي بادلتها هي فقط الابتسامة، ثم استطردت كلامي قائلًا....

لكن تلك المهمة ليست بحاجة إلى صحفيين.

أليس كذلك؟

تحولت الابتسامة التي ارتسمت على وجوه الحضور في الحال إلى حواجب معقوفة وأسئلة مزدحمة، باستثناء كيان التي أعجبها جرأة الملحوظة، ثم بادر السيد رئيس التحرير وسأل بهدوء حكيم...

من هو الصُحفي بوجهة نظرك يا كمال؟

أجبت بتردد ظاهر للجميع، كما لو كنت في اختبار شفهي مع أستاذ المادة المتسلط في سنة تخرجي...

الصحفي هو الناقل الأمين للخبر في الوقت والزمان المحددين.

قال رئيس التحرير بنفس الهدوء....

هذا أكاديميًا، أما الواقع فيختلف.

ثم أردف بنبرة بدت ختامية للاجتماع....

الواقع يقول إن الصحفي هو الشخص البارع في رواية القصة من وجهة نظر غيره، وهذا ما أريده في تلك المهمة.

ساد الصمت القاعة برهة من الزمن والذي أنهته السيدة أريام بحزم...

حسنًا؛ السفر بعد ثلاثة أيام من الآن، عليكم تجهيز أنفسكم، وستقوم كيان بشـرح كامل التفاصيل وخطة التحرك وطريقة إعداد التقارير.

نهض السيد رئيس التحرير وخرج سريعًا من غرفة الاجتماعات وتبعته زوجته ثم نادر، وبقيت كيان وصالح الذي انهال عليّ بالنظرات واللعنات المُقَنَّعَة لوجود كيان، وهذا السبب نفسه الذي جعلني أتجاهل ما انهال به عليّ ووجهت حديثي صوبها وقلت بجرأة....

أيحتاج شرح تفاصيل تلك المهمة إلى عقد اجتماع آخر أم ماذا؟!

أجابت كيان وهي تقوم بتجميع الملفات الملقاة على مائدة الاجتماعات وقالت بنفس الجرأة....

الأمر لا يحتاج لاجتماع آخر، ستقوم أنت وصالح ونادر بالسفر بعد ثلاثة أيام كما وضح السيد رئيس التحرير، وسيكون منزل سيادته بالنمسا هو النزل والمقر الذي سيبدأ منه التحرك وبداية استطلاع الرأي، سيكون العمل لمدة خمسة وأربعين يومًا، يتلوها لحظة إعلان الترشح، وهذا سيكون عمل مسئول الحملة الانتخابية، ومنها إلى فترة الصمت الانتخابي الرسمي.

ثم أردفتْ بلهجة حازمة....

أما بخصوص التقارير فستتم عن طريقي وسأكون أنا المسئولة عن استقبالها وإعدادها ورفعها لسيادته.

سأل صالح باهتمام....

كيف حال ذلك المقر، هل هو مُجَهّز، أم أنه خرب كخراب العلاقة بين السيد رئيس التحرير ومسقط رأسه؟

وقبل أن تجيب كيان، قاطعت إجابتها بسؤال أراه هو الأهم وقلت بشغف....

وأين ستستقبلين التقارير؟

أجابت كيان عن سؤالي وكأنها تطيب خاطري بسبب وقع الإجابة الثقيل وقالت....

من هنا، سأستقبلها من هنا.

قلت بحسرة....

لقد ظننت أن كامل الفريق سيسافر.

قالت كيـان مفسرة....

كان هذا هو المقرر سلفًا، لكن السيد رئيس التحرير آثر استقبالكم بمنزله في مسقط رأسه بدلًا من النزول بفندق في محافظة الأقصـر بحيث لا تكونوا بعيدين عن مسرح الأحداث، كما وضع بالحسبان احتمالية سفري في وقت لاحق إذا لزم الأمر.

تنفست الصعداء وقلتُ....

سيلزم بإذن الله.

إلى هنا تدخل صالح بإعادة سؤاله المهم فيما يخص مكان إقامتنا بالنمسا، فأجابتْ كيان بتفاؤل ملحوظ وابتسامة رائعة....

لا تقلقا، فالمعلومات الواردة من النمسا تؤكد أن مكان الإقامة يبدو كقطعة من النمسا بالفعل، فأعمال النظافة والبستنة لا تنقطع أبدًا من المنزل، وهو مجهز تمامًا للإقامة، والملحوظة الوحيدة بشأنه تخص موقعه، حيث يقع بأطراف القرية، وما أضمنه لكم أنكم سوف تستمتعون بجمال ومناخ الأقصر الفريد.

خرج ثلاثتنا من غرفة الاجتماعات لبدء عملية التجهيز، وانصرف كل منّا في اتجاهه، وتوجهت أنا لمنزل أسرتي حيث قابلت أمي وأختي لأقتبس من دفئهم جذوة تنير أيامي، وقد كان، واختتمت الزيارة بلقائي مع الكيميائي المخضرم، الذي قال لي بأبوة مركبة....

كيف حالك وحال حياتك أيها العنصر؟

أجبتُ في آسى....

أشعر بالسطحية يا أبي.

سأل أبي بحواجب معقوفة....

ولما السطحية؟

قلتُ بتأفف....

أدائي في حياتي، وكذلك عملي، كلاهما غير مُرض بالمرة يا أبي، غير مُرض بالمرة.

ثم أكملتُ بنفس التمرد....

بالنسبة لحياتي فأنا على مشارف علاقة غير واضحة المعالم وأنا أرغبها، وهي تستحق للأمانة، أما بخصوص عملي فأنا على وشك مأمورية كُلفت

بها من قِبل رئيس التحرير شخصيًا لكنها لا ترضي طموحي، وللأمانة أراها لا تستحق.

سأل أبي بعمق....

أتؤمن بكيمياء الأفكار؟

سألتُ في حيرة... أَوَلَها؟

فأجاب أبي بعنفوان الخبرات المتراكمة وبلمسة من الحكمة...

بالطبع، فالأفكار كالعناصر لها نواة ومجال، ولها تفاعل أيضًا، فيمكن لفكرة خاملة بداخلك أن تتحد وتتفاعل مع فكرة عابرة بخارجك لتكون فكرة ناجحة وجديدة تمامًا. فكم مرة اغرورقت عيناك بالدموع عند سماع مقطوعة موسيقية، وكم مرة نجح الملتزم الذي بداخلك في إزاحة الفاجر الذي يشاركه الموقع عند سماع آية أو عظة، وكم مرة شعرت ببراح الطريق عند سماع تجارب الآخرين الناجحة. اعلم أيها العنصر أن بداخلنا نار قد تحرق وقد تنير، قد تؤذي وقد تطيب وما علينا سوى حسن التوجيه من خلال جودة الأفكار.

خرجت من تلك المحاضرة وقد أعدت شحن بطارية الطاقة الإيجابية لدي لتتحول إلى الوضع الكامل بعد التفريغ، ولا يسحب من ذلك المخزون سوى تجاربي السابقة التي يتعلق بأهدابها فقدان حُسن التوقيت، ولكنني تجاهلت ذلك المؤشر الواضح حتى ينصب تركيزي على ثلاثة أيام التجهيز لأجل المأمورية التي يراها أبي أنها على قدر عال من العظمة، بخلافي أنا حيث أراها خطوة فائتة عديمة النفع في طريق ثابت لا يتحرك ولن تنفع به خطوات، وإن نفعتْ فما نفعها مع عقل متصلب ومتشبث بالتشاؤم يرى

موانع خفية لا يدركها إلا هو، ولا يرجو إزالتها يومًا.

ولقد مرت الأيام الثلاثة كالبرق.

***

(٣)

علمَ كلًا منّا دوره، وتسلّحت أنا بالحظ العاثر وسوء التوقيت ووجود نادر، تلك الأدوات -والتي إن صح تسميتها كذلك- كانت بمثابة صفقة "الأسلحة الفاسدة". أما صفقة الأسلحة الهجومية فكانت حبي الخفي لكيان، وكلمات أبي التحفيزية.

استقللنا قطار رجال الأعمال المتجه مباشرة إلى محافظة الأقصر، بينما تملؤنا الحماسة لرؤية آثار الأجداد في معابدهم وطباعهم في أحفادهم، حاملين هم أنا وصالح ونادر، أفكار المرشح الجديد، وحاملين أيضًا أسفارًا تكفينا للخمسة وأربعين يومًا المقررين. وصلنا إلى المحطة الرئيسية للمحافظة وقد حانت الخامسة مساءًا تقريبًا، وكانت تتغلف بطابع فريد ورائحة مميزة غير التي نلمسها في محافظات مصرية أخرى.

استقبلنا بالمحطة لفيف من الجلابيب والعباءات المهيبة التي تحمل جينات السيد رئيس التحرير في ملامحهم بينما لا يظهر ذلك في لكنتهم، وقد يرجع ذلك إلى طول المسافة بين القاهرة والأقصر، أو طول فترة العلاقات غير المتواصلة بين الجانبين. على أي حال، هم استقبلونا بنفس حفاوة استقبال الدبلوماسيين من الدرجة الأولى، شارحين جهودهم للفوز بذلك المقعد الانتخابي، والذي يمثل نقلة أسرية قبلية من شأنها تغيير خريطة هم أعلم بتضاريسها منا.

كل تلك المقدمات كانت خلال رحلة برية داخل سيارة عتيقة الطراز،

لكنها أعلى فئتها في وقتهـا. نزلنا النمسا وقد أمسى الليـل بستائر لم نر من خلالها سوى بعض التفاصيل الباهتة والتي تحتاج إلى نهار لتبهرنا كما توقعنا. وصلنا لدى بوابة حديدية عظيمة لمنزل فخم غير حديث الطراز، حيث قام الوفد المرافق لنا بتركنا حاملين أسفارنا للراحة من عبء الرحلة، وقد تمنّى لنا قضاء فترة ناجحة في النمسا على أن تتم اجتماعات العمل بناءً على توصيات السيد رئيس التحرير عن بُعد من خلال كيان... ورحلوا.

ولجنا ولوج المنهارين من السفر، لا نطمع في وجبة أو رشفة، كل ما نرجوه مرقدًا يحتضن إرهاقنا ليسلبه منّا ويرد لنا عافيتنا المسطو عليها، وقابلنا أثناء ولوجنا البستاني المسئول عن حديقة المنزل ويدعى عم محمود البستاني، وكذلك الموظف القائم على المنزل والمسئول عنه السيد حجاج.

يتضمن المنزل حديقة مترامية الأطراف تحتاج لأكثر من بستاني ليغطي كل تلك المساحة المليئة بالأشجار والشجيرات والنخيل، يحيطها سور دائري من الطوب الأحمر وفي نهايتها بوابة حديدية متهالكة أدركت أنها المخرج الآخر للمنزل، أما البناية ذاتها فتتكون من طابقين، طابق أرضي دائري الشكل قليل الأثاث كثير التماثيل والمنحوتات والذي تزين جدرانه وأعمدته تزيين، وتنتهي نظرة العين عند نفس موضع بدايتها لتسلسل جمال المنحوتات السقفية المتصل، ويقطع الدائرة درجات سلم عتيقة لكنها فاخرة، تقود لطابق ثان يبدو أنه مكان غرف النوم.

كانت تلك الملاحظات العينية دون أدنى لفظ صادر عن أحد منا إلى أن قاطع استكمالها صوت السيد المحترم القائم على المنزل قائلًا...

سأعد لحضراتكم وجبة عشاء، بالطبع تحتاجونها؟

أجبنا جميعًا بصوت كورالي موحد..

لا، شكرًا جزيلًا.

ثم استطرد صالح بإنهاك...

ما نحتاجه بشدة هو غرف النوم، غرف النوم لا غير.

أجاب القائم على المنزل بأدب وهو يشير إلى الطابق الثاني....

بالأعلى توجد غرفتين جاهزتين للسكن، أما باقي الغرف ليست جاهزة للأسف، سينزل اثنان من حضـراتكم بغرفة مشتركة، وتتبقى غرفة فردية ستكون لأحد منكم.

أجاب نادر بسرعة خاطفة....

أنا لم أعتد النوم بمفردي، ولذلك سأزامل صالح الغرفة.

تنفستُ الصعداء أن الاختيار جاء من طرفه لأن هذا ما كنت أتمناه، كما أعلم أنه لم ولن يتمنى أن يكون زميل غرفة واحدة مع شخص يكشف آلة الأقنعة المتعددة التي يمتلكها.

أومأ السيد حجاج برأسه إيجابًا لطلبنا فتحرك أحد مساعديه ليقودنا إلى الطابق الثاني بينما يحمل كلًا منا أسفاره ودلّنا على غرفنا. دخل صالح ونادر لغرفتهما أولًا، والتي تقع في بداية الطابق ومعهما حقائبهما، ثم توجهتُ أنا والمساعد لغرفة في نهاية الطابق حتى وصلنا لبابها وشكرته شكرًا أبويًا على مجهوده، فودعني بابتسامة مماثلة واستدار ليرحل، ولكنني لاحظت جملة على طرف شفتاه تمنعه من الرحيل، فسألته بأدب على الرغم من إنهاكي...

أتريد قول شيئًا أبي؟

قال بذات الأدب....

لقد كنا في انتظارك يا ولدي.

ابتسمت وربّت على كتفه بحنان وقلت....

هذا من ذوق حضرتك.

رد المساعد بهدوء مريح....

أنا أقصدها حرفيًا، نحن في انتظارك أنت دون سواك، ثم رحل.

كان رجل طاعن في السن، يغطي الشيب خصلات الشعر البارزة من رأسه من تحت عمامة صعيدية معتادة في تلك الناحية، كما يبدو أن قدمه من قدم المنزل وجنباته. استقبلت كلمته ولم أع بها فقد كان هناك من يناديني بقوة ساحرة تجاهه، قوة تسلبني قواي عن رغَبة منّي، فوضعتُ متعلقاتي داخل خزانة تراثية رائعة، واستجبت لنداءات السرير الساحرة، لكن استوقفني تيار هوائي قادم من نافذة بحرية مفتوحة، دفعني التيار صوبها كمغناطيس ممتع فتوجهت لأطل منها، كانت تطل على كافة الحديقة بكامل اتساعها، وعلى آخر مرمى الجزء المرئي من الحديقة توجد تلك البوابة المتهالكة، والتي تبدو من نافذة غرفتي وكأنها بوابة لعالم آخر، ثم ابتسمت من تحليلي الفاقد للوعي، وجذبني السرير إليه بلطف، فتركتُ نفسي لجذبِه وغفوتُ دون مقدمات.

استيقظت من نوم دام قرابة خمس عشرة ساعة متواصلة بلا انقطاع أو فواصل أو أحلام، واستفقت على نغمة رنين هاتفي، فقمت بالتقاطه ووجدت المتصل كيان من صورتها، والتي استقطعتها من أرشيف الجريدة خلسة لكي تطل بصورتها عند اتصالاتها النادرة بي، فأجبت في إرهاق ذهب مفعوله على الفور....

صباح الخير، كيف حالك؟

جاءني الرد من الجهة الأخرى بلطافة....

صباح الخير، لقد أقلقتمونا عليكم.

قلت مفسـرًا....

نأسف لقلقكم، لكنه إجهاد السفر وبُعد المسافة اللذان أجبرونا على الدخول في غيبوبة غير اعتيادية.

ثم أردفت متساءلًا....

هل أجاب صالح أو نادر على اتصالك؟

أجابت كيان بجدية....

لم أتصل بأحد، لقد آثرت أن أبدأ بك.

قلت في حنان....

يا لها من بداية، أشعر بالتفاؤل من تلك البداية الجديدة.

ثم سألت في تهكم غير مبالغ فيه....

أهناك أي خطط واردة من المقر سيدتي؟

أجابت كيان في تهكم أيضًا....

ليس بعد أيها الجندي المتحذلق.

سألت مجددًا وقد عدلت جسدي وأنزلت قدمي أرضًا بعد فترة غياب تبدو طويلة نسبيًا.. .....

إذن ما هو جدول عملنا اليوم؟

أجابت بدلال حسب ظني....

لا شيء، اليوم وغدًا ملككم لكي تتعرفوا على النمسا وضواحيها وبقية القري التابعة لمركز إسنا، وبعدها ستصبحون ملكنا.

قلت بحنان مضاعف....

أنا على استعداد أن أكون ملككم من الآن، وأن أتجمد في محلي إن كانت تلك هي الأوامر.

أجابت كيان في حزم يذيب ما تجمد....

حمدًا لله على وصولكم، سأطلعكم على المستجدات في وقتها.

أنهت كيان الاتصال بالتزامن مع طرق باب غرفتي بلطف بالغ، فسألت وأنا أتقدم صوب باب الغرفة....

من الطارق؟

جاءني صوت المساعد صاحب توصيلة أمس حتى باب الغرفة وقال في إشراقة بهية....

الفطور جاهز يا ولدي، وصديقك في انتظارك بالأسفل.

أجبتُ وقد تذكرت جوعي الطاعن....

حسنًا، سأوافيكم حالًا.

نزلتُ في عجالة لتناول الفطور وقد بدأ صالح مراسم الالتحام مع الفطور قبلي بالفعل، فسألته وأنا أستقبل مقعدي على مائدة الطعام....

كيف حال نومك البارحة؟، وأين نادر؟

أجاب بفم يتلاعب بالطعام....

نمتُ حتى الثمالة، نمت نومًا يكفيني أسبوعًا من اليقظة، أما نادر فقد سبقنا إلى الفطور ومنه إلى جولة بالنمسا سيرًا على الأقدام، حاله كحال كتيبة الاستطلاع في الحروب.

أنهينا الوجبة وحضر سائق رحلة أمس والذي اتضح لنا الأن بعد إفاقتنا بأنه من نفس هيئة النمسا، وقد قام باصطحابنا بعد انضمام نادر لنا في جولة سياحية فاخرة غير مدفوعة الأجر، مررنا من خلالها عبر الأماكن التي يدفع الناس من أجل التقاط ولو صورة واحدة بها، وجال بنا مواقع تجلب الفخر تمامًا كما يجلب البطل الفخر لأمه، حضارة ليس لها أن تموت إلّا إذا وافق المنتمون لها على موتها، أعظم حضارة في العالم القديم "الحضارة المصرية القديمة" وقد ترك لنا أجدادنا من الألغاز والأحاجي التي لايزال العلم الحديث عاجز عن حل شفرتها، مما يدل على قدر التطور الذي إن كنّا قد تتبعناه لأصبحنا كما كانوا.

ترجلنا من السيارة قليلًا لنختلط بالجمع القروي والذي كان على يقين بأننا غرباء يفضحنا مظهرنا حتى ولو لم ننطق بكلمة، وينظرون لنا كما لو كنّا لجنة من لجان حقوق الإنسان وقد حضرتْ لإرساء المبادئ المنصوص عليها بالمنظمة. جلسنا على مقهى يضم مختلف أنواع الملابس من الجلباب للسروال حتى البزة، وقد اخترنا هذا التنوع في الزي حتى نختبر مقدار التنوع الفكري المطالبين بمخاطبته في مهمتنا، ولم تدر أية أحاديث سوى بالأعين تمهيدًا لدخول الألسن في حينه.

جلسنا جميعًا وأكمل رباعيتنا السائق، والذي كان مفوضًا بمخاطبة أي

طرف ينوي الدخول معنا في حوار، ثم نادى بعينه لعامل المقهى، والذي حضر قبل أن ينهى السائق طرفة العين، وتطلّع فينا كما لو كنّا معروضون للبيع، ثم قال بعفوية جذابة...

ما طلب الأساتذة؟

أجاب السائق دون الرجوع إلينا ...

فلتحضر براد من الشاي الصعيدي المحترم للضيوف المحترمين.

ولا تنسى النعناع.

ابتسمنا أنا وصالح من جودة الطلب الذي حضر أسرع من حضور عامل المقهى نفسه لتلبيته، أما نادر فقد اختار أن يمارس هوايته الرذيلة بعدم مشاركتنا الحس الفكاهي.

شعرنا في بداية تواجدنا بالنمسا بدفء يجعل العاصمة في الشمال تنام مطمئنة من قدر الأمان المتواجد في الجنوب، والذي يحزم ويحرم من تسوّل له نفسه من الاقتراب أو حتى التصوير دون إذن، وخلال جلستنا اقترب من صالح رجل مُسن طيب الطلة، وتمعن النظر به وسأل في استفسار....

أجئتَ بمفردك يا فتي، أم أحضرتَ معك المراد؟

ابتسم صالح ولم يرد، وتبادل النظرات مع السائق الذي بادر المُسن بالرد وأخرج من جيبه ورقة عملة من فئة الخمسة جُنَيْهَات وقال بلطف....

نعم أيها الشيخ العجوز، لقد أحضر معه المراد وها هو.

ثم أكمل مازحًا... تعالى لتلتقطه.

تجاهل المُسن ورقة العملة وكذلك رد السائق وتوجه إليّ مثبتًا نظره تجاهي

حتى وصل إلى أعتابي ووضع يده على كتفي وقال في استبشار عميق غير عادي...

لقد كنا في انتظارك يا ولدي.

ثم ربّت على كتفي بود لافت وقال...

إن ضاقت عليك، تعالى، وإن جئت فاعلم أنها ضاقت.

لم أعِ المغزى من تلك الجملة الغامضة وابتسمت وأجبت ببلاهة...

أظن أن المحافظة بأكملها تنتظرني.

سألني صالح مداعبًا بنفس بلاهتي...

ماذا تقصد أيها المرشح؟

قلت فانسحب المُسن من دائرة الحوار وغادر المكان...

هذا المُسن اليوم، وكذلك أمس، كرر لي نفس الجملة بالمنزل السيد، أظنني لا أعرف اسمه، فسكت برهة ثم أكملت...

المساعد!!، لا أتذكر اسمه لأنه لم يذكره لي من الأساس.

ابتسم السائق وقال في سخرية...

لقد علمت أن السيد كمال العمّاري هو المرشح وليس أنت.

ثم انتهت سخريته سريعًا وسأل بدهشة...

أي مساعد؟!، أتقصد السيد حجاج القائم على المنزل؟

أجبت في ثقة متناهية...

لا، ليس هو من أقصده، بل أقصد المساعد الذي استقبلنا عند حضورنا معك وعم محمود البستاني وكذلك مع السيد حجاج الذي دعانا لتناول العشاء وامتنعنا لإرهاقنا.

ثم أكملتُ بثقة تبدو متناقصة...

ذلك الرجل الذي اصطحبنا إلى الطابق العلوي.

قال السائق في ثقة مضاعفة...

لم يكن هناك أحد سوانا والسيد حجاج، وعم محمود البستاني.

نظرتُ إلى صالح لأستنجد بذاكرته وسألت...

ألم تري الرجل الذي اصطحبنا لغرفنا بالدور الثاني يا صالح؟

أجاب صالح بتهكم مستفز...

إنها الرحلة يا صديقي، إرهاق الرحلة جعلك ترى أناسًا وتتحدث مع أشخاص، ثم ازدادت نبرة التهكم وقال...

وليكن في علمك هذا خطر على مهمتنا.

توجهتُ إلى نادر آسفًا وسألته مستعطفًا ذاكرته أن تؤيد موقفي...

ألا تتذكر يا نادر ذلك المسن ذو العمامة؟

أجاب نادر في سخافة معهودة....

لا أعرف عما تتحدث يا كمال.

نظر نادر للجالسين ثم استطرد مازحًا....

إذا كنتَ تنتوي الترشح، سأمنح صوتي للمنافس.

سألتُ في صرامة متزايدة محت على الفور الابتسامة الواضحة على وجه صالح والسائق، والخفية على نادر...

ألم يصعد ذلك الرجل المسن معنا إلى الغرف بالطابق الثاني أمس؟ ألم يقم بإعداد فطور الصباح ودعاني لتناوله معك؟

أجاب صالح وقد تراجعت نبرة التهكم وقال بإصرار...

لا يا صديقي، لم يصعد أحدا معنا للغرف ليلة أمس، كل منا حمل أحماله وصعدنا، ودخلتُ أنا ونادر الغرفة في بداية الطابق وتوجهت أنت لنهايته، أما بخصوص الفطور، فقد أعده لنا السيد حجاج بنفسه، وحضرتَ أنت بمفردك بمجرد إعداد الفطور ولم يقم أحد بدعوتك.

ثم أكمل بقليل من التهكم المستفز...

ها، مممم، كيف الحال إذن؟.

إلى هنا وتدخل السائق مستفسرًا وقال...

ماذا قال لك هذا الرجل المُسن يا ولدي؟

أجبتُ في تشكك...

قال لي مثلما قال ذلك الرجل الآن.

سأل السائق بود...

وماذا أجبته؟

أجبتُ في تشتت...

لا أذكر، لقد كنت مُنهكًا إلى حد فقدان الإدراك.

قال السائق وهو ينظر إلينا "أنا وصالح ونادر" بنظرة متسلسلة...

ربما هو الإرهاق، لا عليكم، أتمنى أن تستمتعوا بوقتكم في النمسا، فهي رغم فقرها المدقع وظروفها المعيشية المُجحفة إلّا أنها تتمتع بقدر وفير من الحكايات والروايات التي تجلب المتعة في سردها والعظة في تناولها.

انتهت جلسة المقهى من دون رد قاطع لما ادعيته لهم، وتوجهنا إلى المنزل لتناول العشاء أو الغداء المتأخر، وقد شرعت الشمس في الرحيل وما أروعها وهي تغادر، ترحل وكأنها تشد علي يدك بأن تتمسك بعزيمتك لوقت شروقها غدًا، وهذا ما جعلني أتساءل حول سبب الحياة البائسة هنا على الرغم من سيادة الجو العام الباعث على النجاح، وكان الرد عبارة عن ملامح عابثة غير مجدية.

رحل السائق وقد وضع نفسه رهن خططنا وتحركاتنا ودخلنا من البوابة الرئيسية للمنزل، وقد كانت الحديقة في أبهى صورها، ومن العجيب أنها توردت وازدهرت بين عشية وضحاها أو هكذا لاحظتُ، وكأنها فرحت بحضور أناس جدد غير الذين تتهادى أيامهم عبورًا بها، وتوسطها السيد محمود البستاني والإجهاد متمكن منه تمكنًا واضحًا.

دخل صالح ومعه نادر مباشرة إلى المنزل ليستعجلا الطعام على الأرجح، بينما توجهت إلى السيد البستاني وتجاذبت أطراف الحديث معه قائلًا...

كيف حالك أيها القوي؟

ابتسم ابتسامة جميلة نتيجة لسؤالي التشجيعي وأجاب بإيمان لمسته بقلبي حقًا...

القوي هو الله يا ولدي.

سألته... منذ متى وأنت تعمل هنا؟

أجاب غير مبال...

سنين، لم أعدها ولن أحسبها، عمري مر هنا وسينتهي هنا أيضًا.

سألتُ... ألم تبرح المكان قط؟

استدار صوبي وترك ما بيده من أعمال البستنة وأجاب إجابة تغمرها السنين...

أترحل زهرة تاركة أرضها يا بني، بالطبع لا، فأنا هاهنا منذ أن ابتاع السيد كمال العمّاري المنزل فهو ولي نعمتي وصاحب فضل كبير علينا، ولا أترك مكاني قط إلا إذا جاءت التعليمات من القاهرة بإخلاء المنزل لفترة، قد تقل أو تزيد، حسب زيارة السيد رئيس التحرير.

استرعاني ذلك الاستثناء، وسألتُ بفضول....

ماذا تقصد بقولك إخلاء المنزل وقت حضور السيد رئيس التحرير؟

رمقني نظرة مفادها أنه لن يبوح بأكثر من ذلك من معلومات على اعتبار أنها تندرج تحت بند أسرار العمل، وقد احترمت ذلك وسألت بأدب متزايد....

ألديك زوجة وأبناء؟

أجاب وظهر على إجابته تقديرًا تجاهي لتغييري دفة الحديث....

زوجتي توفاها الله منذ زمن، أما أبنائي فما شاء الله لا يتخيرون عن سيادتك، متعلمين وذوي تربية، منهم من يقيم بالأقصر ومنهم من يعمل ويقيم ومتزوج بمصر.

صمتَ في فخر ثم أردف...

وأنا هنا أستكمل أعمالي التي لا تنقطع عني ولن أنقطع عنها ما حيَيت، ولا أطمع في تغيير أو تعديل ما كتبه الله لي خلال أيامي القليلة المتبقية.

قلت بحماسة....

أطال الله عمرك ومتعك بالقوة والصحة يا رجل.

ابتسم ابتسامةٍ رجاء أن أتركه كي يستكمل أعمال البستنة في أرجاء الحديقة، لكنني لم أُلبي رجائه وسألته بتطفل زائد...

أيوجد أشخاص آخرين يقيمون بالمنزل عداك والسيد حجاج؟

أجاب ولا يزال يتمسك ببشاشته...

أنا فقط، أما السيد حجاج فتتراوح أيامه ما بين هنا ومنزله بالنمسا.

زاد تطفلي لأدبه وسألت...

ألا تعرف السيد الذي استقبلنا أمس؟

أجاب السيد محمود البستاني....

نعم هو السيد حجاج القائم على المنزل.

قلت بانفعال مؤدب وواثق...

لا.. ليس السيد حجاج وإنما كان هناك شخص آخر رافقني إلى غرفتي بالدور الثاني، حتى أنني أستطيع أن أصفه إليك.

أجاب البستاني بثقة تدحض ثقتي....

أنا وحجاج فقط من استقبلكم عند حضوركم مع السائق، وعلى العموم

صِفْه!

وصفته للبستاني كما رأيته تمامًا عندما استقبلنا مساءًا، وكذلك قصصتُ عليه ما حدث صباحًا حين دعاني للنزول لتناول الفطور.

لم ترسو إجابة البستاني على الميناء الذي رصدته، حيث أنكر ما رأته عيناي وصدّقه إدراكي، وتضاءلت فرصتي لتدعيم روايتي مقابل دعوة منه صالحة لمدة ليلة كي أتجول بالحديقة لأستمتع بمحاسنها، غير أن الدعوة فقدت صلاحيتها فور تصريح صالح العلني بأن وجبة العشاء في طريقها إلى الهلاك إن لم تهلكها أسناننا، فأجبت صالح على الفور بتفويض من معدتي.

انتهت مراسم العشاء وتوجهنا لغرفنا، وتمركزتُ بجانب نافذة غرفتي أتطلع إلى الحديقة وما بعدها، ويجذبني السكون والهدوء كالتاج الذي يترصع بالذهب، وماسة التاج هي كيان والتي تشاركني في كل اختلاء بنفسي، وتتجلى في كل ليل يرجو الغد الخاص به ليبوح بالمنتظر ويرفع الحجاب عما نتمناه، آأصبح حقيقة أم ننتظر ليلًا آخر يتشوق لغده؟ وما ينغص أمنيتي إلا ذلك النادر والذي لن يتوانى في استخدام كافة الآلاعيب ليصل لمبتغاه والذي يتعارض مع ما أتمناه.

هذا ما يدور بخلدي، أما الواقع فكان واقع بعد الانخراط في جدول الغد الذي تم تنظيمه لإرضائنا، وقد بدأ برحلة عبر صحاري الجنوب وانتهى بعُرس صعيدي أقصري خالص، وكان حقًا يوم للتخليد انقضى سريعًا كما تنقضي كافة الملذات سريعًا، وجرت ساعاته وحملتني وقامت بتسليمي برفق لمكان تمركزي أمام نافذة غرفتي لأحيا مجددًا في خلوة أتمناها شرعية مع من أنشده، إلى أن قاطع خلوتي الروحية، الأصل الذي أرجوه، حيث ظهرت بجمالها على شاشة تليفوني وأعقبه صوتها العذب ودلالها حيث

قالت...

مرحبًا، كيف حال الجنود اليوم؟

أجبت بابتسامة غير منتهية....

على أهبة الاستعداد أيها الآمر، كيف حال من يهتم بحالنا؟

قالت كيان بلهجة مقدّمي الأخبار المستفزة عندما يقاطعون حدثًا جميلًا تتابعه باهتمام....

اعتبارًا من الغد سيبدأ جدول الأعمال الخاص بالمهمة، وسنبدأ بتجميع آراء البسطاء حول إمكانية تغيير الأسماء الراكدة على كراسي الدائرة، ويجب أن تضعوا في الحسبان إمكانية عدم قبول الفكرة المبدئية التي نتبناها كممثلين لمرشح محتمل، ولذلك سننسحب فورًا إن شعرتم بصدام في النقاش، وسنضع دائرة حمراء حول موضع الصدام فوق خريطة المهمة على أمل أن نجد طريقة أخرى للتواصل، هذا بالنسبة للبسطاء. أما المثقفون فسيسهل الوصول إليهم طبقًا لأماكن وجودهم سواء في المدارس أو قصور الثقافة أو ما شابه، ولكن قبل التواصل علينا التحقق من ميولهم وانتماءاتهم، وإن كانوا بدون، فسيكون لنا الغلبة في وضع قدم داخل عقولهم لمنطقية برنامجنا الانتخابي وجديته، وتلك أقوى أسلحتنا، أما أخطر ما قد يواجهنا هي تلك الفكرة التي من الجائز تصديرها للعامة بأن هدف السيد رئيس التحرير من الترشح هو تعزيز وضعه المالي بالسلطة البرلمانية، فيكون جبهة مادية سياسية مستحيلة التخطي أو النيل من تكتلها.

سألتُ في تذمر...

كيان؟!، هل تتحدثين بارتجالية، أم أنك تقرئين من مخطوطة؟

أجابت كيان باستغراب....

ماذا تقصد؟

قلتُ بلامبالاة واضحة....

لا عليك، لا عليك.

ثم أردفتُ بذات اللامبالاة...

حسنًا، وهل سأنقل هذا الجدول لباقي الفريق أم أنك ستتكفلين بإعادة هذا السرد المشوّق عليهما؟

قالت وقد لاحظتْ الحدة الصادرة من النمسا....

بالطبع لا، ليس هناك داع لتكرار التعليمات ولا سيما أن هذا ما يميل إليه السيد رئيس التحرير والسيدة أريام لما يرونه فيك من حسُن التصرف وجودة العقل وسداد الرأي.

ابتسمتُ ابتسامة أحادية لم يصل مداها للجهة الأخرى وسألتُ بحدة تكاد تكون خفية....

وماذا عنك؟ هل تشاركين السيد رئيس التحرير وزوجته المصون نفس الرؤى؟

أجابت كيان بلا أي انطباع....

بالطبع؛ فأنت منجم مواهب يحتاج إلى تنقيب، أنت نفسك لا تعلم خباياه ولكنها ستطفو يومًا ما، فحتى يشعر بك الناس، لابد أن تشعر أنت بنفسك أولًا.

ثم استطردت في حنان بالغ لكنه غير مقصود....

فأنت يا كمال كالزهرة لن تظهر محاسنها إلا إذا اختفت في قلب تربة، حيث السكون والهدوء، وعليك أن تستغل تلك المأمورية في النمسا، ولتعتبرها التربة التي ستتخفى بها حتى تتورد مواهبك وتنمو، لتصبح محط إعجاب قريب، وستكون.

تدخلتُ بسؤال يمكن وصفه بالغباء المتسرع حيث قلت....

وكيف حال إحساسك مع شريك المهمة، نادر؟

أجابت كيان بحواجب معقوفة أدركت رسمها من خلال ردها حيث قالت بدفع محسوس...

كيف الحال؟ نادر عضو من أعضاء الفريق ولا يجمعنا سوى مصلحة العمل المشتركة، وما يربطنا سوى نجاح المهمة حاله كحال باقي أعضاء الفريق.

ثم أردفت وكأنها تطيب خاطري الذي تشقق من مساواتها لي بباقي الأعضاء...

يا كمال، لقد خاب من قارن نفسه بغيره، فالميدان للموهبون أما المدرجات فللمتفرجين، والعمل هو معيار ما يجمعنا دومًا.

ساد الصمت في القاهرة والنمسا، فالقاهرة تنتظر الرد والنمسا تريد المزيد، وما بين الرد والانتظار جاء صوت طرق الباب الذي طال لتجاهلي له، فجاءت التعليمات من القاهرة حادة قاطعة وسألت...

كمال؛ أيطرق بابك؟

أجبتُها وكلّي نيّة أن أصب جام غضبي على صالح لتأكدي من أنه الطارق

"مفرق الجماعات وهادم ما أظنه ملذات"، فلن يكون نادر على الأرجح لأننا ننتقي خطواتنا لتظل متفرقة، وقلت محترقًا....

نعم، وأعلم حقًا من الطارق، دعيه، سيرحل بمفرده.

ضحكت كيان ضحكة من شأنها فك عمل سفلي أُلقيَت أوصاله في جوف ضبع تاه في البرية وقالت....

أَجب الطارق الأن، وسنكمل تنقيبنا عن مواهبك الدفينة لاحقًا.

قلتُ في ضيق....

حسنًا، حسنًا.

توجهتُ إلى باب الغرفة لأُجيب الطارق اللعين، وأنتقي ما بين أسلحتي سلاح لأشهره في وجه صالح لسوء اختياره التوقيت، فاخترت سلاح الصفع لأنه يستحقه بدلًا من السب، لكني لم استخدمه لعدم وجود مرماه بمجرد أن فتحت الباب، فترجلتُ خارجًا لألمح طرفه حتى أتمكن من مجمله، ولكن لا أحد، لا الكل ولا حتى الطرف، فاستخدمت صوتي لاستدعائه واستجاب، وفور امتثاله صرختُ فيه صرخة أم رأت طفلها يسرق متلبسًا...

ماذا تريد يا صالح؟، أهذا وقت لألاعيب الأطفال تلك؟

سقطت حواجب صالح وضاقت عيناه وارتفعت وجنتاه وسأل مستفسرًا عن سبب ثورتي...

ماذا تقصد؟

قلتُ ولا يزال إحساس الصراخ يتملكني...

نعم، ماذا تريد الآن؟

أهذا الوقت المناسب كي تطرق الباب وتختفي؟

خرج نادر من غرفته استجابة لصراخي، كما خرج صالح من ملامح الاستغراب وقال مبرئًا نفسه...

أنا لم أخرج من غرفتي منذ وجبة العشاء، ولم أحضر لدى غرفتك من الأساس، ثم قال مشيرًا إلى نادر....

لم نبرح الغرفة منذ عودتنا من جولتنا المرهقة، فمن الجائز أن يكون السيد حجاج حضر ليستفسر عن أمرٍ ما أو ما شابه.

سكتَ قليلًا ثم أردف في توضيح يكاد يكون غائرًا....

لكن إن كان هو الطارق، فأين ذهب إذن؟

استجبنا سويًا للفكرة ونادينا سويًا باسم السيد حجاج، فحضر بخطوات وقورة وقال بأدب...

أيلزمكم حاجة يا حضرات؟

بادره صالح بالسؤال بذات الوقار...

أطرقتُ باب كمال منذ قليل سيد حجاج؟

أجاب السيد حجاج بالنفي

فقال صالح مفسرًا مستخدما كلتا يديه....

هناك من صعد إلى هنا وطرق باب كمال، وعندما لبى نداء الطارق لم يجد أحدًا.

وجه السيد حجاج كلامه إلى صالح، بينما يتفحصني بطرف عينيه بعناية

وقال....

لم يدخل أحد من الأساس إلى المنزل، ولا أحد يجرؤ على الدخول من دون علمي أو إذن مني.

نظر صالح تجاهي وسألني بنبرة مرتابة...

أواثق أنت من ذلك يا كمال، أم أنه مجرد وهم؟، كالشخص الذي أوصلك أمس إلى غرفتك.

لم أرد على سخافته، ونظرتُ إلى السيد حجاج لأرى وقع السؤال على ملامحه والتي لم تتغير احترامًا، وكذلك ملامح نادر التي لم تتغير استفسارًا، ثم توجهت إلى صالح بنظري شذرًا وقلتُ وقد امتلكت دليل براءتي...

لقد كنت أُحادث كيان عن بداية جدول أعمالنا، وقد سمعتْ طرق الباب تمامًا كما سمعته أنا، وطلبت مني الاستجابة، وحين أجبت لم أجد أحدًا.

قلتُ ذلك وقد أدركت خطأ ما بدر مني للتو حينما لمحت بريق عين نادر، بريق خنجر مثالي يريد أن يسكنه في أوصالي كافة وفي لساني الذي نطق بذلك خاصة، ولكنني تجاهلتُ انطباعه عن عمد حينما ابتسم صالح ابتسامة تفسر عصبيتي التي في محلها، وطلب بكل احترام من السيد حجاج أن يهتم بأعماله على أن نهتم نحن بجدول أعمالنا الذي جئنا له، فتحرك الرجل على الفور وتبعه نادر، وعند اختفائهم استدار صالح تجاهي وقال بحماسة....

مرحى أيها الوسيم، وهل هذا هو سبب تعصبك؟ أتسبب انتهاء مكالمتك مع كيان كل تلك الثورة؟

أجبت بهدوء...

لا يا صالح، الأمر ليس كذلك، ولكنني بدأت أن أتوتر فعلًا من تلك الأحداث التي تحدث معي بمفردي، لدرجة أن من حولي بدأ يشك في قواي العقلية، وقد لمحتُ ذلك في أسئلتك، وكذلك في نظرات السيد حجاج.

أجاب صالح متلفتًا حوله بغرابه....

أتقصد أن المنزل يسكنه كائنات ترفض وجودنا، حيث بدأوا خطط طردنا بك؟

أجبتُ بنفور...

اذهب الآن يا صالح لكي ننال قسطًا معقولًا من الراحة، فغدًا سنبدأ العمل وقد نقلت كيان لي خطة العمل.

سأل صالح بمنتهى التطفل...

وماذا نقلتْ أيضًا أيها المرشح؟

استدرت خطفًا ودخلت غرفتي وأغلقت بابها في وجه ذلك المتطفل، والذي أشعل بسؤاله مصباح الفكر بداخلي، وما أن استنار إلا وتوجهت لهاتفي مستنجدًا بكيان، فأجابتْ وقد لحقتُ بآخر جفن لها قبل النوم وقالت بدلال استشعره أنا ولا تشعر هي به....

ما بك أيها الجندي؟، أهناك أمرًا مستجدًا حتى تهاتفني مجددًا؟

أجبت بإصرار وكُلّي خجل، شارحًا ما حل بي خلال يومي الاستقبال بجمل سريعة شارحة واضحة، ومستنجدًا بقراءاتها في عالم الماورائيات وعلاقته بما حدث معي في النمسا.

أجابت كيان بكلمات غير مفهومة بالنسبة لي بالمرة وقد تملكتها اليقظة

وبروح تشوبها شيئًا من الفرحة غير الغامرة حيث قالت....

إن عشقتَ شجرة فعليك تسلقها قبل انتهاء موسم طرحها، فإن لم تستطع فعليك الانتظار لموسم الطرح التالي.

أجبت عليها بصمت يكسوه البلاهة، لعدم وجود غيره بمخزون إجاباتي المنطقية.

استطردت كيان وقد ازدادت يقظتها وسألت....

أتقصد أن المنزل يقطن به سكان من عوالم أخرى؟

أجبتها وقد عانيت حقًا من ابتلاع ريقي بصعوبة وقلت....

أتعلمي أن صيغة سؤالك أكثر رعبًا مما أشعر به هنا، ولكن لا، ليس هذا الذي أقصده، فإن كان الأمر كذلك لشعر به كل الوافدين، ولكن لا صالح ولا نادر ولا القائمين على المنزل قد أفادوا بما صرحت لك.

قالت كيان وكأنها وجدتُ المتطوع الأحمق لتجري عليه أبحاث قراءتها الشاقة فيما تعشقه....

عليك أن توثق تلك الأحداث، كما عليك أن تكتشف الرابط المشترك لحدوثها بالسنتيمتر، بمعنى أن تسجل توقيت حدوثها وكذلك المحادثات الدائرة بها.

قلتُ وقد تملكني شيئًا من الخوف...

كيان، ما الأمر؟ فقد بدأ القلق يدب في عقلي وأشعر بنخزاته في صدري.

أجابت كيان بنبرة المعالجين الروحانيين، وفي نبرتها ابتسامة مقلقة بالنسبة لي...

لا تقلق أيها المختار، فقد قرأت عن أشخاص كثر روايتهم تشبه روايتك، ولكنها تنتهي عند البدايات، وكم تمنيت أن أقابل أشخاص اكتملت أحداثهم الغريبة تلك، ولهذا طلبت منك توثيق ما يحدث.

سألتُ في ريبة...

وهل تظنين أن كلامك هذا يطمئن قلبي؟

أجابت بأمومة مريحة...

لا تقلق أيها الجندي، فلن يحدث ما يؤذيك، وإن الغد لقريب.

أغلقنا الاتصال ولم ينزع ذلك الدبيب المقلق فتيله من قلبي، حيث أنني ظللت أجوب غرفتي ما بين الفكر تارة والقلق تارة أخرى، وأتأهب ما بين التارة وأختها لأن يحدث ما طلبته مني كيان أن أسجله، حتى أن النوم لم يزر جفني لساعات متتالية، وجثتي تتقلب حائرة ما بين الدوران بالغرفة والالتفاف فوق مضجعي كتمساح قد امتلك وجبته ويلف بها فتكًا، هذا بالتمام ما يحدث لي، إلى أن نجح الأرق في طردي خارج سريري.

فاستجبت له وخرجت من غرفتي مستجمعًا طاقتي ومستحضرًا كافة الأذكار التي أحصيتها في عمري، ويتقدمني خوفي من أن أجد أحد الكائنات التي ذكرها لي صالح مازحاً، والتي ترمي إلى تنفيذ مخطط لطردنا، وقد اختارت أن تبدأ مخططها بي. مررتُ بغرفة صالح ونادر عسى أن ألتقط أي صوت صادر من خلالها فأجد فيهما الونيس والأنيس، ولكن النتيجة سلبية حالهم كحال بقية الغرف غير المأهولة في الطابق بأكمله، فنزلت درجات السلم وأنا أتظاهر بأني من سكان المنزل الأصليين وأن ما عداني يجب عليه أن يعيد التفكير ألف مرة قبل أن يختبر ردة فعلي "إن كانت

هناك ردة أساساً".

خرجتُ من باب البناية بسلام مذبذب، واستنشقت هواء الحديقة العليل الذي نجح إلى حد ليس بالكبير في أن ينزع ما يساورني من قلق سلبي، أعاد الانتعاش إليّ وأحيا بعضًا من الاحتمالات التي تبدو إيجابية، فقررت أن أسرق بها جولة لعلها تطرد الأفكار المعقدة في عقلي، وساقتني قدمي حتى بوابة الحديقة الخلفية ولا أدري ما الهدف من الاقتراب من قطعة الخردة تلك، باعتبار أنه الانطباع الذي يتماشى مع هذا الجزء من الجولة، فكانت خلاف ما تبدو عليها من نافذة غرفتي، كانت عبارة عن بوابة تتكون من حديد غير مفرغ وإنما مُصْمَتْ، فلا ترى عبرها ما يقبع خلفها، وكأنها نزلت قطعة واحدة دون تدخل من عامل أو صانع.

وقفت لديها وقد تسمّرتْ قدماي فجأة كما لو كنت في حضـرة ملك من ملوك القصص المسموعـة والتي تبرز العجـب من قلب السـرد، شَخَصَ بصري مشـدوهًا مبهـورًا، وبدأت أتابع نقوشها المختفية أسفل غبار الزمان وأتأمل زخارفها التي لا تبدو واضحة إلا لمن دنى لمثل هذا القرب، وكأنها قطعة هاربة من حضارة مندثرة تمثل بؤرة الروح الخالدة وما دونها فان، وانتابني شعور غريب بالعظمة ومتأكد بأنه ليس في محلـه بالمـرة، فكيف يحضر مثـل هذا الشعور أمـام بوابة؟ مجرد بوابة حديدية تفصل حديقة منزل قديم عن صحراء شاسعة لا تحتوي على أمر يظهر على أنه مميز، ولكن المميز هو استدامة ذلك الشعور، فأردت أن اختبر عظمة الإحساس مع ملمس الزخارف والنقوش، فمددت يدي للتنفيذ، وبمجرد التقاء يدي مع نقوش البوابة زاد هذا الشعور والذي تعاظم متزامنًا مع السكون الكامل الذي ساد بالمحيط لدرجة امتناع تيار الهواء معه. صمت تام وكأن الكل سكت ليسمع أو يشاهد، ولكن إلى ماذا سيسمع؟ وماذا سيشاهد؟

تجاهلت الصمت والعظمة عمدًا حين لمع مقبض البوابة المتهالك لمعة تجبر الضرير على رؤيتها، فاقتربت منه في تـؤدة متناهية ومـا أن لمسته إلّا وشعرت بأنه انقض عليِ انقضاض العاشقين المتلهفين والتحم براحة يدي، وكان الالتحام متبادلًا دون حائل أو مانع، فكلما اقتربت أنا اقترب هو بالمقابل، وتزامن هذا مع رجوع سريان التيارات الهوائية المختنقة وعادت أصوات الحياة بعد الثبات، فأدرته ببطء مُغلّف بالتوتر السعيد، ويتملكني شعور بأنني لن أجد ما تراه عيني من صحراء عبر نافذة غرفتي وإنما سأرى عالمًا واسعًا شاسعًا مختلفًا وعبرت.

بمجرد عبوري انطلق صوت صفير أفقد أُذني الوسطى الاتزان، صفير يندرج تحت بند الموجات فوق السمعية التي تقع خارج نطاق تحمـل الأذن البشرية، متزامنًا مع ضوء هائل يشبه الضوء الذي أنتجه الانفجار العظيم عند بداية نشأة الكون، فلم تتحمل أوصالي كل تلك المواصفات، ولم تسعفني تحركاتي المترنحة أو يدي من دفع ما قد حَلّ فجأة، وانقطع الوعي بديهيًا استجابة لضغط ما فات.



(٤)

استفقت من تلك اللطمة ولا أدري ماذا صنعت بعبوري للبوابة، هل تعديت على ملكية خاصة نتج عنها ما حدث، أم حملني باب الحديقة عبثًا لبُعد آخر غير الأرض؟ فابتسمتُ من سذاجة الاقتراح الثاني وشرعت في تحريك أوصالي المتجمدة كي أسترد انتصاب قائمتي وأكتشف أين أنا بعد الإفاقة التي وجبت بعد الصدمة التي حلّت، لكن قوتي تخون إرادتي، فلا أنا قادر على النهوض ولا عضلاتي تستجيب لأوامري، ومع تكرار المحاولة يتكرر الفشل، فحاولت تحريك رأسي لأستكشف أبعاد المكان، بينما عيني لا تفهم ما تراه، فلا شيء سوى سقف غرفة مُعلق به دُمى لافتة وعرائس طفولية رائعة، تجتذبني بسحر غريب كلما أردت الالتفات عنها، فقررت استخدام صوتي لأستنجد بأي مار بجواري ليلتقطني مما أنا فيه، أو يمد يد العون لرجل وقع في موضع قد يكون مُهينًا، لكن صوتي يخون إرادتي كذلك، وكأن كل أعضائي اتحدت ضدي في تلك الوضعية. ومع المحاولات الدؤوبة نجحتُ أخيرًا في إصدار صوت يشبه صِراخ طفل لا يزال في المهد، لكن لا أحد يستجيب أيضًا للأسف، فأعدتُ الكرّة مجددًا المرة تلو الأخرى، إلى أن اقترب منّي وجه سيدة آألفه جيدًا، قامت بحملي وضمي داخلها وتعلقت في نهديها بشهوة غير التي تناسب عمري، تعلقت في نهديها جوعًا، ففزعت مما أنا قد أصبحت عليه، والذي أزاد بالتبعية حدة الصراخ لدي، فقامت السيدة بهدهدتي داخل حضنها مما جعلني أهدأ وأتناول ما كنت أصرخ لرفضه.

تناولت عنصرًا طبيعيًا صادرًا من مصدر طبيعي أعاد لي الاتزان، ثم

وضعتني السيدة في نفس الوضعية الأولى ونظري لا يبرح سقف الغرفة وأنا أداعب الدمى والعرائس المعلقة دون إرادة مني...

ما هذا؟ هل رجعت للمهد؟ ماذا حدث لي؟ وأين أنا؟

كلها أسئلة تدور بعقلي ولا تعكسها ملامحي، فملامحي تضحك رغمًا عني مستبشرة من مداعبة السيدة لـي، ذلك الوجـه الذي أعرفه عن ظهر قلب وقالب، إنها أمي، نعم تذكرت الآن، إنها أمي، ولكن كيف هذا، هل أنا داخل حلم، أم باب الحديقة قذفني للوراء فرجعت من حيث بدأت.

في خضم تلك الإرهاصات صدر صريخ مـن رجـل غاضب بضرورة التوجه لغرفة مجاورة لنجدة طفل سال دمه جراء صدمة قوية لا يتحملها من هم في مثل سنه، فتوجهنا ثلاثتنا إلى الغرفة وأنا محمولًا بين أحضان أمي إلى أن رأيتُ الطفل المصاب، أمر لا يصدقه إنس ولا جن، إنه أخي، نعم أخي الأكبر لكنه في سن الطفولة، وقد أُصيب في جبهته، تلك الندبة التي كبرت معه، ولكنني الأن شاهدت وعايشت الواقعة، فحاولت أن أتمرد على ذلك الوضـع وأنا لا أملك أي سـلاح سوى الصراخ، فصرخت بكـل ما أوتيت من وداعة تناسب عمري المحمول، وتحـول الصراخ إلى بكاء، ثم إلى دهشة مؤقتة حين تأكدت أن الرجل الغاضب هو "أبي"، نعم أبي لكنه شاب، فأنا أعرفه جيدًا وأحفظ كم كان مفتول العضلات من خلال صوره القديمة والتي تحولت إلى بث مباشر الآن، فعاد الصراخ مجددًا مما دفـع أمـي إلى وضعي في الغرفة الأولى ذات الدُمـى والعـرائس وتركتني لصراخي حتى نال الإنهـاك مني مبلغ جعلني أغفو رهقًا.

استيقظت مـن الغفـوة غير المحسوبـة وأنـا أحسب نفسي كمـال الصحفي، ولكن لا جديد، فلازلت أداعب الدمى والعرائس ببلاهة

أستغربها على الرغم من رفض عقلي لما يفعله جسدي، ويجلس حولي أمي وأبي وأخي المصاب برأس تعلوها ضمادة غريبة التركيبة صبغت الجلسة بضحكات أسرية دافئة، تتزايد حدتها كلما اختلطت مشاركتي لهم، ولكنهم لا يدركون أنني أستغيث بهم لإخراجي من ذلك الجسد الذي يحبس كمال البالغ داخله، لكن دون أي جدوى، إلى أن دبّ في المكان صوت صفير عال لا يقل ولا يزيد هيرتزًا واحدًا عن صفير بداية العبور، متزامنًا مع ضوء لا تتحمله عين طفل في المهد، فجرفتني موجات الصفير وقوة الضوء إلى طاولة منزل السيد رئيس التحرير بالنمسا، أجلس عليها مكتمل الجسد الذي اعتدت أن أكون داخله، ويجلس نادر بجواري وصالح مواجهًا لي والذي اعتدته أيضًا، موجهًا لي سؤال من أسئلة الوقت الحالي....

هيه.. أنت؟ إلى أين ذهبت؟

نظرت إليه بدهشة عطل استمرارها طعم حليب أمي في فمي وأجبت بنفس بلاهة مداعبتي للدمى والعرائس منذ قليل...

ماذا تقصد؟

قال صالح مستفسرًا...

سألتك عن تقرير عمل اليوم، هل ستقدمه يوميًا لكيان أم سيكون تقريرًا أسبوعيًا؟

تدخل نادر مقاطعًا باستنكار...

ومن ذا الذي حدد خطط سير العمل وإرسال تقاريره؟

نظرت إليهما بالتناوب وأنا أحاول أن أتمسك بأي رد منطقي لما يقولانه، لكن صالح لم يمهلني فرصة حيث أردف قائلًا....

أكيد تتمناه يوميًا، ليكون الاتصال يوميًا أيضًا.

قررتُ أن أجيب لكن منعتني أشياء وأشياء، أهمها ندبة أخي وجمال شباب أمي وحيوية أبي، فقد رأيت مشهد من مشاهد أسرتي وأنا عضو بها، ولكن ليس وأنا بالمهد، وإنما كنت أنا كمال الصحفي، كيف هذا؟ أيعقل هذا الحلم الواقعي؟ وإن كان مجرد حلم، فإين البوابة إذن؟، وما الذي حلَّ بي بعد الصفير والضوء؟ وما الذي جاء بي إلى الطاولة دون أن أشعر؟ إعصار من الأسئلة التي أقل ما يمكن أن توصف بأنها جنونية، ثم سألتُ صالح بعد استفاقة يشعرها متأخرة، وهي كذلك بالفعل....

أي تقرير؟ لا أفهم.

قال صالح وقد ارتسمت عليه نظرات الاستغراب...

تقرير عمل اليوم أيها المحارب، ما توصلنا إليه، ومجمل مقابلاتنا مع الأهالي.

قلتُ وكأنني أداعب الدمى....

ماذا عنه؟

قال صالح في تذمر حاد....

ما بك يا كمال؟، أتهزأ بي؟ ما الخطب معك؟

أجبتُ وأنا أريد أن أخرج مما أنا فيه...

إنني أمزح أيها الصديق، فليكن التقرير أسبوعيًا، لقد اتفقت مع كيان على ذلك.

ثم نهضتُ واقفًا وتركت الطاولة وصالح ونظرات نادر الغيورة مع وجبة

العشاء التي لم اقترب منها البتة، دون أي استجابة لتساؤلات صالح حول جدول الغد. صعدتُ وولجت إلى غرفتي تتراكم حولي الأسئلة كما يتراكم أهل دائرة انتخابية ما حول سيارة مرشح تقوم بتوزيع مواد تموينية أساسية قبل عملية التصويت. توجهتُ إلى النافذة لأرمق البوابة القابعة في نهاية الحديقة رمقة مرتعشة متوترة، أكاد أبكي من صدق الواقعية التي عشت بها حادثة أخي، وكلما أختار مسار تهدئة مفاده أنه مجرد حلم، ينتهك اختياري شراسة الحوار الذي دار بيني وبين صالح ونادر، فأين كنت أنا حقًا طيلة اليوم، ومن الذي كان يعمل معه بدلًا مني؟ آأتعاطى شيئًا ما، أم أن الطعام به مخدر أو ما شابه، وإذا كان الأمر كذلك فلماذا لم توثر تلك الاحتمالات على صالح أو نادر؟

نزعني وجه كيان مما أنا فيه حينما أطلّت على شاشة هاتفي تزامنًا مع رنينه، فأجبتها سريعًا وكأنها أنبوبة الأكسجين التي نزلت على فمي كتنفس اصطناعي لترد إليّ وعيي وقلت....

كيان، أغيثيني، فأنا في مأزق، لا، أنا في كارثة محققة، وصمت صمتًا يكاد يكون باكيًا ثم أردفت....

بل أنا في خطر محدق.

سألت كيان بفزع حقيقي....

ما الخطب يا كمال؟

قصصت عليها ما حييته حرفيًا دون نقص أو خلل، وهي تستمع دون مقاطعة أو ملل، وحين انتهيت لم يصلني أي رد، مما أثار مخاوفي على نفسي فصرخت بها، فأجابت قائلة....

أواثق يا كمال مما تدّعيه؟

قلت بكل ثقة....

ليس ادعاءًا يا كيان، فأنا فعلًا لم أعمل اليوم مع صالح، وكذلك لم أر نادر، فأين كنت أنا إذن، وما هذا الذي عشته؟ ساعديني أرجوك. هل عندك تفسير منطقي أو غير منطقي لما أنا فيه؟ صدقيني، فأنا سأصاب بالهوس حرفيًا، ثم أنهيت كلامي سائلًا....

ماذا أفعل يا كيان، أنا في عرض أي تفسير، أهناك أمرًا مشابهًا صدفتيه أثناء قراءاتك المتعددة؟

قالت كيان بحكمة....

يا كمال الأهم من الأمر المشابه هو تقسيم الواقعة التي وقعت حتى نستطيع تقييمها وفك طلاسمها، ففي البداية يجب أن أتواصل مع صالح أو نادر حتى يصفا لي ذلك الكمال الذي رافقهما يومهما وذلك دون توضيح أية تفاصيل.

أجبت وقد عدت إلى كمال الذي أعهده رغمًا عني...

إذن فلتهاتفي صالح دون غيره.

قالت كيان بصوت المحقق البارع....

يجب أن أتواصل مع كل من تعامل معك حتى لا تهرب تفصيلة قد تفيدنا فيما نحن فيه.

أجبت بتأفف ليس منه رجاء....

إذن، فلتفعلي ما ترينه صائبًا.

ردت كيان دون تعقيب...

حسنًا، وهذا سيكون دوري أنا، أما أنت فسيكون دورك الهدوء والتروي وعدم الانسياق وراء القلق، ثم أنهت كلامها بسؤال منطقي في محله من ناحيتها وجارح من ناحيتي حيث قالت...

أهناك دواء ما تتناوله يا كمال؟

صمتت قليلًا ثم سألت بخجل....

إن كان هناك أمر ما فمن الأجدى عدم إخفائه.

أجبت بدهشة متوارية....

لا، أبدًا، فأنا لا أعاني من أي مرض أو عَرَض سابق، أتشكين في ذلك يا كيان؟

أجابت كيان سريعًا....

لا لا، مطلقًا، فأنا أدرس الحالة من كل الجوانب.

سألت في دعابة...

أأصبحت حالة إذن؟

ابتسمت كيان ابتسامة مسموعة مريحة جاءت من القاهرة رأسًا إلى مسامعي فأذابت قلقي، ثم أغلقنا الاتصال وتركتني كي أبحث عن دوري الذي رسمته لي ألا وهو الهدوء والتروي، ولكن كيف لي أن أعيش بهذا الدور أو أبحث عنه وأنا حرفيًا واثق مما عشته اليوم، وبالفعل لا أذكر أي نشاط قمت به مع صالح أو غيره.

تقطعت بي الأسباب وأنا بالغرفة، أتلفت حولي بمجرد حدوث أي أمر

عارض من شأنه نزع الريبة من الخائف، وأتعرق كما لو كنت رغيف خبز داخل الفرن في المراحل الأخيرة من التسوية، ولا يعرف الهدوء طريقًا لي ولا التروي كذلك، وإنما كلها استدعاءات فكرية مُركبة لجلب أي خيط من شأنه استدعاء أي ذكري قد تهدي هذا العقل البائس المشدوه، وتريح ذلك القلب الذي تسارعت دقاته تسارعًا يستوجب مخالفات فكرية واجبة، ولكن دون أدنى جدوى، فتلك الأعضاء تعرّضت لما قد ينزع الروح من أحشائها عن طيب خاطر. أيعقل هذا؟ أيعقل أن أرجع من وإلى الرضاعة داخل جسد طفل بإدراك بالغ.. أيعقل؟!

***

(٥)

جاءت شمس الغد آذنه ببدء يوم جديد للكون، ولكنه لايزال الأمس بالنسبة لي، لازلت أقف أمام نافذتي ولا يبرح ناظري تلك البوابة وكذلك لا يفارق بالي حواري مع صالح ومنه إلى حواري مع كيان، إلى أن جاء طرق باب غرفتي فجذبني مما أنا فيه بقوة، فاستدرت وتوجهت إليه كـي أفتحه عسى أن أجد ما أدونه لأنقله إلى كيان كما نصحتني حتى تجد رابطًا منطقيًا لما أحيا فيه، ففتحت ووجدت خلافًا لما كنت أظنه، وجدتُ صالحًا متأهبًا ليوم عمل جديد بعكسـي، حيث إن الليل قد انسلخ بطيئًا وانسلخت معه بطارية الشحن ليوم جديد، وظهرت بوادر ذلك علي ملامحي والتي بدت تعاني أعراض انسحاب إدمانٍ ما، فبادرني صالح سائلا...

ألم تستعد بعد؟

قلت ببراءة لدرء استعدادي لتحمل المشقة عني...

اعذرني يا زميل، فأنا لم أنل أي راحة أو ما يقرب منها، وأظن أنني لن أقدر على النزول معك اليوم.

قال صالح مُصـرًا خالطًا كلامه بالمزاح....

لا يجوز أيها المرشح، فلدينا اليوم مقابلات نحسبها مع النخبة، وتلك المناقشات والممارسات لن تتم بدون لباقتك وحضورك أيها المهم.

سألت باستعطاف...

ألا يمكن أن نؤجل ذلك للغد، أو تتخذ نادر بديلًا كفئًا؟

أجاب صالح باستنكار....

نادر اليوم خارج النمسا.

فقلت راجيًا إيّاه....

إذن وأنت اليوم بالنمسا من دوني أيضًا.

أجاب صالح بإصرار أكثر....

كلا.. لا يجوز.

رضخت أخيرًا لإصرار صالح العملي، على أمل أن أخرج من غيبوبتي أو على أقل تقدير أجد إجابة أو شبه، لما يحاك حولي دون علمي، فبادرته بالموافقة على أن أوافيه نزولًا فور تأهبي، وقد نفذتُ ما أصرَّ صالح عليه وبالفعل كان يومًا عصيبًا، فكان حقًا يومًا للنخبة، وكان ناجحًا إلى حد قد يكون مناسبًا لسحبي من تيار تيه الأمس، حتى عدنا بالمطاف إلى طاولة العشاء، تلك الوجبة التي كنت أحتاجها كوقود لازم للحياة ومنها إلى النوم المضاعف ليعوض ويخفى ملامح أعراض انسحاب الإدمان خاصتي، تلك الأعراض التي أشفقَ عليّ منها السيد حجاج، حيث نصحني بأبوة كبيرة بضـرورة إعطـاء هذا الجسد الحق في الراحة حتى لا يطلبها بنفسه فيسلب مني الحياة سلبًا، فبادلته العرفان لما بدر منه من مرؤة، تحرك على آثرَها ذلك المساعد الذي رأيته أول يوم عند حضوري ولم يراه غيري، فصعد معنا.

اصطحبنا أنا وصالح ونادر للدور الثاني حيث غرف الراحة، لكن دون كلمة، وأنا أستجدي صالح بنظري ليرى ما أراه، لكن الأخير كان منغمسًا في الحديث مع نادر حول نجاحات مقابلات اليوم وكذلك شكل التقرير

الذي سيتم نقله إلى القاهرة، حتى طفح الكيل من الخوف أكثر من الضيق. إلا أن خوفي من وضعهم لي في خانة المهترئين عقليًا بشكل رسمي كان أكبر من خوفي من هول الموقف نفسه، حتى انسحب صالح من المشهد متجهًا إلى غرفته ومعه نادر دون أدنى كلمة صادرة عنّي، وانسحب معهم خروجًا آخر أنفاسي المحبوسة، فنظرت بسرعة خاطفة إلى المساعد العجوز الملازم لنا أو بشكل أدق "الملازم لي" سائلًا بفزع متراكم...

من أنت؟ ومن تكون؟ وماذا يحدث لي؟

أجاب العجوز ببشاشة أبوية....

وجودي الآن دليل على أنك لستَ من المهترئين عقليًا، لكن وجودك أنت هنا لهدف، صدقني، أقل ما يوصف بأنه عادل.

استعجبت من استخدام العجوز لنفس لفظ تشبيهي لحالتي وهي "الاهتراء العقلي" أكثر من طريقة رحيله، حيث نزل الدرج بخطوات شابة على عكس عمره دون أن يعقب بكلمة أو نظرة، فنظرت حولي متوجسًا مرتابًا دون فائدة ومن ثَمَّ نظرتُ صوب دربه الذي سلكه نزولًا حتى تبدد بين ثنايا المنزل، ثم دخلت إلى الغرفة خاصتي وأغلقت بابها ببطء يوحى بمدى الصراع المحتدم داخلي، جلست على السرير ونسيت قدر اشتياقي له بقدر فزعي من الموقف، فالعجوز أشار إلى أن وجودي بالنمسا ينطوي على هدف، فتشابكت خلايا مخّي كي تنتج فكرة واضحة مستنيرة، لكن جسدي انهار تلقائيًا لانهيار أفكاري فمددته على السرير ودخلت في غفوة لم أعلم مداها، حتى فزعت منها بنفس وضعي الممدود على السرير ويُخيّم الظلام القريب الحالك على ما استيقظت به، فظننت أنها وثبة أخرى لمكان آخر، لكنني تنفست الصعداء حين دققت النظر في أركان الغرفة ووجدت نفسي

بغرفتي في منزل النمسا.

نهضتُ بينما تحتاج أوصالي لأي إمداد أو تموين، يكاد حلقي يصدر صوتًا مخيفًا من فرط تيبسه، فترجلتُ بحثًا عن شربة تكسر جفافه حتى قادتني قدمي للدور الأرضي ومنها إلى الحديقة حتى استنشق بعضًا من الهواء العليل الذي قد يساعدني على طرد ما سكن داخل قفصي الصدري من هموم فور تذكري لحالي قبل الغفوة، وعلى ما يبدو كان التوقيت قد تجاوز منتصف الليل، وتملكني صداع أعرف سببه لا محالة، تبددت أعراضه بمجرد سماع وقع قدم بطيئة على غصن متيبس فظننته عم محمود البستاني، فبصرتُ تجاه المصدر، لكن لا أحد، لا أحد على الرغم من تيقني بوجود أحد ما أشعر بزفير أنفه جواري، مما جعلني ألتفت حولي من فرط تأكدي، حتى هبط نظري على البوابة التي تقبع في أخر الحديقة، وبمجرد التقاء نظري بها، ساقتني قدمي تجاهها تلقائيًا وعقلي يعزف موسيقى فيلم الفك المفترس لحظة انقضاضه على الضحية ونسيت أمر وقع القدم والبستاني وكذلك الزفير. اقتربت، وكلما اقتربت زاد الإيقاع وأصبح الظلام أحلك، ولا أدري هل هذا الاقتراب يتم من ناحيتي أم من البوابة ذاتها، وكذلك لا أعلم إن كان هذا التقدم يتم بمحض إرادتي الحرة أم أنه مجرد دفع كوني تجاهها؟ حتى لمع مقبض البوابة المتهالكة لمعةً تجبر الضرير على رؤيته، فاقتربتُ منه في تؤدة متناهية تشبه المرة الأولى، وما أن لمسته إلّا وانقض المقبضِ عليّ انقضاض العاشقين المتلهفين والتحم براحة يدي، وكان الالتحام متبادلاً دون حائل أو مانع، فأدرته ببطء يتملكني شعور بأنني لن أنجو بفعلتي مجددًا، لكنه فضول النفس البشرية التائهة فعبرت.

بمجرد عبوري انطلق صوت صفير تسبب في اختلال اتزان أذني الوسطى لكنه أقل وطأة من المرة الأولى، وكأن المعرفة المسبقة بالألم تقلل

من تأثيره، متزامنًا مع ذلك الضوء الهائل الذي اختبرته عيناي من قبل، فلم تتحمل أوصالي البشرية كل تلك المواصفات، وانقطع الوعي استجابة لما فات بالضرورة.

عاد الوعي تدريجيًا وأنا أتوقع تقمصي لجسدي وهو بالمهد، ومتوقع كذلك استخدام تلك اللغة المخصصة لذلك الجسد في تلك الفترة العمرية، ولكنني وجدتُ ما خالف توقعي، فجسدي كما هو، كمال بالتمام والكمال، وكانت وضعيتي غريبة، ما بين الجلوس والجثو، فتهللت أوصالي تهللًا غير مكتمل الحركة، وانتبهت لما منع فرحتي فأدركت أنه الحيز المكاني، وجالت عيني بالدوران حتى استطلع ما يُزاحم إفاقتي الجديدة، فوجدتُ فساتين وأغراض نسائية مُعلقة على شماعات متجاورة، وأيقنت سريعًا بأنني داخل خزانة ملابس نسائية رائعة الملمس قاسية الرحيق، قادر عطرها على تحريك شهوة مراهق بدأ يشعر بقوة جسده وعنفوانه.

أزحت بعضًا منها لرسم أبعاد الخزانة التي استيقظت بداخلها، حتى وصلت لضوءٍ متسرب من بين درفتيها، فمددتُ يدي لأفتحها ولكنها تعطلت تعطلًا إجباريًا استجابة لصوت فتاة ليس بغريب على مسامعي، فرجعت سريعًا لوضعي ما بين الجثو والجلوس ولكن بشكل أكثر ثباتًا، حيث اقترب الصوت من الخزانة متزامنًا مع امتداد يد أنثوية إلى ما بين درفتيه لالتقاط غرض ما من بين تلك الأغراض المُعلقة، ولسوء حظي كان هذا الغرض قريبٌ من وجهي حد التلامس، فزاد ثباتي واحتبست أنفاسي تمامًا، وتحولتُ إلى صنم لا يضر ولا ينفع.

ابتعدت اليد مع الغرض تاركة ورائها وجهًا يتصببٍ عرقًا وجسد يحمل من الحرج أطنانًا لا يعادلها سوى أطنان التلعثم إذا ما أكتشف أمري،

فما سيكون الرد وقتها، ولن تفي مبررات الإنس والجن مجتمعين، إلى أن عادت الأنفاس بالتدريج وعادت معها القدرة عل التفكير، وكان القرار بضرورة الخروج من تلك الخزانة، ولكن كيف يتم الخروج ولايزال ذلك الصوت الأنثوي يتحرك خارج الخزانة متداخل بحديث أحادي الجانب مع مكالمة هاتفية، فأوقد الموقف مشاعل الفضول داخلي ولم يعد جسدي قادرًا على تحمّل لهيبه مما دفعني للتقدم بعيني إلى ما بين درفتي الخزانة لأختلس أي تفصيلة قد تفسر سبب وجودي داخل خزانة ملابس أنثوية، وكانت الصاعقة التي حرّكت الخزانة نتيجة لصدمتي المتزايدة داخلها دون أن تنتبه كيان لذلك الاهتزاز.

نعم، إنها كيان، وأنا لست في غرفتها فحسب، وإنما بداخل خزانة ملابسها، فوضعت يدي داخل فمي دون وعي وبدأت أعض أناملي حتى كادت أن تدمي دون تدخل من عقلي ليمنع إنسان يأكل نفسه حرفيًا من شدة صدمته، ولكن كيف ينتبه العقل لمثل تلك التفاهات أمام الحقيقة الحالية، فما أخذ من عمري أحلام صار واقعًا برأي العين، أنا وكيان بنفس الغرفة مختليين بذاتنا دون فرقة أو موانع سوى درفة خزانة، لكنها خلوة مختلسة من الزمن الشرعي، وتلك الخاطرة جعلتني أتلصص مرة أخرى بمسامعي لمعرفة ما يدور خارج الخزانة.

حينها اكتشفت أنها تحادث شخصًا أعرفه بكل ما تتضمنه الكلمة من معان وتتسعه من حدود. إنها تحادثني هاتفيًا؛ بالفعل تحادث كمال؛ تلك المحادثة التي دارت بيننا أمس وأنا بالنمسا، حيث كانت تنصحني بضرورة تدوين كل ما قد يحدث لي عسى ينفعني في خلق رابط منطقي لما يحاك حولي، وقتها أدركت بأن المسامع لن تكفي شغف عاشق صعلوك وجد نفسه فجأة في قصر معشوقته الذي لطالما منعه من الوصول إليه حراس

التـردد وجنود التوقيت، فقررت أن أختلس النظر وبالفعل نجحت، وقد رأيت منها ما ترفضه تربيتي ويرضاه شيطاني، فظفر شيطاني ظفرًا مبدئيًا بطبيعتي البشـرية الطينية إلى أن نجح البرهان الذي وضعه أبي بداخلي كبرهان يوسف "مع اختلاف البراهين بالطبع" في إنهاء تلك المعركة وغفلتُ عمدًا عن رؤية ما قد يعيبني، وسلّمت مسامعي لبقية المحادثة الدائرة بينها وبيني حتى أنهتها وصارت ملتحفة بالستر.

شرعت بعدها في الخروج ومواجهتها بما يحدث بي ومعي، لكن التردد اغتال الفكرة، واستمر وضعي داخل الخزانة مقطوع الحلول إلى أن خرجت كيان من غرفتها لتلبية نداءً خارجيًا من أحد أفراد عائلتها، وكانت استجابة ثنائية، فكما خرجت هي من الغرفة خرجت أنا من خزانة الملابس لأجد نفسي في وسط المكان الذي لا يسع مخيلتي أن تدركه يومًا "غرفة كيان"، فترجلت بلطف ما بين سريرها ومرآتها وأغراضها الملقاة بحنان على مقاعد غرفتها، ويصاحب تلك الجولة موسيقى رومانسية لم أدر مصدرها، هل هي بعقلي نتيجة لما أحيا فيه؟ أم أنها واقعة حقًا؟

تمايلت وملت مع إيقاع تلك المقطوعة، وتملّكني إحساس بأنني الأحق بها من غيري، فقد اطلعت على ما لم تطالعه عين، ورأيتُ ما لم يتاح لذكر غيري، لقد دخلتُ إلى عالمها وغرفتها، واخترقت خصوصيتها ومتعلقاتها، شعرها وما أدراني به، فيا طالما تخيلته من تحت غطاء رأسها ولطالما تمنيت أن تجري يدي فوقه جريان حلال يستوجب تنفيذه طقوس وشعائر وقرابين، كما يستوجب قداسة للكلمة التي ستفتح آفاق الفردوس بحضرتها.

طالت الجولة ونسيت معها بأن تصنيفي عند كشف أمري ينحصـر ما بين خيارين لا ثالث لهما، الأول مجرم، والثاني مجنون، وما بينهما لا توجد

مساحة للكلمات لتوضيح الكارثة الحقيقية التي دقت على أيامي، فخطرتْ لي خاطرة أبطلت تشغيل المقطوعة الرومانسية منعدمة المصدر حين وقع ناظري على هاتف كيان، ألا وهي الاتصال بهاتف كمال لأحدثه حتى أعلم أين أنا من كمال في المكان، ومتى أنا منه في الزمان كذلك! فالتقطته ونفذتُ خدعة قديمة تعلمتها من صنف أصدقاء السوء بين أصناف معارفي، وهي أن أُعرّض شاشة الهاتف لمصدر ضوئي ليظهر آثار أصابع النمط المرسوم لفتح القفل، فشلت في المحاولتين الأوليتين ونجحت في الثالثة لسهولته، وبمجرد فتحه نسيت الاتصال وأسرعت إلى معرض الصور كأي شاب اقتحم هاتف فتاة يرجوها "أو حتى لا يرجوها للأمانة"، وعند رؤية طيف مميز من صورها المعقولة خطر لي أن أرسلها لهاتفي لأختبر هل تؤثر أفعالي بعد دخولي البوابة على مسار حياتي الطبيعية؟ أم أنها مجرد ترهات مخيفة تنذر بتحولي لمريض أو مجذوب؟

أرسلت عدد لا بأس به من جميل ما انتقيت، ثم أخفيت جريمتي بإلغاء ما قد أرسلته" من طرف كيان فقط بالتأكيد"، وعند نهاية الجريمة شعرت بوقع أقدام تقترب من الغرفة، فأسرعت بمهارة لأتخفى داخل المكان الذي استيقظت به، وزرعتُ نفسي بين ملابسها كما لو كنت إحداها، نظرت من بين درفتيه متوقعًا دخول كيان، ولكن ما رأيته أوقف دقات قلبي وحشّرج النفس في تفاحتي، فقد رأيت أربع أشخاص يسترقون الدخول، أشخاص مجازًا بالعدد غير واضحي المعالم، تختفي قسمات وجوههم خلف ملامح لم أعهدها، وكأنها أقنعة مخيفة فاسدة، يرتدون ملابس سوداء لا تنتمي للقرن الواحد والعشرين لا من بعيد ولا من قريب، وكذلك أطوالهم تفُوق أطوال لاعبي كرة السلة، فسلّط حضورهم الضوء على كابوس قديم ظهر به أحدهم

بالقاهرة ولكنني لم ألتفت إليه لبشاعة الواقع، شرعوا في تفتيش الغرفة كما لو كانوا فرقة تنفيذ أحكام حضـرت للقبض على مجرم عتيد الإجرام لتنفيذ عقوبة السجن مدى الحياة، حتى أن آثار التفتيش الدقيق بدت على أركانها، وكانت تحركاتهم سريعة مخيفة تزيد عن حركـة الشخص العـادي بسرعات إضافية.

لم تتحمل رئتاي كتم أنفاسي كل تلك المدة، فصدر عنها نفس لا إرادي طلبًا للحياة لذلك الجسد المتيبس المفزوع، التقطته آذان أحد فارعي الطول خارج الخزانة، فهمّوا رباعيتهم للانقضاض على مصدر النفس، وما منعهم من ذلك هو دخول كيان الغرفة دون مقدمات، فاختفوا على أثر ذلك الدخول اختفاءً لا يختلف عن هيئتهم، فهرب أحدهم داخل المرآة وكأنها بوابة لعالم آخر، وسكن آخر صورة ببرواز معلقة على الحائط، ولم تلتقط عيني أين ذهب البقية.

دخلتْ كيان وكأن شيئًا لم يحدث بالغرفة قط، دخلتها كما تركتها، ولا يظهر عليها أي أثر لعبث أو تدخل، استدارت حول نفسها دورتين حائرتين ثم اقتربت من الخزانة وهمّتْ لفتحها، فتمنيت لو انشقت الأرض لكي تقذفني بعيدًا عن ذلك الموقف معدوم الشـرح أو التبرير، وإذ بي أجد نفسـي فجأة أقـف ليلًا وسط طريق سيارات سريع وأعرفه إلى حد كبير، إنه كورنيش المعادي ذو الأبراج المميزة، نعم إنه كذلك بالفعل، فعاد لي رشدي سريعًا استخدمته لمحاولة تفسير أين أنا؟ وكيف قذفتني أمنيتي إلى هنا، وماذا حدث لكيان؟ وكيف وثبتُ من النمسا إلى المعادي، ومن هؤلاء العناصر الأربعة ذوي الظهور والاختفاء العجيب المخيف؟

لم يمهلني التوقيت فرصة الإجابة عن ربع تلك الأسئلة، وفزعت من صفير شاحنة قادمة تجاهي دون مقدمات، يخترق ضوء مصابيحها الأمامية المشع ثنايا عيني من الداخل، فجرفتني موجات الصفير وقوة الضوء إلى غرفتي بالنمسا وأنا أجلس معتدلًا على طرف السرير ويملأ أركانها ضوء النهار الجلي، ولمحت في ركن من الغرفة ذلك الرجل المُسن الذي لطالما رايته حاملًا هاتفي بيده ويتفقده كما لو أنه خاصته، فصرخت فيه صرخة غاضبة ناتجة عن قسوة رحلتي التي وصلت منها توًا، صرخة توحي بعدم تحملي لما يحدث معي، دخل على آثرَها صالح من باب الغرفة مسرعًا ليطمئن على صاحب الصرخة، فاستقبلته شارحًا موقف ذلك الرجل وقلت...

أنا لم أعد أستطيع أن أتحمل تدخل ذلك الرجل.

أجاب صالح بدهشة...

أي رجل يا رجل؟

ثم استطرد وهو يفتش أركان الغرفة بعين فاحصة...

لا يوجد رجال هنا يا كمال.

نظرتُ تجاه الركن فلم أجد الرجل، ومن تلك النظرة إلى موضع هاتفي الذي وجدته بجواري على السرير، فقلت معقبًا وبابتسامة مبالغ بها...

اللعنة على الكوابيس.

قال صالح بامتعاض طبيعي...

أنا جاهز للعمل، وأنت؟

أجبت بنفور...

سأوافيك حالًا.

خرج صالح من باب الغرفة وهو متأكد بأن قواي العقلية ليست على ما يرام، وأنا أيضًا متأكد من رؤيته هذه، وبمجرد خروجه توجهت مسرعًا لالتقاط هاتفي كي أُنقّب عن صور كيان في رسائلها لي لأقتل ذلك الوهم الذي أشعر به كرأي العين ولكن بلا إثبات، فلم أجد أي دليل على الإرسال مطلقًا، فَفغَر فاهي تلقائيًا، وسمعت دبيب داخل عقلي كإشارة استغاثة أعطت الإذن لدقات قلبي المكلوم أن تتزايد لعله يتحرر من صدري المريض، ولكن هيهات!! فما جدوى صرخات مظلوم داخل زنزانته وخَزَنَتها من نفس فئة جدرانها، فلا تعالج ولا تستطيع أن ترفع أذى.

استمر الوضع هكذا قليلًا حتى هدأ الروع وتوجهت يائسًا عابثًا متجهما لإحضار دفتر يوميات لأُنفّذ ما اقترحته كيان، وحتى يكون مرجعًا لي في حال تكرار مثل تلك الوثبات الفردية، وبالفعل دونت ما حدث حرفيًا.

نزلتُ لصالح بعد فترة تأخير منطقية كي أستجمع فتات عقلي المنثور حول بئر من اللاوعي لا يدركه إلا من أطل من خلاله، حيث وجدته مستعدًا ليوم عمل جديد بصحبة السائق وسماجة نادر الذي سألني غارسًا أنفه...

ما سبب صراخك بالغرفة؟

لم أجب متجاهلًا سؤاله.

أعاد نادر سؤاله بتطفل الصحفي....

ما سبب صراخك يا كمال؟ أهناك خطب ما؟

أجبت بنفور واضح....

اللعنة على الكوابيس.

قلتها وأنا أستقل السيارة.

(٦)

مر يوم العمل دون أي دافع أو حافز من جانبي لتنفيذ ما حضـرنا لأجله، حيث كنت أتحرك بجسدي كقنو نخلة أخرجت قنواتها، وينوب عني صالح ونادر ببقية التعاملات والحوارات، فوجداني متعلقًا بما عشته وبما رأيته، ويلاحظ صالح ذلك ويطل عليّ بنظرة شفقة يخفيها خلف أسئلة كثيرة أخرجتها منه في آخر اليوم عن طريق قصّـي لـه ما أعانيه، وسردت له بعضًا من تفاصيل ما رأيته من وثبات ومن ذوي هيئات مرعبة ما بين الواقع والأحلام، واختزنت زيارة كيان سرًا لي، وكان ذلك حين جلسنا على المقهى منفردين بطاولة، ونادر مع السائق بطاولة مجاورة، حيث سأل صالح مستفسرًا ...

أجبني يا كمال بكل صراحة، هل تلك الأعراض وليدة النمسا أم أنك تعانيها قبل مجيئنا؟

أجبتُ في تيه....

لم يحدث لي هذا الأمر من قبل قط، أول عهدي به هنا في النمسا.

سكت برهة تذكرت من خلالها حلم شقة القاهرة لكنني تجاهلته لعدم أهميته من وجهة نظري ثم أردفت في صدق....

أنا خائف حقًا يا صالح، فلا أدري بمن أستغيث، أفكر كثيرًا في العودة إلى القاهرة لعلّي أجد العون من عائلتي، ثم أرجع عن ذلك التفكير متذرعًا بأنه مجرد حادث عابر أو .....

سكتّ قليلًا بمجرد أن تذكرت كمال الذي زامله ونادر في يوم عمل لم أكن أنا به، ثم قلت....

لا أدري حقًا ماذا أصنع؟ ولا أعلم ما هو الطريق الذي سأسلكه حتى أعود من ذلك التيه الحقيقي؟

قال صالح بشجاعة وبطولة...

لا تخف يا صديق، سنبدأ سويًا تعقب ما يحدث لك كتعقب المحققين وسنبدأ من البوابة، ولن نؤجل ذلك التعقب، بل سننطلق اليوم، لكن الأهم هو ألا يعلم أي من قاطني المنزل أو نادر شيئًا عن ذلك الأمر حتى لا ينتقل بدوره إلى السيدة أريام والسيد رئيس التحرير فيتم استدعائك أو استبدالك بصحفي آخر، وهذا من شأنه إثارة الجدل أو الشكوك حولك في النمسا أو في الجريدة، وسنعمل على أن يكون الأمر في طي أعمق من الكتمان بدرجة، كما يرجى التنسيق مع كيان على أنني أو نادر سنتكفل بمتابعة وإرسال التقارير اليومية لها، مع أني أرى عدم جدواها لتشابه محتواها.

تغاضيت عن ثرثرة صالح المعهودة بسبب صحة اقتراحاته من جهة، وتصديقه ومساعدته لي من جهة أخرى، وعدنا إلى المنزل متسلحين، هو بالأمل وأنا بالأمان لتأييده لي، حيث اتفقنا على تنفيذ ذلك العبور ليلًا بعد انتهاء مراسم يومنا العادي، وبالفعل شرعنا في ذلك، وحمل صالح معه بعض أدوات الحماية من سكين وقطعة خشبية، وأنا أتعجب من ذلك التسليح غير المنطقي ولكنني لم أمنعه تقديرًا لخوفه عليّ وإيمانه بقصتي حتى ولو من باب الصداقة فقط.

اقتربنا من البوابة اقتراب المتلهفين ولمع المقبض بعيني لمعته المعهودة، فنظرتُ لصالح فرحًا عسى أن يكون قد انتبه لذلك الوهج، ولكنه لم يبد

أي استجابة لحدوث أمر ما، فهممت بالقبض علي المقبض وأدرته ببطء ويتملكني شعور بأنني على وشك إثبات ما يسوء قدري، حيث كانت بمثابة شراكة بيني وبين صالح لما قد نكتشفه، فنحّيته وراء ظهري خوفًا عليه من أعراض العبور، وفتحتُ البوابة بالفعل وهيأت نفسي للأعراض، وحجبت وصفها عن صالح ليكون تأثيرها خير دليل على ما عانيته وما قد يعانيه، ليس نكالًا به وإنما إشفاقًا على نفسي.

عبرنا وأنا أستعجل الصفير والأضواء، لكن شيئًا لم يحدث، لا شيء بالمرة، نظرت حولي لأكتشف أين نحن؟ فلا مكان جديد سوى مشهد الصحراء الذي أراه من نافذتي، فدارت عيني بحثًا عن المكان والزمان الجديدين اللذين انتقلنا إليهما، ولم يمنع ذلك البحث سوى نظرات صالح تجاهي مستفسرة عما يحدث، فأمسكت بيده عبثًا ورجعنا عبر البوابة مرة أخرى لنعيد كرة العبور لعلي أخطأت المراسم، لكن لا جديد سوى أمرين، أولهما اكتشافي أن البوابة أحادية المقبض من الداخل وهذا يفسر عدم تمتعها بسلسلة حديدية شديدة الوطأة، وقد اكتفوا بالمقبض ثقةً به، والثاني تعاظم نظرات صالح المشفقة تجاهي، والتي جرحتني حد المرض.

انتابني الانهيار من الخجل، وكذلك الفشل الذي تملكني وأحاط بي من الخارج للداخل، واستجابت له قدمي فجلست محلي دون مقدمات، وقد أدركت بأن الخلل بعقلي دون غيره، ولم أجرؤ على وضع عيني بعين صالح مجددًا الذي آمن بروايتي وكلامي، لكنه كان أشفَقَ عليّ منّي، وقد شعر بأنني على وشك دخول نفق جلد الذات والذي لا رجعة فيه، وإن رجعت فلن أكون أنا حين دخلته، فجلس بجواري برفق متناهي وأزاح أسلحته جانبًا وقال في شفقة عميقة ....

لا كلام الآن ولا براهين؛ لا شيء سوى الراحة والنوم، عليك أن تتمالك نفسك وغدًا بإذن الله سيكون هناك مخرج لما نحن فيه.

قالها ولم يمهلني السيد محمود البستاني فرصة لتقديم الشكر إلى صالح على دعمه ومؤازرته لي، حيث ظهر من حيث لا ندرك وبادرنا بسؤال تدخل إجابته قيد التلعثم الجبري وقال...

ما الذي يجري؟ وما الذي تفعلانه هنا في ذلك الوقت؟

أهناك خطبًا ما يا شباب؟، وهل أستطيع تقديم العون لكما؟

لم تخرج مني أي كلمة للرد بخلاف صالح حيث كانت إجابته مقنعة إلى حدٍ ما للبستاني حيث قال في ثقة...

يا له من جو ساحر هنا، فأردنا أن نختبره ويا لها من تجربة.

نظر عم محمود للسكين والقطعة الخشبية الموضوعتين بجانب جلستنا، وقال في أدب وهو يغلق البوابة...

سيقسو الجو عما قريب، هذه طبيعته في تلك الأنحاء، فطقس الليل خلاف النهار، وعليكما أن تتجها للمنزل الآن.

توجهت وصالح للمنزل دون أدنى لفظ من كلانا، هو من باب الإشفاق وأنا من باب التفكير، ذلك الباب الذي فُتح من حيث لا أدري، بابًا يحمل أبعادًا من التمزق وأفلاكًا لامتناهية من الاحتمالات، وصالح يعلم ذلك ولكن ليس بيده حيلة أو عون لجذبي مما أنا فيه أو على الأقل إغلاق ذلك الباب. حتى صعدنا لغرفنا وودعني بابتسامة دعم شعرتها.

دخلت لغرفتي وأغلقت الباب خلفي بحنق، وتوجهت للنافذة ونظري

لا ينفك أن يبرح تلك البوابة، لا رمش ولا حركة، وإنما الثبات هو القانون السائد بيد أني لم أدرك كم لبثت في تلك الوضعية، هل هي ساعات أم مجرد دقائق؟ إلى أن تدخلت كيان بمكالمة هاتفية جذبتني للأرض بعد أن فقدت جاذبيتها، وأطلّت بوجهها على هاتفي فأجبتها في فتور....

كيف حالك؟

أجابت كيان بعطف شعرت به وصولًا من القاهرة إلى النمسا وقالت وكل قولها صدق...

كيف حالك أنت؟ لقد تلقيت اتصالًا من صالح يفيد عدم قدرتك على إرسال تقرير عمل اليوم، وحين ضغطت عليه سردَ لي ما حدث، أرجوك طمني على حالك؟

سمعت قولها وأدركت بأنني لبثت وقتًا ليس بالقليل لدى النافذة، وشعرت بدفء شديد منها ومن صالح، كم أسعدني وجود أناس يحيطون بي مثلهما، وقلت بلا انطباع....

كل شيء على ما يرام، أعاني فقط من الارتياب والتخبط، وأجمل ما في الأمر أنني غير ملزم بشرح التفاصيل لأنك تعرفينها، وفي هذا راحة. على كل حال لقد قمت بتدوين كل ما حدث معي تنفيذًا لنصيحتك.

قالت كيان وكان قولها صدمة رباعية الأبعاد...

كمال؛ لقد بحثت في حالتك، وقمت بربط تلك الوقائع مع وصف صالح للشخص الذي كان يعمل معه نهارًا على أساس أنه كمال، وأنت تنكر وجودك معه أو بمعني أدق لا تتذكر أحداث ذلك اليوم واستفقت على طاولة العشاء على حد قولكما.

استعجلت سردها حتى تصل إلى المرجو سماعه... ممممم.

قالت بنبرة الأطباء الذين ينتمون إلى مدرسة مصارحة المريض بموعد موته أفضل من إخفاء الأمر عنه...

بناءً على هذا التشخيص وبالرجوع إلى أحد معارفي من الأطباء، فإنك تعاني من مرض يدعى "صرع الفص الصدّغي" وهو اضطراب يسبب نوبات وفقدان للذاكرة ويؤدي إلى هلوسة سِمعية وبصـرية، هذا هو الجزء الصادم. أما الجزء الإيجابي فهو ليس كل من أُصيب بنوبة سيصاب بالضـرورة بنوبة أخرى، نظرًا لأن النوبة قد تكون حادثة منفردة، فقد لا يقرر الطبيب المعالج بدء العلاج حتى تتعرض لأكثر من نوبة واحدة.

صمتت قليلًا ثم أردفت لعدم ردي....

لا عليك سوى الراحة، يجب أن ترتاح على الأقل يومين من دون مجهود وسيقوم صالح ونادر ببقية الأعمال، فهي يسيرة. على أن يكون سبب راحتك الحقيقي سرًا كما اتفقت وصالح، وأن السبب الذي سيتم نشـره هو تعرضك لوعكة صحية على أمل أن يصدق نادر ذلك السبب ولا يقوم بنقله للسيد رئيس التحرير، حتى وإن نقله فسيكون حادثًا عارضًا مقبولًا، وسأكون قيد متابعة حالتك على رأس الدقيقة حتى نطمئن على حالك.

سألتُ ورائحة الموت تحيطني...

ألهذا المرض أعراض مؤذية، وهل ينذر بموعد الرحيل؟

ثم استطردت بيأس واضح وبحشـرجة خانقة...

ما أتعس إحساس اقتراب الأجل!

أجابت كيان وهي تنتهرني بأمومة...

ما هذا اليأس أيها البائس، إن هذا المرض درجات، أعلاها الموت وأدناها ما أنت به، وما هي إلا أيام وتستقيم حالتك.

أجبت متهكمًا...

شكرًا جزيلًا لطمأنتك على درجة مرضي.

قالت كيان بضحكة خجولة...

لا أقصد، ولكن ما أقصده هو أن ما عليك سوى أن تتعامل مع ذلك الوضع المؤقت على أنه مجرد نزلة برد عابرة، وستتعافى منها بإذن الله.

لم يصدر عني رد وكذلك كيان، وأخفيت عنها عدد وثباتي عبر البوابة، أو بمعنى أدق عدد نوباتي إن صح الوصف، فإن ذكرتها فستنتقل حالتي تلقائيًا من أدنى درجة في الخطورة إلى أعلاها، وعندها سيكون تدخل طبيب معالج أمرًا حتميًا غير قابل للتأجيل، استمر الوضع هكذا إلى أن قلت لها ببرود شديد...

حسنًا، سيكون كل شيء على ما يرام، وأنهينا الاتصال.

توجهت رغمًا عني إلى السرير كمريض سرطان عرف موعد قضاء نحبه، مستسلم لدرجة أنني غير قادر على إلقاء الراية البيضاء لإظهار ضعفي وإعلان انسحابي من ذلك النزال غير المتكافئ بالمرة، استلقيتُ كشيخ في العقد التاسع من الخارج بينما هو داخليًا مجرد طفل صارخ لا يريد سوى حضن أمه واحتواء أبيه. تجري بداخلي مجاري من الأسئلة المدببة مبتورة الإجابة، هل أنا مريض، أم أنه درب من الجنون منُقاد إليه وكُتب عليّ وحان وقت ظهوره بالنمسا؟، هل الأمر متعلق بعقلي أم أنه له علاقة بتلك البوابة

اللعينة؟ أم أنه مسّ من عالم آخر يحتاج إلى رقيّة من الطلاسم؟، هل هي النهاية؟ أم أنه الخرف؟

أسئلة انتصبت من شدتها قائمتي واقفة بلا وعي، وفاضت معها دموع غير مُدرجة ببنود الخوف أو القلق أو الألم، لكنه نوع جديد، نوع لم أعهده ولم أسمع بشعور أحد به من قبل، فهي دموع لمجرد الدموع، بدايتها اليأس ونهايتها المجهول، وعند النهاية لا شيء سوى هاوية تطل على جرف سحيق لا يظهر منه سوى صدى صوت صراخي، صراخ على كل ما تم التخطيط له ولم أصل إليه، على كل خير لم أقدر على غرسه، وكل شر ألقيت جذوره ونلت حصاده، على كل قسَمْ لم ألتزم بتنفيذه، على كل مناجاة خالية من الورع، على كل خائنة قلب وعين، على كل وسادة خادعة بطول أمد الشهوة، وكل شوكة في ظهر أي لذة أو نشوة لم تكن في محلها ورفضتُ نزعها، على كل صلة بالرب قطعتها مع أسرتي أو مع غيرهم، في وقتها أو غير ذلك، أو مع أي أحد أراد التعلق بأهداب مساعدتي وخنته سهوًا أو عمدًا، على الشباب الذي خارت قواه أمام عَرَضْ لا أستطيع تفسيره وأحتاج إلى أحد خارج عني لشرح ما أنا به.

دموع تحركت من غرغرتها ثوابت الغرفة من حولي لكثرتها، كما هزّت الثوابت بداخلي لقسوتها، لماذا أنا؟ لماذا لا يكون نادر أو صالح؟ لماذا لا يكون أحد غيري، لماذا أنا؟ هل هو اختبار لإيماني -إن وُجد- أم بحث عن صبري إن فُقد؟ ولماذا إيماني أنا بالأخص إذن؟ وإن تقبّلتُ الوضع على أنه اختبار أو ابتلاء كما تعلمنا ذلك أو كما تقودنا تربيتنا لتطيب خاطر أنفسنا عند المصائب أو عند الرغبات إذا وقعت عكس مشيئتنا، فلما الآن؟ لماذا عندما اقتربت مما أصبو إليه سواء في عملي، أو بما يتعلق بمراد قلبي، لماذا هذا التوقيت تحديدًا؟ ذلك السلاح اللعين الذي تبرزه لي الدنيا تغيظًا وكأنها تعلم التوقيت المناسب

لتخريب توقيتي، هل هي تدابير أم إخفاق أم خطأ بدر مني لمخالفة تعليمات ما؟ هل ما أنا به انهيار، أم أنه أمر بعدم المقاومة، أم ماذا؟

انتهى جلدي لذاتي لا للانحياز إلى عقلي، وإنما لفراغ بطارية المقاومة الخالية من الأساس، وأدركتُ بأنني أنازع ذاتي نزاعًا آحادي القوة، وأنه لا طائل من أسئلتي سوى تعميق جرح نفسي ليظل غائرًا لا يلتئم ولا يندمل، وإن اندمل فإنه لن يعيدني شخصًا معافًا وإنما سيخلق كائنًا بنسبة عجز نفسي مستديم في أبعد الاختيارات أو جزئي في أقربها ومنها إلى إنسان ذو عاهة غير قابلة للمداواة.

بمجرد أن تحولت نيران جلدي الذاتي إلى رماد، بدأت أشعر بأن هناك أمرًا ما أو شيئًا ما ينفث بها كي تتأجج لتأكل ما تبقى من تلك البقايا الباكية اليائسة، لكن وجوده لا ينفك أن يبرح مجرى الدم، ذلك المجرى الذي نال منه الجهد مبلغ مميت ولم يستطع استكمال الجريان وانسلخ داخل ممر لا مخرج منه، وكأنه تم رفع القلم عن صحيفتي وحان وقت التسليم، إلى أن تلقى جسدي آمرًا روحيًا بالانسياب داخل عالم النوم كحكم في حلبة ملاكمة أمر بفض الاشتباك، وتحسستُ موضعي من السرير كما لو كان المرقد الأخير، واستغرقت في النوم.



(٧)

استيقظت وأنا أجاهد جفني ليظل مفتوحًا، لكنه يهزمني بثقة محارب، وما خذله سوى صوت رنين هاتفي متزامنًا مع إطلال صورة كيان عليه، فأبصـرته وعيني بها بقايا دموع من لطمات الأمس لا ينعكس تأثيرها على ملامحي، فأجبت دون انطباعات....

كيف حالك؟ أتمنى أن يكون كل شيء على ما يرام؟

قالت كيان بدلال....

أنت الأولى بالسؤال. كيف حالك أنت؟

قلت مطمئنًا لها...

كل شيء على ما يرام، لا جديد يُذكر ولا قديم يُعاد، أنا كما أنا، على نفس وضعية يدك حينما تركتيني أمس.

ابتسمت كيان ابتسامة نقلت أعراضها إلى النمسا تلقائيًا حين قالت مستبشرة....

لقد حدث تغييرًا في أحداث المهمة أيها المحارب، وسأرافقكما المأمورية أنا والسيدة زوجة رئيس التحرير.

انتفض جسدي فجأة من مرقده دون مقدمات، ونسيت أمر صرع الفص الصدغي إلى آخره من تلك المسميات اللعينة، كما نسيت تمامًا ما أنا به، وسألت ويكاد نبض قلبي يسمع من فرحته ويكاد صوته يغطي على

صوتي....

متى ستأتين؟ هل ستأتين اليوم؟ وأين ستنزلين؟ هل بالنمسا؟

ثم هدأت رويدًا حتى لا يفضحني عشقي المفضوح أساسًا وسألت في وقار مصطنع...

هل هذا التغيير له علاقة بما حدث معي؟ هل رئيس التحرير على دراية بتلك المستجدات؟

أجابت كيان وقد تجاهلت فيض المشاعر النابع من المحادثة وقالت بنبرتها الصحفية المعهودة...

طبقًا لآخر استقصاء انتخابي تم رصده حول نوع الناخبين، فقد تبين للحملة خاصتنا أن أعداد الأصوات النسائية في تناقص ملحوظ ويكاد يكون معدومًا وهذا هو الحال في صعيد مصر، وأن أصوات الرجال تمثل الغالبية السائدة، ولهذا قررت السيدة أريام بتعليمات من السيد رئيس التحرير بالتأكيد على تغيير الاستراتيجية الانتخابية عن طريق استقطاب أصوات السيدات اللائي يصلحن لمباشرة الحق الانتخابي، وقد تم تكليفنا لتلك المهمة على اعتبار أنها تحمل قدرًا عاليًا من الأهمية والخصوصية ولن تصلح أنت وصالح ونادر لفض غبار تلك المهمة، ثم استطردت متهكمة...

لذا جئنا لتنفيذ ما لم تسطعا عليه تنفيذًا.

قالتها وصمتت قليلًا ثم أردفت...

لا داعي للذعر، فلا يوجد خبر بما حدث لك سواء للسيد رئيس التحرير أو زوجته، لا أحد يعلم سوى ثلاثتنا، ولهذا سيكون السيناريو المتبع بأنك تعاني من نزلة برد شديدة أجبرتك على الراحة لمدة يومين ومنها ستعود إلى

خطة العمل الموضوعة.

أجبت عليها وقد بدت نواجذي من فرط السعادة....

متى ستنيرين النمسا؟

قالت كيان ويخالط إجابتها سعادة أيضًا أظنها مفعمة بخجل مثير....

الليلة، سنستقل الطائرة لمطار الأقصر، ومنه إلى الفندق مكان إقامتنا.

قلتُ بشجاعة....

سأكون في انتظارك.

أجابتْ في نهي واضح....

بالطبع لا، أنسيت أنك مريض وملازم الفراش، وعليك أن تلتزم به بالفعل، لقد تواصلتُ مع صالح وتأكدتُ من قيامه بالمهام المنوطة إليكم اليوم، مع ضرورة استغلال يومي الراحة لكي تستعيد عافيتك أيها البطل.

قلتُ في سعادة غير مكتملة....

إذن، في انتظار حضوركما.

أغلقنا الاتصال ويا له من إغلاق، ثم هرولت إلى مهاتفة صالح لأزف إليه هذا الخبر العظيم، وتبادلنا مشاعر الاندهاش من ناحيته والسعادة الغامرة من ناحيتي وقد انتهي تبادل المشاعر تلك بالاتفاق على قيامه باستقبال الوفد النسائي رفيع المستوى الوافد من القاهرة وإنزاله بمحل الإقامة، مع ضرورة مراقبة أحاسيس ومشاعر نادر خلال مراسم الاستقبال، وكذلك العمل على إفشال أي خطة يقوم بها للتقدم خطوة تجاه قلب كيان، حيث إنني على تمام التأكد بأنه على علم بتلك التطورات من مصدرها، وقد شددت على صالح

بتنفيذ تلك التعليمات.

مرت ساعات انتظار الوفد القادم للنمسا كانتظار هطول الأمطار في موسم الجفاف، ولا أنفك أتابع صالح لمعرفة أخر تطورات الوضع لديه حتى استقر الوفد النسائي بالفندق وعاد لي صالح سالمًا ومطمئنًا إياي بنجاح وسلامة الوصول، وبمجرد اطمئناني هاتفت كيان واتفقنا على ضرورة إجراء مقابلة ترحاب من طرفنا بالفندق هي والسيدة زوجة رئيس التحرير، وكان اللقاء في صباح اليوم التالي بعد توزيع المهام، فصالح ونادر في أعمالهما اليومية وأنا حيث اللقاء.

تأنقت تأنق العرسان، وتوجهت إلى الفندق مقر إقامة الطرف النسائي بالمأمورية، وكان يرافقني سائقنا المعتاد، كانت تجلس ببهو الفندق منتظرة في الموعد، فتقدمت وجلست مواجهًا لها وقد تملك النضج مني وقلت برجولة....

كيف حال داعمي ومحدد مساري؟، كيف حال الكيان والمقام؟

جاء الرد ومعه ابتسامة أنثوية ثبتت وضع الرجولة لدي وقالت بنبرة جميلة اشتقت إليها حقًا....

كيف حالك يا كمال، وحال صحتك؟ تبدو بأحسن حال.

ثم استطردت دون انتظار ردًا من تجاهي.....

ما كل هذا الروقان؟ هل كان نومك جيدًا؟

أجبتُ بثقة مُغلفة بالصدق...

لقد استيقظت اليوم بينما يتملكني شعور عجيب، شعور بصغر كل ما هو

دون ما أريده، فكم أردت أن أحيا حياة غير التي أحياها الآن، وبما أن الآن قد حان فلا مفر من ركوب صهوة الرغبات دون سرج، ولا وقت للتأجيل لأنه لا مجال.

قالت كيان باستنفار...

ما هذا الشعور الذي تتحدث عنه؟ تتحدث وكأنك عرفت موعد موتك، لا يجب عليك أن تحيا بمثل هذا الشعور، فكما قلت لك ماهي إلا مجرد نوبة عابرة، وستزول هي وأعراضها بمجرد مرور الساعات المقبلة، وما عليك هو.....

قاطعتها مبرهنًا على خطأ كلامها....

لم تكن نوبة واحدة يا كيان، لم تكن مجرد زيارة لمكان أعرفه أو زمان عشتُ به من قبل، لقد تكررت الزيارات ومعها النوبات، فأنا أرى أشخاص دون غيري، وقمت بأنشطة خلال أيامي الفائتة لا أتذكر معظمها، وتوجد بعض الفترات لا أذكر عنها صغيرة ولا حتى كبيرة، لقد قررت أن أطرق باب العلاج إن صح تشخيصك وصدق شرحي، ومعه قررت ألا أترك ما أريده، فإن نجح العلاج فإنها منحة واجبة الشكر وإعادة تصحيح ما أفسدته اختياراتي الفائتة، وإن لم ينجح فأكون على الأقل قد ظفرت بأن ألمس ما أتمناه قبل مغادرتي.

أجابت كيان بتجهم لمسته....

وكيف هذا؟ لماذا لم تقصَّ عليّ زياراتك المتكررة؟ ومن أين لك هذا اليقين بأن حالتك مستعصية وميؤوس من شفائها وتتطلب العلاج؟

قلتُ مفسرًا....

لقد استيقظت بالأمس بعد منتصف الليل بفترة وتتملكني فكرة جنونية بأن البوابة حق وأن ما يحدث لي ما هو إلا خطوة في طريق لا أعلم مبتغاه ولكنني مختار به اختيارًا لا أعلم معاييره أو أدرك شروطه، أو من الجائز أن يكون مجرد دفاعًا نفسيًا للتعلق بآخر حبال الحياة يئسًا، ولهذا قمت بالتسلل للبوابة لإعادة عبوري ورؤية واختبار ما عشته دومًا، وللأسف فقد تكرر ما حدث أثناء تواجد صالح معي، لا شيء جديد، لا عبور ولا صفير ولا أضواء، مجرد عبور طبيعي من خلال بوابة المنزل إلى الصحراء التي تحيطه. كما أن هناك شواهدًا سابقة بخرف اعتقادي تؤكد أن ما عشته مجرد هواجس، منها حادثة صورك الشخصية، ولهذا استيقظت اليوم وأنا على ما أنا عليه.

استفسرت كيان فقط بملامح وجهها الجميلة، ثم سألت بتعجب أنثوي صريح....

صوري؟!!، أي صور؟

قلتُ بتوتر يثبت ما أردتُ أن أخفيه....

صوري، صوري أنا، أقصد صوري أنا الشخصية، كلها كانت مجرد محاولات لإثبات أن ما أحياه واقع، ولكنها دومًا ما كانت تبوء بالفشل الذريع والتأكيد على تشخيصك الصحيح لحالتي، ذلك التشخيص الموجع.

صمتت كيان من جودة ترتيب ما قمتُ بسرده، فحاولتُ استخراج منها أي رد وسألت...

ألا يوجد لديك أي أمر خارق للعادة من خلال قراءاتك عن أشخاص اخترقوا حاجز الزمان وعبروا موانع المكان، على الأقل لتهدئة نفسي حتى موعد عرضي على طبيبك؟

أجابت كيان سريعًا....

سيتم عرضك على الطبيب فور حدوث نوبة أخرى في الوقت الحاضر حيث سنسافر مباشرة، أما إذا لم تتكرر تلك النوبات فسيكون عرضك وقتها عند رجوعنا إلى القاهرة بعد انتهاء مأموريتنا، ثم أردفت وهي تستحضر معلومة من مخازن قراءاتها الميتافيزيقية وقالت...

بالطبع، توجد بعض الحوادث المشهودة والموثقة عن بعض الأشخاص الذين تم اكتشافهم بأزمنة وأماكن لا ينتمون إليها من الأساس، منهم المدعو "بيتر بيرجمان"، المتوفي دون الاستدلال عن هويته وأصله، حيث لم تصل التحريات إلى أي معلومة تفيد عن تاريخ أو محل ميلاده، ولم يصلوا إلى أبعد من أنه شخص آتي من زمان ومكان مختلفين ليلقى حتفه في زمان ومكان مختلفين أيضًا وقد توصلوا إلى ذلك عن طريق تفريغ كاميرات المراقبة بالفندق محل نزوله وكذلك خلال نزهته في يوم وفاته، فكانت نزهة مشبوهة خالية من أي أدلة، كما كانت عجيبة الطقوس.

قلت مستفسرًا بجدية....

لكن تلك الحادثة ليست هي الإجابة عن سؤالي، فعلى أقل تقدير هو إنسان من عالمنا وزماننا، يرتدي كما نرتدي ويتصرف كما نفعل، ويتحرك كما نتحرك، أليس كذلك؟

سألتْ كيان في توتر...

ماذا رأيت بالتحديد يا كمال؟ أهناك أمورًا خارجة عن النطاق الطبيعي في هلوساتك تلك؟

قالت كيان هذا السؤال ثم وضعت يدها فوق شفتيها حتى تمنع

الاسترسال لشعورها بمدى ثقل ما ألقت به تجاهي، ثم قالت بابتسامة رائعة....

أسفه، أسفه جدًا.

ابتسمت لأن كيان هي المتحدثة وقلت مجتازًا ما ظنّته إساءة....

أقصد سفر عبر الزمن سواء للماضي أو للمستقبل، كما يحدث في أفلام الخيال العلمي. أعلم أنه أمر غريب ولكنه يستحوذ على عقول وأفكار العلماء والمؤلفين وشركات الإنتاج.

مطّتْ كيان شفتيها الرائعتين وقالت وكل كلامها منطق قاطع....

لا أظن ذلك، فعلى الرغم من استحواذ الفكرة على وجدان المبدعين، إلا أن العقل المتزن يرفض جعل الفكرة واقعًا، وهناك علماء عظام أدحضوا تلك النظرية أمثال أنتوني هوكينج معللًا بأنه إذا كان السفر عبر الزمن متاحًا، لكنّا استقبلنا أناس من المستقبل وقاموا بتقديم أنفسهم إلينا على الرحب، وهذا لم يحدث حتى الآن.

أما أينشتين فقد توصل من خلال أبحاثه الفذة إلى أن الزمن لا يمر علينا، وإنما نحن من نمر عليه في مسار آحادي الاتجاه، ويتواجد الزمن لوجود المكان بالتبعية، فكل نظام مكاني يتبعه توقيت زمني بالضرورة، وهذا يفسر فرق التوقيتات على الأرض وعلى الكواكب التي تبعد أو تقترب من الشمس، بمعني أن الزمن هو الركن الثابت في تلك الأطروحة، وما سواه متحرك، ونحن ما سواه، فكيف يجوز إذن للمتحرك في اتجاه إجباري تغيير مساره بل واختراق الثابت أيضًا؟

قالت كيان تلك الكلمات مفسرة نظريتها باستخدام لغة الجسد وفي

مقدمتها اليد، وحين اصطدمت أصابع يدها اليمنى براحة اليسـرى لتوضيح استحالة نفاذ المتحرك عبر الثابت، توقفت فجأة لشكها في عدم استيعابي لتلك الكلمات، وبادلتني بنظرة شفقة أنهيتها بسؤال يرتدي الانبهار أكثر منه الاستفسار، حيث سألتها بنصف حاجب مرفوع....

من أين لكي تلك الثقافة والمعرفة؟

أجابت سريعًا...

ما نتبادله الآن يا كمال ما هي إلّا مجرد كلمات وجمل، عبارة عن نتاج دراسات مستفيضة وعصارة عقول عبقرية، وما نقلناها إلا لتوافقها مع الواقع والمنطق، كما أنها مدعومة بدلائل علمية تتماشى مع معايير خلق الكون وقوانينه.

إلى هنـا حضرت السيدة زوجـة رئيس التحـرير، وقد رحبت بها ترحابًا يعادل مكانتها، لما لها من قدر عال من الحب والاحترام بداخلي، وقامت باصطحاب كيان والسائق في جولة بالأقصـر تتمناها، وعدت أنا إلى النمسا التي توردت أرجائها لحضور كيان إليها، أو هكذا بدت لي، وفي انتظار ما تؤول إليه الأحداث بعد حديثي مع كيان وبعد قرار عرضي على طبيب معالج، لكن ينقصني الترتيب والمواعيد، وقد استسلمت لتلك التنظيمات التي دخلت إلى حياتي دون سابق أو لاحق إنذار، لكنها أصبحت جزءًا ثقيلًا لا يرغبه عقلي وفي نفس الوقت لا يرفضه.



(٨)

مرت أيام الثلث الأول من المأمورية ثقيلة تتهادى على مهل، تتباطأ وكأنها تتسلل داخل ساعة رملية عتيقة، فقد مر يوميّ وعكتي الصحية المتفق عليهما وانخرطت في جدول الأعمال اليومي المشترك مع صالح ونادر، واختفت كيان بصحبة السيدة أريام العُطيفي ما بين قصور الثقافة وأماكن تجمع السيدات في إسنا بالأقصر صباحًا، والجولات السياحية النسائية ومتعة الأسواق والبازارات مساءًا، ومع ذلك التنوع بين الأنشطة، لا توجد قوى موجودة في مكان ما بالكون قادرة على اجتذاب سيدة من داخل جدول تم تخصيصه للتجول والتسوق.

حتى التقارير اليومية انقطعت صلتي بها لتواجد مستلمتها في معقل الأحداث، فلا حاجة لها إذن، وكذلك اتصالات الاطمئنان عليّ باتت شبه منعدمة لاستقرار حالتي وهدوء نوباتي، وأنا بين هذا وذاك تحولت إلى شاهد إثبات على نظرية أينشتين، فالوقت حرفيًا لا يمر، وإنما أنا الذي أمر عليه من خلال لحظاته وثوانيه ودقائقه، أعبر على ساعاته عبور المتأمل وأضيق ذرعًا من ركود أحداثه، أو أحداثي بمعنى أدق، وكأن النسبية تم إثباتها هنا بالنمسا وبالأحرى في غرفتي قتيلة الوقت بالنسبة لي، على الرغم من تأكدي بأن هناك أناسًا -خلافي- يمرون على الوقت مرور السعادة والتنوع بالنسبة لهم.

كان نتاج طبيعي للوصف السابق خلق دربًا ومنفذًا لضغط الفراغ. ونظرًا لندرة الاختيارات ومحدوديتها ما بين غياب كيان وثرثرة صالح وثقل نادر، وكذلك الروتين اليومي من محادثات وابتسامات في محلها، بعض

الأحيان، وفي غير محلها كثيرًا، شرعتُ في إنشاء صداقات من جيل جديد عسى أجد ما يهوّن عليّ بطيء مروري القاتل على الزمن، فلم أجد أجمل من السيد حجاج القائم على المنزل وكذلك السيد محمود البستاني، ومع ذلك لم يسمح وقتهما لجعلي أفوز بجزء منه لتباعد الثقافات والاهتمامات، فكان الخوف مع الوحدة، هم الخليل لا غيره، ويتبعه انتظار الأعراض والعرض والعلاج.

إذن، فلا جُناح على من يفتقد الاختيار، ولا حرج على من يختلق مخرجًا جنونيًا من ممر لا تختلف نهايته عن بدايته، وقد وصل العقل بالفعل إلى حدود الهذيان لدرجة أنني تمنيت حقًا أن أدخل في نوبة ليُخرجني فص صدغي مما أنا فيه، بيد أن النوم كان هو الحل المثالي في أغلب الظن حتى أنني صادقته، وأمسيت أثق به ثقة غالية اهتزت ذات ليلة حين سمعت ما يقلقه في غرفتي ليلًا، فتنبهت لأستكشف مصدر القلق، ودارت عيني عبر ضوء الغرفة الخافت والذي يتسلل عبر النافذة، وكنت ما بين غرة اليقظة وانسلاخ النوم، وما رأيته نجح بجدارة في أن يجذبني من غرة اليقظة لتمامها، اجتذاب شُرطيّ للص من دُبر قميصه في وضح النهار، وعلى الرغم من ذلك لم ينجح في أن يجذب جسدي من مرقده، لأنه لم يستجب، ولن يستطيع، فقد تعطلت خلايا الشعور العصبية داخل العقل وامتدت إلى خارجه لتلتف حول الأعضاء لتعجيزها كجذوع أشجار الغابات المسحورة، وتصلّبت.

رأيت شخصًا يقف بأحد أركان الغرفة مواجهًا للحائط، يتنفس تنفسًا سريعًا، وترتفع أكتافه وتهبط لتنفسه المتتالي، ويصاحب شهيقه وزفيره صوت احتكاك آلة حادة في قرص معدني دون شرز، فما كان جواب ذلك إلّا أن توقفتْ أنفاسي رعبًا من ذلك المنظر توقفًا يكاد يكون نهائيًا، لدرجة أنني سمعت حركة أعضائي الداخلية من فرط الفزع، وحين دققت النظر

اكتشفت أن طول الزائر لا ينتمي للطول الطبيعي الخاص بالجنس البشـري وإنما يزيد بسنتيمترات مخيفة تكاد تصل إلى سقف الغرفة، يرتدي رداءً أسود لا ينتمي للقرن الحادي والعشـرين ويغطي رأسه بغطاء رأس مصدره نفس الرداء، فعرفت أين رأيت تلك الهيئة من قبل، نعم، تارة في كابوسي والأخرى في غرفة كيان، ولكن كيف هذا؟ كيف أراه دون أن أعبر تلك البوابة اللعينة، وأنني متأكد بتمام اليقين أنه لم ينتابني أي مرسم من مراسم العبور من صفير وأضواء، كما أنني لم أدخل إلى براعم الأحلام بعد، فما الذي أتى به إلى هنا إذن، إلى الواقع الحقيقي دون النوبات والأحلام، وماذا يريد؟ ولما تتسارع أنفاسه؟

هدأت أنفاسه، ولم ترجع أنفاسي إلى العمل بعد، جراء التوقف الناتج عن الفزع، بل زادت معدلاته حينما همّ للالتفاف تجاهي، استدار ببطء أكثر رعبًا من هيئته، وحينما اكتملت استدارته وقع سهم اليقين في رَوَعي، فملامحه تختفي خلف قناع مخيف فاسد، وأيقنت بأنه أحد العناصر الأربـعة الذين فتشوا غـرفة كيـان، خطا تجاهي خطوات بطيئة متأكدة من كشفي لهويته بينما فرغ عقلي من أي ذكر حفظته يومًا، ويبست شفتاي عن أي تحصين قد أحصيته خلال عمري.

نظرت في أرجاء الغرفة بصعوبة بالغة بحثًا عن باقي فرقته الاستكشافية الإجرامية، فلم تثمر عملية البحث عن أقرانه في ثنايا الغرفة عن أي زائـر إضافي، وأيقنت بأنني هـالك لا محـالة وأن جثتي الملقـاة على السرير بدت مستباحة لما قد يناله منّي، فتمنيتُ أن أكون مريضًا أو مجذوبًا عن أن أكون صاحبًا لنهاية ستعرض في الصحف تحت عنوان المأساوية، غير أن عيني لمحت ذلك الشخص الذي طالما أراه دون غيري يقف عند باب الغرفة، نعم، ذلك العجوز الذي يصاحبني بين جنبات المنزل ولا يظهر إلّا لسواي،

فتنفستُ الصُعداء بصوت يزيل الصخر عن موضعه، وتوجهتُ إليه بنظرة استغاثة دون كلمات لانعدامها، وأومأت له بالكاد برأسي كي يدرك ما يريد أن يدركني، ولكن ما يدركني لم يعد قيد الإدراك واختفى بمجرد ظهور العجوز، فهدأت جنبات قفصي الصدري وتحركت أوصالي التي تجمدت حرفيًا، وانتعشت حواسي فور كلام العجوز حيث سأل....

ماذا بك؟

هل تلاحظ أمرًا غير موجود عليّ أن ألاحظه؟

لم أجب ليس لعدم قدرتي على الرد فحسب، وإنما لعدم وجود ردًا من الأساس، فالشخص الذي طالما أنكرته وكان سببًا واضحًا من أسباب هذياني، أشعر الآن بكامل الأمان في رحابه، فهو مُنقذي وشارح موقفي ومفسر آلاعيب تخبطات عقلي، وتلك التوسلات الداخلية ظهر رجاء تلبيتها على ملامحي عسى أن يستجيب لها العجوز ويضعني على طريق كطريق فك طلاسم حجر رشيد، أو على أقل تقدير أن يعيدني إلى كمال الذي جاء من القاهرة ويريد أن يعود إليها كما كان، ومن الواضح أنه كان يعلم تساؤلاتي اللعينة داخل عقلي الخرب غير الواثق في أي أمر سوى أنه هو مفتاح كل سؤال صدأ، فأجاب بكلمات دفعه واحدة حيث قال وهو يتوجه إلى النافذة ببطء يعكس سنينه، وأعلم أنه ينظر إلى تلك البوابة اللعينة...

لقد كان الأمر بيدك منذ البداية.

كان عليك أن تتأكد بكل سهولة من صحتك العقلية.

كان عليك أن تعلم بأن ما حدث معك لم يكن ليحدث مع غيرك.

فأنت منوط بمهمة مقدرة، ولا يجوز لغيرك تنفيذها.

سألت بعيني عن المهمة التي ذكرها، فلم يآبه بما صدر عني، ثـم أبصرني بنظـرة جـادة أجلست جسـدي عنوة بعد رقود دام طيلة المشهد السابق وأردف...

أعلم بأنك سابح في محيط من الأسئلة حد الغرق، وكلما تتعلق بما قد ينجيك، تصطدم بك موجة مغرقة عاتية أشد من سابقتها فتغوص تحت مد التفسيرات غير الحقيقية أهمها "صرع الفص الصدغي" والتحضير لجلسات الطبيب المعالج. ثم اقترب من جلستي وأمسك بيدي ووضع بها هاتفي وقال في أبوة...

الصحفي الناجح هو الشخص البارع في سرد الرواية من وجهة نظر أحدهم، فما أصابك لم يكن ليخطئك، واعلم يا بني أن تلك هي روايتك وعليك أن تبرع في نقل وفهم تفاصيلها، فلا تيأس من محاولات الوصول حتى وإن ضاقت بك نفسك.

قال العجوز تلك الكلمات وخرج أمام عيني بهدوء من باب الغرفة وأغلقه بذات الهدوء الذي تركه يحوم في أرجاءها، عكس الزحام الذي خلّفه رحيله في أرجاء كياني، وعلى الرغم من الوقت الكافي الذي دار خلاله حواره معي، إلّا إنه على امتداده لم يسعني لطرح أي سؤال من جانبي، وكأنه عليّ الإصغاء والسمع فقط، ولسان حالي يا ليته تركني أواجه فرضية المرض بدلًا من مواجهة الفرضيات الإضافية الأصعب، فالمرض له طريقان إما العلاج أو الموت، أما الذي أحيا به فبدايته جنون وفهمه فزع ونهايته عدم، ولا أعلم ماذا ينتظرني وماذا يريدون مني؟ فالإجابات غير مكتملة كما أنها ليست مريحة، فلازلت لا أعلم من هو ذو الهيئة المخيفة وإلى أي جهة ينتمي، وما علاقة كيان بهم وما علاقتهم بي؟، أم أن الأمر برمته جنون، وحضور أولئك

الضيوف بعقلي فقط، وقد يكون مسًّا؟ فالأمر بات مخيفًا بعد استبعاد بند المرض من الاحتمالات.

أصاب التوتر جلستي، فقمت منها ولا أعلم الوجهة، عقلي خاوي وقلبي متعطل من فراغ المفاهيم ويحتاج إلى وقود لتسييره ولا يوجد سوى الرهبة، توجهت إلى النافذة بخطوات بطيئة، أبصرت من خلالها حديقة المنزل وكذلك البوابة، ثم استدرت تجاه الغرفة فزعًا بمجرد تذكري ذلك الزائر، فلم أجد سوى الفراغ، حينها فقط شعرت بما تحمله يدي، إنه هاتفي الذي وضعه العجوز بها قبل الانصراف، ومعه تذكرت كلامه عن صحة قواي العقلية وأن الأمر بيدي منذ البداية، فقبل أن أتحقق من هوية من أواجه، عليَّ أولًا أن أتأكد من كفاءة جبهتي وقائدها، وفجأة استنار عقلي بفكرة أولية قد تكون مثمرة حتى يرجع صدقي في نفسي وتعود ثقتي في ذاتي، وعلى الفور اتصلت بوالدتي كي أحادثها وأستمد من فيض حنانها شعلة تنير ظلام المسير، وقد كان.

أجابت هاتفي على الفور بالرغم من تأخر الوقت، ولكنها استجابت بفطرة الأمومة التي تعلم بأنني في حاجة ماسة لها دون هواتف أو اتصالات، وسألت دون مقدمات...

كيف حالك يا بني، لقد اشتقت إليك وكنتُ في انتظار سماع صوتك منذ فترة، أأنت على ما يرام؟

أجبت وكنت لا أعلم أنه لا ينقصني سوى صوتها حقًا وقد اكتملت بمجرد وصوله إلى النمسا وقلت...

كله على ما يرام أيتها الطبيبة، كيف حالك أنت وأبي وإخوتي؟ أسف على تأخري بالاتصال.

قالت الدكتورة وكأنها تقوم بتشخيص موجاتي الصوتية وتحليلها...

كلنا بخير، الأهم أنت، أشعر بالقلق عليك، يساورني هذا الإحساس منذ فترة.

قلت مطمئنًا إياها...

كل شيء على ما يرام، كل ما هنالك أن النوم يعاندني ولم أجد أجمل منك لأهرب من الأرق إليه، وهاآنذا وجدتك.

ضحكت أمي وقالت...

فلتهرب يا حبيبي، أهرب.

ثم أردفت ناصحة...

الأهم من الهروب هو معرفتنا لمكان هروبك، حتى نطمئن عليك.

تبادلنا أطراف الحديث وكذلك الضحكات المهدئة لنفسي والداعمة لها في نفس الوقت، وقد استرجعنا خلال مكالمتنا بعض من الذكريات المضحكة كانت مدخلًا لسؤالي عن سبب ندبة جبهة أخي والتي كبرت معه، حيث لم يسعنا الحديث عنها مسبقًا، وإن حدث فلم يكن بالقدر التفصيلي على ما يبدو.

انهينا الاتصال وأنهت معه أمي شوطًا كبيرًا من قتل الشكوك من جهة، والخوف من الواقع المفزع الذي سألقاه من جهة أخرى، حيث سردت واقعة ندبة أخي كما رأيتها بالكمال والكمال، بالكمال فيما رأيته، وبكمال الطفل والصحفي الذي رآها بتمامها، لا ينقصها حدثًا ولا يشوبها شكًا، إذن فالبوابة حق، ووثباتي أيضًا حق، وما عليّ سوى أن أعد التفكير في الاستراتيجية

المتبعة خلال المقبل الغامض، كان أولها إزالة بعضًا من غشاوة التفكير المُلقى على عقلي.

بدأت تجليات مكالمة أمي في جني ثمارها حين قادتني إلى أن أهتم بتفاصيل لقائي بالعجوز منذ ظهوره حتى رحيله، فظهوره كان معه الاطمئنان باختفاء ذي الهيئة المرعبة، ورحيله كان حينما أعطاني الهاتف والذي كان بداية كل واقع ويقين، إذن فكل تفصيلة لها معنى، فنظرت إلى الهاتف الذي لازلت أقبض عليه بيدي منذ مكالمة أمي وكلي شعور بأنه لا يزال له دور مهم في كشف ما ظننته مرضًا، فتفحصته وكأن عقلي ويدي يعلمان ما أريده بالفعل قبل أن أعطيهما إشارة لذلك، واكتشفت حقًا ما أكمل تمام اطمئناني على صحتي العقلية، وأن فص صدغي بريئ مما أتهموه به بهتانًا.

وجدت صور كيان التي أرسلتها لنفسي من هاتفها عندما استفقت في خزانة ملابسها، وقد تملّكني عند ذلك الاكتشاف نشوة بقدرتي على اختراق ما لم يستطع بشر اختراقه، والدليل على ذلك هو ما ملكت يدي الآن، ولم يعكر صفو تلك النشوة سوى حزني على صورة بعينها لكيان أردت إرسالها بالأخص ولكنها لم تكن ضمن المجموعة المرسلة، فابتسمتٍ من فرط سذاجتي ابتسامة معبّرة، اختفت فجأة من فرط الأسئلة التي أُفرغت على رأسي دفعة واحدة، فعلى الرغم من الأجوبة التي بدت في أفق الحيرة وقامت بمحو بعضًا من سراب الرؤى، إلا أن الأسئلة لم تقل أو تختفي بطبيعة الحال، وإنما صارت أكثر شراسة وأكثر تعقيدًا، فكل إجابة مُفسّرة يتبعها سؤال متشابك.

منها أن كل انتقالاتي كانت للوراء، فهل يجوز انتقالي للأمام ذات قفزة! وهل أفعالي فيما انتقلت إليه قد تؤثر على أحداث أيامي في الوقت الحالي؟

حينما كنتُ مشغولًا داخل البوابة، فمن كان كمال إذن الذي زامل صالح ونادر يومهما؟ هل يمكن اختياري لأماكن وأزمنة رحلاتي عبر البوابة أم سألتزم باتجاه الرحلة وتوقيتها، والتي ستقوم البوابة بفرضها عليّ؟ أنا كما كنت شاهد إثبات على صحة نظرية أينشتين باستحالة السفر عبر الزمن أمسيتُ شاهد نفي لما تم إثباته، بل والأكثر من ذلك هو قدرتي على الانتقال داخل الوثبة ذاتها كما حدث بالقفز من غرفة كيان إلى كورنيش المعادي، لكن يبقى السؤال الأدهى هو "من هؤلاء الذين يتعقبونني؟".

أذابت لافا الأسئلة المنصهرة قشرة عقلي الصلبة وتحولت حالتها إلى السيولة نتيجة لضغط الغليان، وما جعلها تهدأ وتسترخي هو قيامي بتدوين تلك الإرهاصات والأسئلة في الأوراق التي لطالما دونت بها ما كنت أظنه نوبات امتثالًا لنصيحة كيان. هذا بخصوص تفكيري، أما جسدي فلم يعد يتحمل فيض الأحداث، والتي كنتُ أعاني من ركودها، وتحولتْ غرفتي إلى مكان أخشى التواجد به، حيث إن بند المسّ لايزال متاحًا، فعلي الرغم من تقبلي فكرة البوابة لتفردها وجعلها إياي مميزًا في حد ذاتي، إلّا أنها تنطوي على مخاوف أشعرها كلما تذكرت من أراهم وأحادثهم، ولا أدري ما هي خطورة مشاركتي لما يحدث لي مع أحد ممن يهتمون لأمري.

شعرت بعطش مفاجئ وكأنما غليان تفكيري نجح في تبخير قطرات مياه جسدي عن بكرة أبيها، فخرجت من غرفتي المرعبة بدافع العطش والخوف أيضًا، أتحسس خطواتي كطفل أنهى مرحلة الحبو توًا ويبحث عن مصدر للشرب كما لو كنتُ قد أمتنعتُ عن الشرب عقدًا من الزمن، وصلتُ حتى المصدر الذي أرجوه وشربت بنهم متناهي أنا وجسدي الذي تنَعّم بفيض رغد المياه داخله وكذلك خارجه، وقد ابتلت ملابس نومي حتى فرغت قارورة المياه بيدي من الانهمار وليس الارتواء. ضقتُ ذرعًا من

نهمي الطارئ، فاحتجت لاستنشاق هواء يعادل كمية المياه المنهمرة عبري، فتوجهت للحديقة كحل لا بديل عنه، ولكنها كانت جامدة الهواء وكأننا على سطح القمر، ولم يضف خروجي لها أي جديد لحالتي سوى أنها أكملت عملية الاختناق برمتها.

تجولت بها هائمـًا لعلي ألتقط أي تيار من شأنه إعادة النشاط لجسدي وروحي، لكن دون فائدة، أبصرت البوابة الملعونة وتبادرت إلى ذهني فكرة أن أجتازها وليكن ما يكن، أردت أن أعبرها بغيظ أعلم أنه معدوم المرمى لأحصل على أجوبة أو خارطة طريق أو على الأقل لكي استرد كمال المسطو عليه سطوًا يبدو خارقًا، لكن خوفي من زيادة الأسئلة أو صعوبتها عطل الفكرة.

أما ارتعادي من ذوي الهيئات المرعبة أجهض المحاولة إجهاضًا نهائيًا، فاخترت عن اقتناع شبه كامل ومُجهد في نفس الوقت إحدى أشجار الحديقة لكي أجلس جوارها لعلّي أختلس وضعًا مريحًا قدر المستطاع، لأن مؤشر قواي لم يعد قادرًا بالفعل على استحضار علامة إضافية للمقاومة، والعلامة الوحيدة المتبقية باتت تتلاشى مع تلاشي قدرتي على التفكير أو التخطيط أو إيقاف إحساس الانعدام الذي بات يحيط بي، فتحسست ملابسي المبتلة كما تحسست موضعي من الأرض وجلست بصعوبة فائقة كشيخ كسر المرض ظهره وشرخ الداء بصيرته، ولم يجد في الجلوس متاعًا أو راحة، مما جعلني أفترش الأرض مجبرًا كمشرد احترف التشرد.

ونمت.

نمت بلا مقدمات.



(٩)

ما أمتع النوم المتصل بلا حلم، المستمر دون كابوس. نوم بلا أحداث قد تقطع عليك خط الراحة، وتمنع الإجهـاد من الاختراق عبر شقوق الرؤى، فتسرق مـن الزمـن وقتًا غير محسوب يشحـن جسدك براحـة وروحك بانفراجة، وهذا ما لم يحدث منذ قدومي إلى النمسا ووطأت قدمي منزل السيد رئيس التحرير، فكان التوتر وصالح طقسًا أساسيًا من طقـوس الاستيقاظ -إن حضر النوم أساسًا- وكانت الشمس تأتي في المرتبة الثالثة أو أبعد بقليل بمجرد ظهوري في مجالها.

الآن فقط، استحوذت على راحة عميقة لجسدي وانفراجة واسعة لروحي، وكأن الحديقة ومحتوياتها أنعمت عليّ بمنحة غالية أفسدها اختلاف ترتيب طقوس الاستيقاظ، فكانت الشمس أولها على غير المعتاد وأعقبها صوت صالح الذي جاء من بعيد ليجلبني إلى ما هربت منه بالنوم العميق حيث نادى....

كمال؟!

كمال، ماذا حل بك؟

وماذا تفعل هنا؟

جاهدت غيابي الممتع خير جهاد حتى أعـود، ووضعت يـدي اليسرى فـوق جبهتي ثم سحبتها للأسفل لتغطي كلتا عينيي كـي أمنع أشعة الشمس المُسلّطة صوبهما مباشرة لأحميهما، وأيضًا حتى استوعب اختلاف ترتيب

طقوس الاستيقاظ المعروفة، لكن لم يسعفني ذلك الوضع في إدراك أبعاد نهاية الغفوة الغالية، والتي تمنيت أن تكون أبدية، وتبددت الأمنية مع تكرار نداء اسمي ولكن بصوت جعل عيني تتحمل شعاع الشمس دون حاجـز. فتحتهـا على مصراعيها مخالفًا طبيعة الاستيقاظ لكي أتأكد ممـا التقطته مسامعي، فوجـدت ما فسر ذلك الانتباه، إنها كيان، تقف مائلة الجسد للأمام حتى يصل مدى سؤالها إليّ، وأعادت النداء سائلة....

كمال!

أأنت على ما يرام؟

اختفى تأثير أشعة الشمس فجأة بالرغم من قوتها، وانتفضت جالسًا حتى أجيب عن سؤالها وأستفسر عـن سبب حضورها، وكذلك لكي أستجيب لعـدد الأرجـل المحيط بجلستي والتي تزيد عن كيان وكذلك صالح صاحب النداء الأول، وإذ بي أجد نفسي جـالسًا بمنتصف دائـرة تشتمل بالإضافة لما سبق السيد محمود البستاني، والسيد حجاج القائم على المنزل، ونادر، وآخر شخص أتوقع حضوره في ذلك الجمع الجماهيري الشاهد على جلستي وهي السيدة زوجة رئيس التحرير المصون، فأدرتُ رأسي بحركة دائرية مكتملة وأنا لازلت جالسًا لكي أبادل نظراتهم تجاهي، وقد فغر فمي مع نهاية اللفة.

لم أستجب لذلك الجمع ولا أسئلتهم حتى أعادت عليّ السيدة أريام سؤال الاطمئنان على حالي ولكن بصيغة جعلت فمي ينغلق من شدة الضيق والحنق حيث قالت....

أبلغنا نادر بحالتك غير المستقرة، وها نحن قد جئنا لنجدك على ما أنت عليه بهذا الوضع.

أبصرت بحسرة على منظـري والذي أشـارت إليه أثناء حديثها، وإذ بي أجد ملابس نومي المبتلة منذ الليل قد اندمجت مع تراب أرضية الحديقة، فتحولت إلى كومة طينية تصلح للزراعة، وقد التحمت هذه الكومة بانسجام مع شكلي المستيقظ للتو بالإضافة إلى إهمالي هندام ملامحي وكذلك شعر رأسي الذي تخلله تراب مضجعي، فتكونت لوحة حية لمشرد متمرس دأب على الاستلقاء في ملكية الغير دون وعي أو استئذان، فأنكرت ما رأوه مني وسألت ممتعضًا متجاهلًا الانطباع المأخوذ....

وماذا قال لكم السيد نادر بالتحديد؟

لم تجب السيدة زوجة رئيس التحرير وأخذت كيان المهمة عنها حيث قالت مفسرة....

لقد شرح لنـا تصرفـاتك ووجـومك خلال الفترة الفائتة، ونقل لنا لامبالاتك في التعامل، كما حكى للسيدة زوجة رئيس التحرير الوقائع الغريبة التي حدثت معـك سواء بالمنزل أو النمسا، من صراخ وعدم تركيز وغيره، وقد أشـار علينا ناصحًا بضرورة التدخـل، وبمـا أنني أعلم أبعاد ما قصّه لنا أنا وصالح، فكـان لابد لنا من الاستجابة، وها نحن قد جئنا بعد اتصاله بنـا لضرورة الحضور يا كمال.

نظرتُ لصالح فنادر ثم كيان وسألت وقد استشطت غيظًا....

وما هي أبعاد علمك يا أستاذة؟

وما هي طبيعة الأحاديث التي تدور حولي في الخفاء؟

ولما لم تصارحيني بجديد حالتي، أم أنكِ فضلت مناقشتها مع السيد نادر لتميزه الصحفي والمهني والشخصي؟

لم أنتظر الإجابة وقد استدرت في جلستي لأوجّه جام غضب سؤالي تجاه صالح وقلت صارخًا....

لقد شرحتَ لهم إذن محاولتنا الفاشلة في العبور، ونقلتَ لهم أكاذيب عن حالتي التي تظن بأنها مستعصية!

سكت الجميع وابتعدوا عني لتوسيع الدائرة المحيطة وقد تزامن ذلك مع وقوفي مترنحًا، وباعتدال قامتي بالكامل بدا لهم هيئة المشرد الأصيل والتي ما أن رأوها إلّا وقد ظهرت الشفقة على ملامحهم كافة، بمن فيهم السيد محمود البستاني والسيد حجاج اللذان تقدما خطوتين لحماية السيدة أريام من احتمالية بطش المجذوب الثائر.

تجاهلت ذلك التأمين الأمني للسيدة وكذلك خوفها من نبرة الصراخ وتوجهت إلى صالح وجذبته من قبل ملابسه وقلت بينما يخالط كلامي نبرة تدل على ذهاب عقلي....

نقلتَ لهم جميعًا أعراض كاذبة، وصوّرتَ لهم مرضي الغائر عبر قصص قد استأمنتك عليها. ثم توجهت إلى كيان بنفس النبرة وقلتُ بغِلّ وقد تغيّر لَوْني....

وأنت أيضًا.

عبرتْ السيدة أريام المحيط الأمني خاصتها مجتازة السيدان المحترمان، واقتربت بجرأة وقالت وقد تغلّف قولها باللطف....

يا كمال، لم ينقل لنا أحدًا أية أعراض أو قصص حدثت معك، لقد جعلك غضبك وتوترك أن تبوح بما قد توقعناه من وصف نادر لنا عن حالتك، وكما قلتُ لك منذ البداية، لقد جئنا تقديرًا لك وخوفًا عليك، وهذا ما اقترحته

كيان دون شرح أي تفاصيل، وها نحن ذا وجدنا وسمعنا ما أكد لنا على ضرورة وضع الأمور في نصابها.

لم تمنعني الشفقة واللطف من تنفيذ قراري بضرورة إثبات قدراتي الخارقة لهم، والتأكيد على أنهم يضعونني في خانة المرض عبثًا وزورًا، اقتربت من نادر في خطورة شعر بها الجمع وقلتُ بنبرة مجرم....

ما الأمر إذا علمت أن كل كلمة نقلتها أنت عن وجومي وشحوبي، وكل وصف وصفتهُ أنا الآن، هو حقيقة كاملة الأركان، ثم استدرت صوب كيان وصالح وأكملت بنفس نبرة الإجرام الطاعن في التأكد وبدأتُ بكيان...

لقد تأكدتُ من صحة واقعة إصابة أخي الكبير عندما هاتفت أمي، والتي أقرتْ بصدق روايتي التي عايشتها وشاهدتها في جسدي وأنا بالمهد.

تبادل الوقوف النظرات في تساؤل واضح عن تلك الواقعة، وما هي محلها في هذا التوقيت، فأجابت كيان قاصّة للجمع في عجالة تلك الواقعة كما نقلتها إليها بالكمال.

لم تقتنع السيدة زوجة رئيس التحرير وظهر ذلك على حاجبيها المعقوفين ولم تعقب، وإنما الذي أخذ زمام الخطاب هو نادر، حيث تكلم شارحًا...

اعذرني يا كمال، فمن منّا لا يعلم تفاصيل عائلته وتاريخها، حتى تلك التي لم نعايشها يومًا، فكل منّا له شريط من الذكريات وهذه بالطبع إحداها.

تأكدتُ وقتها بأن نادر قد اعتلى منصة التميز وارتدى وشاح الخطابة أمام الجمع وبالأخص كيان، وبالفعل، تنفس نفسًا غير مكتمل وأكمل في عزة....

وأنا شخصيًا أمتلك قصة كقصتك متطابقة حد الكمال والتفاصيل، بل

الأكثر من ذلك فأنا أعلم تاريخ عائلتي حتى تلك الأحداث التي وقعتْ قبل ولادتي أو حتى قبل زواج والديّ، فتلك الوقائع من المؤكد أنها قد قُصّت علينا ذات يوم سمر أو ذات سهرة مميزة، فسقط الظرف المقصوص بها وظلّت الواقعة محفورة في الذاكرة كجزء من تكويننا وركن أصيل من شريط الذكريات الخاص بنا.

أعاد الجمع تبادل النظرات والتي تعكس كامل اقتناعهم بسبق نادر الصحفي المعتاد، وقد شعروا حقًا بأن الموضوع قد زاد عن الحد، وأنه يجب أن ينتهي عند تلك الحوارات والاستنتاجات، وقد أمرتْ بذلك السيدة زوجة رئيس التحرير المصون بكل احترام ولباقة حيث قالت....

إلى هنا وقد انتهى الأمر، وأنت يا كمال ستسافر إلى القاهرة الليلة أو غدًا، ستكون بصحبة صالح والذي سيقوم بتسليمك لطبيب أسرتنا الخاص ثم يعود على الفور لاستكمال مهامه، وسنكون قيد متابعتك، وعليك ألّا تقلق، ستموت تلك الواقعة وستُدفن هنا بحديقة المنزل وبين أسرارنا.

وثقتُ بها وبكلامها، ولم أثق بنادر ونظراته، فكمال الأنيق المتأنق ذو الوضع الناجح المنتظر يضيع أمام أعين أناس غريبة وقريبة، وأقربهم كيان، فهي ليست بالقريبة وحسب وإنما أريدها أن تسكن شريط جوارحي الذي بدا وكأنه سيظل فارغًا كفراغ حيلّي، وهذا ما أشعل الثورة بداخلي برفضي لما قالته السيدة أريام وتمسكتُ بمحاولة إثبات أخيرة، ناجحة من وجهة نظري، فاضحة من وجهة نظر المنطق، ولكنها هي المخرج والمنفذ لكي يضعونني في عباءة الخارق، لا في عباءة المجذوب المدافع عن خرف عقله، فقلتُ وقد امتلكت ما يزيح نظرتهم من الشفقة إلى الانبهار...

إذن؛ وماذا لو أثبتُّ لكم جميعًا عدم صحة ما قد جمعتموه من مقصوصات

سمعية عمّا أسميتموه حالتي.

سكت برهة ثم أكملت بثقة مضاعفة....

إن بحوزتي برهانًا أقل ما يوصف بأنه دامغ، إنه سيد الأدلة يا سادة، فهاتفي يحتوي على صور كيان الشخصية، وقيامي بإرسالها من غرفة نومها في نفس تاريخ تواجدي هنا بالنمسا سيثبت صدق ادعائي، وها هو الهاتف خير برهان وأصدق دليل.

فتشت جثماني بحثًا عنه، متجاهلًا ما يدور بين الجمع من اندهاش واستنكار وتأكيدًا على ما أجمعوا عليه، فلم أجده، هرولت مُسرعًا إلى داخل البناية وصولًا لغرفتي بحثًا عن المُخلّص، ولكنني رجعتُ كما هرولتُ فاقد الدليل، عدتُ جاثيًا إلى موضع نومتي جوار الشجرة عسى أن يكون قد تم فقده أثناء نومتي، فنقبتُ عنه لدرجة أنني حاولت أن أحفر موضع مكوثي، وقد بدأت بالفعل كي أصل إلى اللا موجود، وما منع استكمال عملية التنقيب تلك، السيدان المحترمان حيث أمسكوني من كلتا يداي لتهدئة روح الغراب التي بداخلي في محاولة منّي لأواري سوءة نفسي، والتي كُشفت لهم بلا حاجب أو ساتر، فأوقفوني وأسندوني كمدمن لا يستطيع أن يتعافى من أعراض انسحاب عقار لم يُدرج في جدول الممنوعات، ولم يُكتشف له مصل بعد.

من وجهة نظر الجمع المتفرج فإن كل ما قيل خلال تلك المناوشات الفائتة يجوز أن يندرج تحت بند الهذيان دون غيره، أما الآن فقد تخطى الأمر المنطقة المحظورة واصطدم في منطقة شرف، فإذا كان هذا فقط هو ما تم البوح عنه، فما طبيعة المسكوت عنه إذن، لقد سمعوا ألفاظًا وتعبيرات من شأنها أن تبتر رقاب إذا ما كنا ننتمي لتلك البقعة من الأقصر بالفعل، صور وغرف

نوم، كلام بلا إثبات في حضور عادات مختلفة وتقاليد مغايرة، وقمة العـار هو وجود كيـان ذاتهـا، البنت التي تلتحـف بالشرف والسُمعة الذهبيـة، وبمجـرد سماع ما قيل، فقد تحول الذهـب إلى قشرة، والشـرف إلى خـزي، حتى وإن كان القائم على الإعلان شخص يتفق الحضور كافة على صحة مؤشرات خرف عقله.

هذا ما أعلنت عنه نظراتها حينما اصطدمت عيناها بعيني وأنا مُمسَك الطرفين مهلهلًا بين السيدين المحترمين، وجعبتي وكياني خاليان الوفاض من أي مقومات أو قدرة على محو خاطرة انتهاكي لبكر خصوصيتها، تلك الخاطرة التي لاكتها النوايا قبل الأعين والألسُن، فَأَشحتُ بنظري بعيدًا عن عينيها الجميلتين لأجد صالحًا، وقد تغرغرت عيناه على حالي مما نقلَ عدوى الغرغرة إلى عيني، فسالت دموع اختلطت بدورها مع الطين المنثور على وجهي فتحولت إلى مجذوب مكتمل الأركان، تلك الهيئة التي أنطقتْ دموع السيدة أريام المشفقة، والتي أخفتها وراء جملة مقتضبة، حيث وجّهتها إلى السيدين المحترمين بصرامة وقالت....

فلتساعداه على الصعود إلى غرفته الآن إلى أن نوفر له مقعدًا في طائرة اليوم هو وصالح ليكونا بالقاهرة في أسرع وقت.

ثم استدارت إلى البقية بنظرها وأصبعها كلٌ في ترتيبه وقالت بتوصية آمرة....

وأنت يا كيان، عليك أن ترافقيني إلى الفندق بالأقصر، ولـن تصـل أي تفصيلة مما حدث إلى السيد رئيس التحرير أو أسرة كمال حتى نعرف ما ستؤول إليه الأمور، أما أنت يا نادر فستبقى بالمنزل وعليك متابعة المهام المنوطة إليك ومتابعتها مع كيان إلى أن يعود إليك صالح من القاهرة سالما

ومطمئنًا إيّانا على صحة كمال.

استفقت من وضع التيه الغائر بمجرد سماع آخر فقرة من جملة السيدة أريام والتي أنهتها باسمي، وعادت إليّ قدرتي على الوقوف على قدمي دون إعانة خارجية، وجاشت بداخلي مشاعر الموت، ولم أعد أتحمل تلك النظرات وعلى قمتها كيان، والتي أشعرُ تجاهها بالأسف والندم والانكسار، فاقترب مني الجمع لإخراجي من إحساس قبولي الشنق بصدر رحب، عدا كيان، فضلّتْ أن تكون هي الجلاد دون سُلطة والقاضي دون صلاحيات، فلاحقتها بعيني من بين الدموع والطين حتى اقترب منها نادر ليواسيها على كونها بطلة قصة مدسوسة في رواية أحدهم، يواسيها بالعيون دون الكلمات، وقد بدت لمعة الدموع في عينيها، ولا أعلم هل دموعها على حالها أم حالي؟ فزادت دموعي انهمارًا لغياب السبيل، ووجدت حضن صالح تربة صالحة، فارتميت به، وتذكرتُ فجأة قول العجوز لي بالغرفة في تلك الليلة حيث قال....

الصحفي الناجح هو الشخص البارع في سرد الرواية من وجهة نظر أحدهم، فما أصابك لم يكن ليخطئك، واعلم يا بني أن تلك هي روايتك وعليك أن تبرع في نقلها، حتى وإن ضاقت بك نفسك.

تذكرتها ولا أعلم لما، وقلت لنفسي لا يوجد موضع ضيق للنفس أكثر من ذلك الموضع، ولن يكون كذلك، وبما أن كلماتي وأفعالي صارت عاجزة بالمجمل في توصيل ما أريد أن أثبته، كما أن الشواهد تجذبني لتصديق ما ذهبوا إليه جذبًا دامغًا، ففكرتُ أن أهرب من مجالهم إلى البوابة التي تراءت لي خلال حضن صالح، وقد عطلّني خوفي وارتيابي مؤقتًا من حضور نفس نتيجة عبور صالح معي في تلك الليلة، وهي الفشل والخزي، ولكن ما

الضرر الذي قد يضيفه العمى إلى جسد ميت!، فقررتُ أن أفلت منهم.

نجحتُ باحترافية عالية بالفعل، حتى وصلتُ مسرعًا إلى البوابة، فقام السيدان المحترمان بملاحقتي خوفًا من أن أسمح للأذى أن ينال مني، أمسكت بمقبضها بلهفة الهروب أكثر منها لهفة الإثبات، ولا أبالي بما قد أزوره أو يواجهني، أو حتى يقبض على ما تبقى من روحي، أدرته سريعًا دون أن أنتظر نتيجة، لأنها لم تعد تزيد أو تقلل من تغيير الانطباع المتفق عليه خلفي، فتحت البوابة على مصراعيها وكأنها ترحب بي بحفاوة ولا ينقصها سوى أن تعلن الأفراح بحضوري، هذا ما وقع في نفسي وقتها، وإذ بي أجد أوصالي تتعرض لأعراض العبور المعتادة بالنسبة لي، تتعرض لها بالكامل دون نقصان، بل تزيد بعض الشيء كما لو كانت تشد على يدي وعقلي كتعويض عما عانيته قبلًا، فنظرتُ خلفي كي أرى ما وقع ذلك الفتح على الجمع المجتمع، ولكن لم تمهلني اكتمال طقوس العبور من صفير وأضواء فرصة للكشف، وانقطع الوعي.



(١٠)

استفقت على وضع غريب لكنه مُريـح داخل جسد كمال الذي أعهده، حيث وجـدتُ نفسي بدورة مياه رجـالي أقف لدى مرحاض، وتتم عملية التفريغ بانسيابية رائعة، وعندها أدركت أن هذا الامتلاء ما هو إلّا تخـزين لعملية الشـرب النهم التي تمت قبل استلقائي في أرضية الحديقة، فكل إنسان طبيعي تأتي مرحلة دورة المياه لديه بعد عملية الاستيقاظ مباشرة، أما بالنسبة لي فكانت هي المرحلة الأولية، وقد تذكرت ما حدث بعد استيقاظي، وليتني لم أفعل.

إنها تلك الواقعة الشنعاء التي ساعدت على إثبات خرفي حرفيًا، بل أكدته بالعيان، على كل حال أنا الآن بعيد عن أنظار ذلك الجمع، أقف داخل دورة مياه فاخرة وقد ارتاح جسدي نسبيًا، ومما ساعده على ذلك هو التقاط أذني لموسيقى راقية صادرة من مكان ليس ببعيد، فأنهيت وضع التفريـغ وعدّلـت ملابسي التي نزعـت إعجابي بها من منبت عقـلي، فتحركت سريعًا تجاه مرآة دورة المياه كي أستطلع هيئة كمال الجديدة بعـد أن تركته عند وضـع التشرد الكامـل.

وإذ بي أراني أرتدي بزة تتماشى مع أحدث صيحات الموضة، بل تتخطاها بقليل، رمادية اللون وقميص أبيض ناصع مع رابطة عنق نحاسية، فظننت فرضًا أن البوابة قذفتني إلى "كان" وأنا نجم شرف المهرجـان، فانبهرت من جودة الطـلة والتي فسرت مع صـوت الموسيقى طبيعة المكان المقذوف إليه إلى حد كبير، ويالها من طلة، أراهن بأنها ستنزع آهات الإعجاب من

جوف المعجبات نزعًا، فتناسيتُ كمال الباكي الضائع وتابعت مظهري بفخر وأحكمت رابطة عنقي كي تصل الأناقة لقمتها.

خرجت لأقترب من مصدر الموسيقى التي تعالت، وانخرطت ضمن جمع الحضور، والذي تنوعت أزيائه بين فساتين راقية وبزات مميزة من نفس هيئة بزتي، وفي قلب الانخراط رأيت لوحة عملاقة مكتوب عليها إهداء، فعلمت بأنه قد تمت دعوتي لحضور عقد قران مميز كتميز قاعة الزفاف، فبدا سنّي من هول المفاجأة والفرحة، فاللوحة مكتوب عليها اسمِ والد كيان في خانة والد العروس "تامر شوقي أحمد شوقي"، أما العريس فكُتب في خانة والده، اسم والدي "أسعد".

صبرًا.. قلتهـا في نفسي وقد اختفى سنّي فجـأة حينما اكتشفت خطأ في الاسم، فالمكتوب أسعد، والدي، أما اسم العريس ليس أنا، فأمعنت النظـر في اللوحـة بعين ضيقة لعلى التقط أي إشارة تؤكد كـذب ملاحظتي أو عدم صحتها، ولكن ما اكتشفته جعلني أتمنى رجـوعي لوضع المشرد عن المكتـوب في تلك اللوحـة، وقد أصيب جسدي برعشة مفزعة من هول الواقع، فالعروس كيان حقًا، أما العريس...نادر، نعم، نادر أسعد، وهذا زفافهما، وأنا مدعو به، إذن أنا في المستقبل، وياله من مستقبل لا أريد أن أحياه أو أصل إليه يومًا، وإن وصلت إليه فيجب عليّ أن أحيا من دون عيون أهون من أن أراه، ولكنني موجود وكذلك عيوني، فحركتها عن اللوحة إلى مكان وقوف العروس.

وقفت كيان بلباس العرس كالحور، أقل ما يمكن أن تُوصف به، مُحاطة بهالة من البهاء والحسن، جمال منحوت يصلح للاقتناء والعرض في متاحف تُنظم لها رحلات خصيصًا كل موسم، لوحة مرسومة بنقاء بالغ يعكر صفوه

فقط مَن يجاورها، إنه ذلك التعيس، من وجهة نظري، المحظوظ من وجهة نظر الجميع وأنا أيضًا، يعلو وجهها ابتسامة تعكس سعادتها، تلك السعادة التي ظننت أنني لن أراهـا مجددًا بعد دموعها في موقعـة الشرف، فابتسمتْ شفتاي رغمًا عني لسعادتها، وتمنيت لها جديًا أن تنال الراحة التي تبغاها ولو في رحاب رجل لا يندرج تحت بند الرجولة بالنسبة لمعاييري، ولكنه سيبقى كذلك من أجلها بإذن الله. هممتُ بالرحيل متجاهلًا فرحتي بتأنقي، وما إن استدرت إلّا وواجهت ما لم يخطر على ذهني مطلقًا، إنه السيد رئيس التحرير وزوجته المصون والتي بادرتني بالقول والابتسامة ملء فم زوجها..

هذا هو كمال الذي نعهده دومًا، لقد كنا على تمام الثقة بحضورك.

استدرت سريعًا مرة أخرى ناحية العروسين كي أهرب مما اصطدمت به، ولكن هذا الهروب لم يمنع السيدة أريام العطيفي من استطراد ما بدأته حيث قالت بشكل أكثر تشجيعًا وثناءً ولا تزال الابتسامة حاضرة...

وجودك الآن يا كمال هو خير دليل على أن الرجولة والمروءَة لازالت مزروعة في شبابنا، ثم نظرت لزوجها بامتنان أنا مصدره وقالت...

إن كان للإيثارية سفيرًا لكان كمال.

تعجبت من امتلاك السيدة أريام زمام الحديث دون زوجها مما وضعني تحت خط الخجل لأنني كنت تحت نظرها توًا وأنا متلبس بالخرف المشهود، فتعثّرت الكلمات في حلقي، وارتبكت حد التيه، ولم أجد حروفًا لتكون كلمات أعبِّر بها عما دار سلفًا ولا أعرفه، وأدركتُ وقتها بأن هناك فجوة ضخمة من الأحداث سَقَطتْ سهوًا أو عمدًا من سجلاتي دون سند أو قيد، ولم أملك سوى أن أبادلهما بذات الابتسامة دون غيرها، حتى لا أسقط في فخ ما هربت منه عبر البوابة، فإذا صَدَرت تلك المجاملة من السيدة أريام في

وجود زوجها، إذن فلابد أنهم يعلما بعضًا أو كثيرًا مما أريد أن أنساه أو أخفيه أو بمعنى أصح لا أعلمه بعد، وما يؤكد فكرتي تلك، هي حاستي الصُحفية التي لا تزال تعمل، حيث لمحتُ سريعًا تاريخ اليوم المدون على لوحة التهنئة الخاصة بالعروسين، وأدركتُ بأنه ليس ببعيد عن أحداث النمسا.

طالت الابتسامة وطالت معها نظرات الإعجاب من طرفهما تجاهي، مما جعلني أتلوى كيدًا كي أعلم ما حققته حقًا، ولا يجوز السؤال أو الاستفسار في هذا الموضع، وإذا قدمته فما هي الصيغة التي سيكون عليها، أيكون فرضًا على هذا النحو...

لا لا أبدًا، لا شكر على واجب، فهذا من دواعي سروري، ولكن ماذا فعلت أنا حقًا؟.

أو من الجائز أن يكون على هذا الشكل...

أيمكن أن تقصّا لي بطولتي التي أجهلها حتى أتفاخر بأمر لا أعلمه!

ولذلك كان الصمت الباسم أفضل اختيار، لكن تأثير استخدامه بدأ ينفد حرفيًا، فكان لابد من تغيير الاستراتيجية كي لا أظل كمال الأبله خاوي الحلول، حتى جاءت منحة إلهية سماوية، تشبثت بها كجزع نخلة في عرض محيط، تلك المنحة هي صالح، حيث تمسكت به وجذبته من ذراعه بمجرد أن لمحته يمر خلف السيد رئيس التحرير وزوجته إذ ودّعتهما بنظرة وابتسامة، فاستجاب لي وهلّل فرحًا للقائنا وقال بصوت مرتفع جذب انتباه بعضًا من الجوار....

مرحى، مرحى، لقد كنتُ متأكدًا من حضورك أيها البطل، أين كنت طيلة الفترة الماضية، وما كل تلك الأناقة!

سحبته رغماً عنه جانبًا ووضعتُ يدي فوق فمه لأمنعه من ثرثرته المعتادة عنوة، ولكن من الواضح أنني أخفقت كالعادة، حيث أزالها وأكمل حديثه سائلاً...

أأنت على ما يرام؟، لما لم ترد على مكالماتي، لقد قمت بزيارة شقتك أكثر من مرة لكنك لم تكن هناك، أخبرني، أين كنت؟

صرختُ في وجهه متوسلاً إياه أن يمهلني فرصة للحديث، وقد استجاب من هول صرختي، وقلتُ شارحًا بكامل أعضاء جسدي....

يا صالح، أنا لا أعلم شيئًا عما تتحدث عنه مطلقًا، سواء أنت، أو رئيس التحرير أو زوجته، أنا قادم لكم من الماضي رأسًا، ولهذا فإن المدة الزمنية القابعة بين الآن وبين الفترة التي حضرت منها، هي بالنسبة لي غيب، غيبٌ مطلق.

قال صالح مازحًا...

على حد علمي أن زفاف اليوم منزوع الخمر.

تجاوزت سخافته وشرحتُ مُصرًا...

أقسم لك، يا صالح أنا قادم إليك من النمسا رأسًا، ولا أعلم ماذا تقصد؟ صدقني.

عندئذ تجمد صالح كليًا من شدة ما تلقّاه، ونظر حوله مستغربًا ثم أعاد النظر تجاهي، وقال...

ماذا تقول أيها الأحمق، أتمازحني؟ أنا غير معتاد على مثل تلك الترهات منك، أجننتَ أنت، أم أن خرفك عاد من جديد؟

وبمجرد سقوط آخر طرف سؤاله على حدود مسامعي، تأكدتُ حينها فقط من أنني على المسار المتعاقب المتتالي لحياتي، وأن ما قاله صالح يُعد امتدادًا طبيعيًا لأحداث النمسا وما بعدها، وما ينقصني سوى معرفة ماذا صنعت؟ ماذا صنعت لدرجة أصل معها إلى أن ألبي دعوة زفاف نادر على كيان، فإن كنت في التسلسل الطبيعي للأحداث، فمن المؤكد أنني الآن في أحد المكانين لا ثالث لهما، الأول في المصحة النفسية لما حدث معي وضياع حبي لكيان، والثاني في مراحل التأهيل بعد إصابتي بالشلل النصفي الرعاش لما حدث معي وكذلك ضياع حبي لكيان أيضًا.

تعالت أصوات موسيقى الأفراح في المكان فجأة إيذانًا بتحرك العروسين إلى ما يتمناه كليهما، تعالت وتعالى معها صوت صالح بإعادة أسئلته، ولا تنفك عيني أن تبرح العروس وجمالها الآخاذ، وأتمنى أن تتلاقى أنظارنا ولو لوهلة لم تتحقق، ولا يزال صالح يثرثر لدرجة تمنيت معها أن أختفي من أمامه، وكذلك هروبًا من مشهد العرس الحارق، تمنيتها من أعماقي حقًا أن أزول من الدهر كزوال رماد رفُات الجثث المتفحمة في المعتقدات المنسية، وبينما أنا أتمنى، اختلطت أصوات موسيقى العرس بأصوات صفير أعهدها وأضواء أعتدتها، ظننتها مراسم الرجوع على ما يبدو، فهيأت ذاتي باحترافية كي أعود وأواجه ما تركته بالنمسا على الرغم من جهلي بما سأعود إليه من ظروف وأحداث وعواقب، فجرفتني أمنيتي التي رجوتها إلى...

ما هذا؟! "قلتها في نفسي".

أين أنا بالتحديد؟

فالمكان مظلم حد ظلمة البحور، لا يتخلله ضوء، ولا أكاد أرى كفّي، يخيم عليه سكون ممتد لا تقطعه سوى أنفاسي المتعاقبة نتيجة إطباق الظلمة

بإحكام، وقد بلغ القلب من قفصي الصدري مبلغًا مرتفعًا، وشعرت بأن الكون على سعته لا أمتلك منه سوى مساحة جنين في بطن أمه، مددتُ يدي على عنقي، كي أزيح ما يعيق انسياب أنفاسي واصطدمت برابطة العنق استنتجت أنها "النحاسية" فأيقنت بأنني وارد من زفاف كيان توًا، نزعتها وتخلّيت عن أناقتي غير المرئية لأن الوضع لا يسمح. بدأت في التحرك داخل إطار دائري تسبقني يدي لتكون دليلي، لعلي أصطدم بأي معلم يقودني إلى ما لا أفهمه، كما حاولت جاهدًا الحفاظ على ثباتي الانفعالي الذي بدأ يهتز بحدة بسبب طول مدة اللا شيء.

قاطعها ضوء ظهر بعيدًا بمسافة تعادل بعد زُحل عن الشمس ثم انطفأ فجأة، فأيقنت وقتها أنني مقذوف داخل أعماق ظلمة سحيقة، ظلمة لا يحدها موجود وإنما فراغ متناهي، فانصب تركيزي لا إراديًا صوب ما ظننته أمل، في انتظار إعادة الكرّة، وبالفعل انطفأ سريعًا مجددًا كما ظهر، ولكنه بدا قريبًا بعض الشيء مما ساعدني على تحديد ماهيته، إنه مرجل ناري مشتعل، فتردد سؤال داخلي وأظن أنه بمحله....

كيف ينطفئ مرجل ناري ويشتعل كما لو كان مصباحًا كهربائيًا؟، كيف هذا؟

لم يمهلني المرجل وحامله فرصة طرح السؤال مجددًا، حيث تكرر الانطفاء والاشتعال والتقدم، مرة تلو الأخرى، فتفاوتت مشاعري بين كفة رجحت الخوف عن الأمل، بسبب اقتراب المشعل في مجال أستطيع أن أحدد من خلاله طبيعة ما أراه، واستغليت دنوه كي استكشف المحيط لأجد نفسي في قلب كهف صخري شاسع الامتداد والطول كما لو كان مركز اصطدام نيزكًا عملاقًا بالأرض داخل فوهة بركانية محفوفة بحيد صخري مهيب.

إلا أن الفـزع من اكتشافي للمحيط الصخري لا يعادل وضع المرجل، الذي ظننته في أول الأمر أنه محمول في يد رجل يجلس على كتف رجلٍ آخر لعلو مستواه عن طولي الطبيعي بمعدل ملحوظ، بل وجدته محمولًا بيد أحد من ذوي الهيئة المرعبة زائري غرفة كيان وغرفتي، وقد أضاء المرجل المشتعل الذي بيده ملامح القناع الذي لطالما ظننته فاسدًا، عندها فقط تأكدت بأنني ظلمت الفساد بوصفه إياه، وإنما تفاصيل ملامحه المرعبة تتخطى ذلك بأشواط.

اقترب مني بخطوات ليس لها وقع، يرتدي الزي الذي لطالما رأيته به ويغطي رأسه بذات غطاء الرأس المتدلي من نفس الرداء الأسود، مال تجاهي بجسمه الفارع ودنا بجمجمته ليضعها في مرمى عيني التي تعطلتْ خاصية الرمش عندها، وأصابها الثبات والتحديق إلى العدم وظلتْ جاحظة جحوظ عيون الجثث المُحنطة في مَحْجِرها، دون أن أجرؤ على تمعن تلك الملامح التي تتمعن ملامحي. استدار حـولي بسرعة خاطفـة والغريب ثبات المرجل المشتعل فوق جبهتي رغم التفافة حوليٍ، وكأنها الشمس وقد صُرفت لي خصيصًا دون غيري، فتصبب عرقي سيلًا حتى أنه سكن مقلة عيني دون أن ترمش.

انتهى الزائـر من تفحصي وقد تعرّف عليّ من ملامـحي وتأكد من كوني أنا المطلوب من الرائحة على ما أظن، ابتعد ولم يصدر عني أي انطباع سوى اصطكاك ضروسي من الخوف والانفعال، فأومأ برأسه كما لو كان يأمرني أن أتبعه، فلم أستجب للإيماءة، كررها فاستجابت قدمي بالتحرك بصعوبة بالغة، بدأتها بخطـوة ثقيلة تمنعها أسباب وأسباب، أهمهـا رغبتي في الصراخ والبكاء، فشعر بأنني لا أمانع وقد رأى مني استجابة، ودون كلمات متبادلة رفع المرجل المشتعل عاليًا بدت وكأنها إشارة، وإذ تنفجر مراجل مشتعلة على

الجانبين امتدت كطريق سريع ممتد إلى باطن الظلمة، بوابته قدمي.

فعرفت أنه طريقي وأنا المدعو بلا ريب، أصلحت هندامي الذي ينقصه رابطة العنق بسبب فقدها واستنشقت نَفَسًا أعاد الحياة المذبذبة إلى جسدي الذي أصابته رعشة بمجرد تأكدي من أن حاملي المراجل المشتعلة ينتمون لنفس فصيلة الداعي، فأيقنتُ بأني تعلّقت داخل تصفيات حياتية أخوض شوطها النهائي خارج الديار بمفردي.

خطت قدمي وسط الطريق الممتد في ظل الأجواء الصخرية اللامتناهية، ترمقني أبصار حاملي المشاعل بنظرات أحسبها منبهرة من جودة الطلة وغرابة المدعو القادم إلى عالمهم، وتتنازع بداخلي صراعات مختلفة تشبه الاختلاف ما بين تكويني الطيني وتكوينهم المجهول بالنسبة لي، طالت الخطى دون جديد إلى أن ظهر مجرى مائي بسيط يمين قدمي، فانقبض قلبي لأن المنطق يقول إن منبع خروج المياه هو نفس مكان خروجي، إذن فالغوص خلاف المنطق هلاك، حتى وصلنا لبهو صخري واسع اتساعًا لافتًا، محاط بأعمدة صخرية شاهقة الارتفاع يقف أعلاها تماثيل متفاوتة الحجم تحسبها حية من دقة نحتها، واتجاه بصرها مُسلّط صوب الأسفل، وكأنهم في انتظار حدث جلل بالبهو الذي يوجد في منتصفه منبع المجري المائي المرافق لطريقي، على شكل بحيرة دائرية يتوسطها كرسي ملكي فاخر تظن لوهلة أنه يطفو فوق الماء، ولكنه متصل بممر صخري على شكل زائد حسابي يختفي تحت سطح البحيرة بملليمترات، من يمشى عليه يبدو أنه يخطو فوق الماء، وهذا ما اختبرته حينما صعدت درجتي سلم صخريتين لكي أصل إليه، لأن طريق المشاعل المخصص لي نهايته أمام الكرسي ذو الجلال مباشرة.

انتشر حاملو المشاعل بأطوالهم الزائدة فور وصولي وتوزعوا مكونين

حلقة نارية حول محيط البحيرة، وقفوا صامتون ساكنون لا يتخلل وقوفهم حركة، بيد أن نار المشاعل ذاتها استحت من الثبات فسكنت، وانتقلت عدوى الثبات لي فوقفت كوقفتهم أمام الكرسي الخالي يغطي قدمي القليل من الماء، وقفت بمسافة ليست ببعيدة تسمح لي أن أتمعن نقوشه والتي تذكرتها بمجرد وقـوع بصري عليها لتشابهها مـع النقوش التي تعلـو بوابة النمسا، فأدركت حقًا بأن البوابة قطعة هاربة من حضارة مندثرة لم أكتشف ماهيتها بعد ولا أعرف سبب حضوري إلى هذا الموقع بالتحديد، ولما أنا على وجه الخصوص؟

شدتني جمال المنحوتات والنقوش عليه من داخل أسئلتي، فالكرسي يشبه عرش من عروش الملوك الذين حكموا نصف الأرض وهيمنوا على الجزء الآخر، مُغطى بالكامل بقماش أسود لامع، ويرتفع مَسْنده ارتفاعًا مخيفًا يعلوه تمثال مصغر للتماثيـل المحيطة بالبهو لكنه أكثر حياة، ويتمتع العرش بمخدعين يزيد طول الأيمـن عن الأيسر زيادة ملحوظـة، مبطنين برفـاهية جذابة، كما يوجد مكـان قالب لموضع قـدم لمن يجلس عليه، تزيد مساحة الأيمـن عن الأيسر كذلك، وهذا دليـل دامـغ على أن العـرش تم تصميمه خصيصًا لصاحبه، ذلك المجهول الذي تسبّب في ارتعاد أوصالي لمجرد الاطلاع على أبعاد هيئته.

حرّكت عيني بعيدًا عن العرش كي ألتقط أي جديد في ذلك الموقف، سواء من الحضور أو غيرهم، أو لعلي أسمع صفيرًا أو أرى أضواء تجرفني من باطن ما انتقلت إليه، وإذ فجأة تظهر رجفة في المياه من تحتي متزامنة مع تيار هوائي محسوس حرّك نار المراجل، ودار همس بين ذوي الهيئات المرعبة أعضاء الدائرة النارية، همس غير مفهوم تبادلوه دون تبادل النظرات ثم عاد السكون مجددًا، فأيقنت أنها الريح التي تسبق العاصفة دومًا، وهو ما حدث.

انطفأت نار المراجل مجتمعة واشتعلت مجتمعة مرة أخرى، وفي تلك الومضة التي تظن أنها سريعة، شعرت بكامل تفاصيلها وكأنني أعبر عليها عبور المشتري المقتني، ودققت في ثناياها تدقيق خبير الآثار المتمرس، فالتيار الهوائي الذي أمال نار المراجل من برهة نجح في تحريك شيء بداخلي لأنه عبر من خلالي حرفيًا، ولكنه لم يكن تيارًا، بل إعصاراً ألقاني في قلب أحداث حياتي متخطيًا لحظاتي التي بها ضحكاتي لقلّتها، واختار الطالح والفاسد منها فقط، ورأيتُ من خلال دورانه المدمر إخفاقاتي التي صنعتها بملء اختياري، وكذلك أمنياتي التي أصبو إليها، منها التي تعرّفتُ عليها وأخرى أجهلها جهلًا محضًا، رأيتُ كل ما أشتهيه بأم عيني ويدي ولكنني لم أمتلكه، كل ما مِلْتُ إليه بكياني لكنه لم يميل إليّ، كل ما جاش به وجداني وحرمتني منه ما ظننتها الظروف، كل اقتناع حقنته في وريدي عنـوة لأجبر نفسي على استمرار المسير لعلي أجد ما أتمناه في جولة تالية، أو خلال معركة منزوعة القتال لكنني دومًا الأسير دون فدية.

انتهت الومضة عارضة شريط ما أخفيته داخل الجزء السحيق من أسراري غير القابلة للمعرفة، وأدركت عند انتهاءها أن ما حدث ليس إلّا مجرد مقدمة مشوقة متميزة لاجتماع استثنائي غير متكافئ الأطراف، فالداعي عرّف نفسه لي دون كلمات، وقد اختار مواضيع النقاش بكل نقاطه عن طريق جدول أعمال لن يصدر مني تجاهها لفظ امتناع أو تسويف، وأهمها الرغبة، وتفعيلًا لهذا البنـد توجهتُ ببصري تجاه العرش رغبة مني في الانبهار بجودة صاحب التقديم وتفرده، وكذلك لإتيان يقيني كافة الثوابت بأن صاحب العرش قد نزل بمحله وجالس هناك بلا ريب، فاصطدمت رغبتي بجدار من الظلمة مُنصب فوق العرش، فبدت وسط أضواء المراجـل وكأنها كشاف ضخـم على مسرح أوبـرا عالمي ولكنه يضخ ظـلام مستمر وليس

إضاءة، ظلام أحاط به وأخفى تحته طبيعة الهيئة صاحبة العرش، وعلى الرغم من قوة إضاءة المراجل النسبية إلّا أنها لم تقدر على خرق حدود ظلمته وهذا ما رفع وتيرة الفزع لدي، فانتظار المجهول أصعب من المجهول ذاته، وأنا الآن في حضرته، أعلم أبعاده ولا أعي ماهيته.

أما ما نزعني من داخل فزعي نزعًا وألقاني في ريبة من نوع مختلف، هو ذلك الرجل "ربما" الذي ظهر من خلف العرش بالتزامن مع انتهاء مقدمة الجالس عليه، ويقف عن يساره فوق الماء حاله كحالي، لكنه خالي النعال مبتور الأصابع وكأنها كلها اجتمعت في أصبع كبير مدبب غير صالح لامتطاء نعل آدمي، أشعث الهيئة مألوف الطول رث الثياب وكث اللحية، يتشابك شعرها المجدول تشابكًا ينذر بعدم وجود فم خلفها وكأنه غير مصروف له من الأساس من كثرة اعتياده السمع والتنفيذ فقط، فلا حاجة للشفاه إذن، يقف منتفخ الأركان ويتصبب عرقًا من ضغط عضلاته على أوصاله ولا تنفك عيناه أن تبرح سيده لتفعيل خاصية الطاعة والتنفيذ، إن حانت الإشارة.

انتهت اللحظات الفائتة بكل تضاريس أحداثها الحادة بمجرد انطفاء المشاعل وإضاءتها مجددًا إيذانًا بانتقالنا إلى انطلاق تلك المقابلة، وبالفعل تم ما ذهبتُ إليه، وصدرت تحية نابعة من أسفل ظلام العرش حيث قال....

لا سلام عليك.

ولا طابت أيامك.

قالها بنبرة عربية حادة، مخيفة بعض الشيء، يتردد صداها في أرجاء البهو الصخري، ويظهر عليها تأثير لغات ولَكَنَاتْ أخرى كما لو كانت العربية ليست لغته الأم، لم أرد خوفًا، فأعادها وقد برهن على ملاحظتي

الأولى بأنه يستحضر اللغة، وقال بنبرة أقل وطأة من تحت الظلام المنسدل.

قلتُ لك لا سلام عليك.

ولا طابت أيامك.

لما لم ترد تحيتي؟

أجبتُ في تردد واضح وقد تشابكت يدي مثلما تشابكت أفكاري...

لا سلام عليك أنت أيضًا.

صدرتْ همهمة بين الجمع الملتف، وحركة ما بينهم، امتنعت فور قيام الرجل الأشعث المجاور للعرش بالتصفيق مرتين.

ساد الصمت برهة، أنهاه سؤال صريح من طرفي موجّه مباشرة إلى ذات العرش...

كيف دخلتَ إلى ذكرياتي وأمنياتي؟

أجاب وكأنه فرح من انطلاق النقاش....

أنا شريك أساسي وضلع أصيل.

ثم شعرت بوقوفه وبالفعل تتبعه شلال الظلام المُنصب على العرش إلى مكان خطواته والتي تراوحت فوق الماء ما بين الحركة والوقوف واستطرد في عزة وثقة واضحتين...

هنا جواب لكل معضلة، ومنحة لكل مقطوع الصلة، هنا المحصلة، هذا العالم من يأتيه فقد فُتح له باب، ومن التزم بمعاييره فقد فاز بما يُلهب الألباب، وجودك ليس صدفة، قد تسمى لديكم صدفة، أما هي في الأصل ناتج التدابير، فهنا مفتاح لكل أمر مغلق، ومنصة لكل مُراد، وتلبية لكل

مطلب.

سألت ببلاهة واضحة....

ألهذا اللقاء علاقة بوثباتي؟

أجاب متغاضيًا عن مرادي من سؤالي....

قلتُ لك إن من يأتي لهذا العالم فقد فُتح له باب.

سألتُ مجددًا وقد تملكني الفضول والحماسة لكلماته...

ولماذا أنا بالتحديد؟

ثم أردفت بالفضول دون غيره...

فأنا في عالمي مريض، وأكاد أكون مجذوبًا، وقد عانيتُ من بُعد وفقدان كل أمر أرجوه أو أتمناه.

قال مانعًا كلامي من الاستطراد وقد تجاهل الإجابة عن سؤالي...

هنا فقط بيت القصيد لكل رجاء، وحجر الأساس لكل مبتغى، وستتمكن من الوصول لأي مكان أو زمان تريده، وستتدخل في ملابسات الأحداث نفسها التي منعتك من الوصول إلى ما تتمناه لتكون في صالحك وتتصرف على أساسها، فتسبق من عداك خطوة بل خطوات وفي أغلب الأحيان أشواطًا، وستحيا فيما كنت ترجاه، ستملك العالم إن أردتَ، سترى العجب وستتجمع خيوط الأمور في راحة يدك.

تهللت أسارير كمال المحروم الذي بداخلي، لدرجة أنني سمعت صوت تحطيم سلاسل القيود الملتفة حول رغباتي، تلك السلاسل التي لطالما أسميتها الصواب وتَقَبُّل القدر على أموره، تلك التي لطالما منعتني من الوصول،

وقلتُ في رغبة...

أنا على أتم استعداد أن أتنازل عن أيام من عمري لكي أنال ما أتمناه، وأصل إلى ما أريده، ما هو المقابل لذلك؟

قال صاحب العرش وقد سمع صوت تحطم السلاسل داخلي، ورأى في لمعان عيني نشوة المُريد المُشتهي...

لا مقابل، ببساطة امتلك ما تشتهيه، لا موانع ولا قيود، لا معايير، وليكن الامتلاك مبدئك، هذا هو الوعد الذي يجمعنا دون قسم، والقانون الذي يحكمنا دون عهد.

ثم أكمل بتأكيد مخيف...

أنا ككوب الماء الزجاجي، بسيط في تكوينه واستخدامه، نافع لمن يريد أن يتناول، أما إن انكسر فسيصبح سلاحًا، إذن لا تكسرني فأتحول إلى سلاح ينحر، وكل ما علينا التأكيد عليه هو أن شراكتنا عبارة عن ماكينة دائمة الدوران، بطاريتها القسوة ووقودها الكراهية والقسوة على ما يمنعك من امتلاك ما تريده، وكراهية لما قد يحرمك من تنفيذ ما تبتغيه، كما ينبغي عليك أن تعلم أنه في حال عدم توافر بنود الشراكة، فلا يسعنا وقتها سوى تفعيلها من طرفنا، وياليتنا لا نلجأ لتلك النقطة، لأنها لن ترضي كلانا، لأنها بمثابة شرط جزائي.

صمت قليلًا ثم أكمل بفرحة...

أنت الآن على أتم الاستعداد، ستختار وقت عبورك وزمانه ومكانه، ستتحكم في زمن الرحلة منذ بدايتها إلى نهايتها، لن يحيطك مجال، وستطوي المسافات والأماكن، فقط لا تنسى، لتكن القسوة منهجك.

فكرتُ برهة في ذلك الشريـط اللعين المعروض منذ قليل، ووجدت أن الشرط قابـل للتنفيذ، مادام سيُشفـي غليـل الحاجـة ولهيب السيطرة المفقودة، فبادرت بالإيجاب عطلّه سؤال في حلقي وقلت...

من هو كمال الذي يحيا حياتي وأنا هنا؟

أجاب بسهولة مجتازًا شرح وافر أنتظره...

هو أنت، كمال بالتمام كما أنت عليه، مجرد بديل منك لكنه مسلوب الروح والإدراك، وها هنا معقل الأرواح ومنبتها.

لم أفهم جملة "معقل الأرواح ومنبتها" وماذا يقصد بها حقًا، وسألتُ بشغف عن كمال وما يخصه...

أيجوز أن يلتقي كلانا؟

أجاب بسرعة مخيفة....

إذا تعارضت مساراتكما ستتلاقيان، والغلبة ستكون لمن له الإدراك.

ثم أردف بأبوة غريبة...

تلك الوثبات السابقة ما هي إلّا تهيئة للحدث الجلل الذي أنت بصدده، قليلين من هم أمثالك يا كمال. اعلمُ أنك جئت توًا من مكان قد تأذيتَ به، وقد بدا ذلك على مظهرك الأنيـق، أو الذي بدا كذلك.

سكتَ قليلًا ثم أردف في تشويق ملحمي...

عليك ألّا تنسى مطلقـًا، امتلك ما تشتهيـه، فالحـياة فريدة جميلة وملعونة أيضًا، عليك أن تغزو أحداثها قبل أن تصبح أسيرًا في باحتها الخلفية، وإن صرت فلا تلومنّ إلّا كمال، كمال الطيب الراضي.

ثم أكمل من خلف ضحكة مستفزة وصلني مدلولها لكنني لم أع وضعها في ترتيب المحادثة....

ها، كمال المسكين صاحب التوقيت السيئ.

أشعل بتلك الجملة نار الرغبة بداخلي، ولما لا؟ فلا يوجد أحد متاح له أن يتحكم في أحداث حياته ليصل بها إلى قمة التميز وهضبة التملك، وكأنني أمسيت صاحب القرار في زمن رفض أن يكون زماني، وجاء وقت الرضوخ.

هممت بالرد بالقبول، وقد اجتزت فقرة التنبيه عن الإخلال ببنود الشراكة والتي هي في الأساس بنود متآصلة بين بني البشر بتفاوت، تمنعها أشياء وتسرحها أشياء، لكنه بادرني بسؤال نقض به جدار المنع إن أُقيمَ، حيث سأل بمنطق مخيف....

برأيك ما الذي قد يمنع بشري من تنفيذ بنود الشراكة؟

أجبت بسرعة خاطفة لدرء ردة فعله تجاهي، وقد تملكتني الرجفة من صدى صوت سؤاله....

لكنني لم أمانع.

سكت برهة خاطفة ثم استحضرت روح الصحفي البارع المخادع الذي بداخلي، والذي من عادته انتزاع التصريح وراء الآخر بمهارة، فيمهد للمسئول" باحترافية" بيئة عدائية لاستخراج مكنونات أفكاره، وهذا في الوضع الطبيعي، أما الآن فالبيئة العدائية باتت كالمسطح الأخضر المألوف بالنسبة للمسئول، فسألت بهدف استخلاص أقصى أنواع التأكيدات على صحة اختياري....

الأولى أن تسأل شخص اختار أن يمانع.

ثم خطوت خطوتين واثقتين فوق المياه وكأنني من أهل المكان وسألت في قوة يشوبها الادعاء...

لنفترض أنك سألت ذلك البشري الممانع بالفعل وسردَ لك أسبابًا تائهة للرفض لم تخرج إلّا من باب الفصاحة لا غير، فما سيكون ردك عليه وقتئذ؟

تحرك حولي فوق الماء بخفة مبهرة دون أن تهتز تحته، وتبعه شلال الظلمة فوقه، وقد انكشف جزء من ظلامه المحيط وكأنه استمد بعضًا منه ليستخدمه في رده، ومع ذلك لم يظهر هو، وقال بحزم يشوبه زئيرًا كاشفًا عن عدم ثبات لغته العربية واستقامتها....

سأقول..أنت لم تولد بإرثٍ من العار أو الدَين، لم تحيا ويتعلق في جيدك زمام احتياج أفواه أو مصائرٍ صغار، لم تعش ويَحيطك طوق من الانكسار أو التنمر، لم تكبر وبراح الكون على اتساعه لا يضيق إلّا في قلبك، وقوة العالم موزعة بين كافة الأجسام إلا جسدك، فيتمتع الأصحاء بنصيبك من الصحة، وترث أنت نصيبهم من التلف، تسير على قضبان محصورة اختياراته ما بين تربية مدسوسة وابتهال خاوي، لا ترى تفاصيل سعادة غيرك إلّا في اختصار أيامك ما بين سطرين يشبه أولهما أخرهما ولا يخرج معناهما إلّا من باب الحرمان المستمر والشبع المستعار، تعيش ويرتدي سخطك رضا مزيف وإيمان كاذب، تموت وتقنع ذاتك بنعيم مديد ومغفرة غير مضمونة، يحيك أحداث حياتك روائي محترف يبيع روايتك ويتربّح بها ويطويك كصفحة مهترئة ليسرد غيرك، فترى صفحات حياتك وتدمع على فصولها وتعجز عن التدخل، ولا تملك سوى أن تزيل الدمعة من فوق وجنتك المشققة جراء معاناتك حتى تتفقد وضع خطواتك، كي تزلّ في مستنقع التمني المشوهة والتفاؤل المخادع عن رضوخ مستكين.

اتسعت عيناي من جودة الألفاظ المختارة بكراهية، وتسلسل الجُمل المنتقاة ببغض، ولكنه لم يمهل لانبهاري الوقت، حيث استطرد حديثه على وضعه بنصفً ابتسامة مسموعة وشبه ساخرة وكأنه يصوب عليّ فوهة خطبته....

أنت لم تختر أن تكون ضمن الجموع، ولكنه قدرك الحتمي، بيد أنك تكافح لتسلك درب الكفاية عبثًا بينما يتم تأهيلك لاحتمالية غرس حلم الأبطال بداخلك حتى تستسلم عن طيب خاطر ولا تتمرد، فتنقادَ مسلوب الإرادة إلى هاوية محتومة، ويمثل محياك واحتكاكك ومماتك وقودًا لتسيير حياة آخرين، حينئذ لا مفر من أن ينقلب الممنوع إلى مستباح عن رضا ويصبح الاستحياء غير مباح بكامل الاقتناع، وستلهث بشراسة خلف بنود تلك الشراكة، تلك البنود التي منعتك طهارتك المزعومة من الاقتداء بها، وخذلتك مبادئك المعيبة عن الامتثال لها، ووقتها.. وقتها فقط، لن يتبقى سوى لُعاب مُسال على رِهان خاسر.

انتهى العرض، وتوقف من كانت له الكلمة عن الكلام، وتوقفت الأرض ذاتها عن الدوران، وخَرُستْ معها دفوع كافة الرافضين لقَبول تلك الشراكة محدودة الشرط عظيمة الربح، ولم يعد للممتنع حق النقض أو الاستشكال، فالخطبة المُلقاة سَدّتْ كل الثغرات أمام كل الطعون، وأكدتْ الغرامة على من يفكر أن يمتنع بجهالة، كما أحيَت روح المكسب داخلي وأنعشت بدورها ضرورة استغلال الفرصة لا مناص، وهذا ما أردت أن أنقله لذلك الكيان تحت شلال ظلمته.

لكن الظلمة الحقيقية انتشرت فجأة فور انطفاء المراجل كافة وتركتني أرتجف نتيجة إطباق الظلمة بإحكام كما حدث في بداية الانتقال من زفاف

كيان إلى هنا، انطفأت دون رجعة، وبينما تسلل ضوء علوي نفذ عبر سقف البهو الصخري فأضاءه بصيصًا، تلاشت رجفتي، فدارت العين بديهيًا بحثًا عمن كانوا يرافقوني الموطئ.

لكن لا أحد بكل ما تحمله الكلمة من فراغ، اختفى الجمع بمن فيهم صاحب العرش وكرسيه، وكشف البصيص عن خواء البهو الصخري على عروشه باستثنائي أنا وبعض المعالم التي تدل على أنني أقبع بمكان لم ولن تطأه قدم كائن عاقل أو غير.

وقفتُ مشدوهًا ترن بمسامعي وتتناقل في مخيلتي فعاليات الاجتماع الاستثنائي المنتهي توًا ونتائجه، وشعرت بأن هذا البهو عبارة عن نقطة ارتكاز فرجار أساسية وما حوله يمثل دائرة كونية أنا مركزها، ومهما اتسعت أنا محيطها، ومادامت الأرض تدور أنا محورها، وقد أكد اختفاء الجمع على تفعيل ما جئت لأجله، أو بمعنى أدق "ما أحضروني لأجله" فاليوم يوم التنصيب وبتُّ أمتلك مصيري ومصير أحداث حياتي المسلوبة، الآن أنا أمتلك الحل بل الحلول، لا، أنا الآن أمتلك القوة، القوة وما تعصف به يدي من بأسٍ، رخاء حيث أريد، وقتما وأينما أشاء.

نزعتني جملة ساكن الظلمة "هكذا ما أطلقتُ عليه" والتي تفي بأحقيتي في امتلاك الزمن عن طريق التحكم في قوانين الرحلة، نزعتني من الاحتفاء بتاج التميز الذي زيّن أفكاري تزيينًا، والتي أكّدت لي بأنه لن يكون لي لُعاب مُسال على رِهان خاسر، واستدعيت الطقوس من أضواء وصفير، لبدء مراسم الرجوَع، ذلك الرجوع الذي تمنيته لأكون ما أردت دومًا أن أكون عليه، ولن تؤثر بي مجددًا تربية مانعة أو ابتهال ليس له رجاء، هذا هو منهج ساكن الظلمة والذي لابد وأن يكون منهجي، بل سيكون، لأنني سلكتُ ما

دونه فأصبحت دون ما رغبته.

فجاءتْ المراسم خاضعة دون أعراض وجرفتني إلى النمسا.

***

(١١)

استفقت بعد الرجوع وأنا أتوقع حضوري كالعادة في أي مشهد ثنائي أو جماعي يجمعني بمن أعيش بينهم بالنمسا، أو على الأقل في أي مكان تم اقتيادي إليه عبر ذلك الكمال البديل مسلوب الروح عديم الإدراك. أردت فتح جفني فلم تستجب بسهولة، ففتحتهما رغماً عنهما وكأني عائد من نوم يقرب من عام متواصل، فوجدت نفسي ممدّد الأطراف على سريري بغرفة النمسا، أجزائي تشتكي من ألم نابع من منبت العظم ويطفو ذلك على السطح فتحولتُ إلى جثة غارقة في بحيرة من الوجع، ولم ينجو من ذلك سوى أصابع قدمي التي شعرت فيها ببلل ظننته بواقي قفزتي لدى ساكن الظُلمة، فحركتهم فرحًا حتى أستعيد عافيتي لأمتلك أيامي وأحداثها، لكن عدم القدرة كان الناتج، فسيطرت خاطرة عدم رجوعي على عقلي، أو أنا الذي قفزتُ في جسدي عند التسعين وأصابني العجز، أو تحولت إلى قعيد فاقد الحركة، فحاولت تحريك يدي فاستجابت، نظرتُ لها حتى أحكم على عمري من خلال تجاعيدها، فلم تسعفني إضاءة الغرفة الخافتة، فتحسست تضاريس جسدي الفتَيّ كَحَلٍّ بديل سريع قبل أن أنتفض جبريًا في اتجاه مفتاح إنارة الغرفة، وكانت النتيجة إيجابية مطمئنة بأنني في جسد كمال الأصلي بنفس عنفوانه لكنه يرتدي سترة من الإجهاد.

نهضت ببطيء تزايدتْ وتيرته بعد أن وطأت قدمي الأرض، وتوجهت إلى مفتاح الإنارة ومنه إلى المرآة فهدأت أوصالي بمجرد أن رأتني منهكا بعض الشيء لكنني أنا، يجرحني فقط مشهد زفاف نادر وكيان ويتفاوت ألمه ما بين

الصحة والهذيان، وقد عادت غرائزي رويدًا إلى العمل فشعرت مع عودتها بنداء الجوع الفوري والعطش الحتمي، حاولت الخروج من الغرفة لكي أشتبك مجددًا مع مجريات الحياة الضرورية لتهدئة غرائزي الطبيعية، لكنها باءت بالفشل، وكان صالح هو السبب، حيث قطع عليّ طريق الخروج بدخوله، ولم يكن دخوله هو المانع الوحيد، وإنما صاحباه السيد حجاج القائم على المنزل وكذلك السيد محمود البستاني، وكان دخولهم أشبه بالعصابات، التفوا حولي التفافًا ماهرًا وبادروني بالكلام وتزَعّمْ حديثهم صالح، حيث قال ناصحًا بثرثرة معتادة...

إلى أين أنت ذاهب يا بطل؟

عليك أن تلزم الفراش، وسيأتي لك كل ما تريده بطرفة عين منك.

قال تلك الجملة ثم نظر إلى السيدين المحترمين وأردف بسماجة لم تنبت أي ابتسامة على وجه أيًّا منهما...

ليتني كنت أنا المريض على أن تتم معاملتي كمعاملة الملوك تلك.

ضغط صالح بهذه الدعابة على زر لا يعلم أحد أي باب سيفتح نتيجة لنقره إياه، احمرت عيناي ونظرتُ إليه شذرًا ينبئ بافتراسي لرأسه كديناصور غاضب من العصر الجوراسي لولا دخول السيدة أريام ثم نادر، رأيته، وحين التقت أعيننا تذكرتُ على الفور بزّته المذهلة بجوار كيان الأكثر إذهالًا، فسألتُ بعفوية مطلقة....

أين هي؟

عاجلني نادر بالرد وكأنه يجيب من باب غيرة الرجل الفطرية على أنثاه، وبحواجب لا تبدو معقوفة للجميع ولكنها بدت لي هكذا...

أتقصد كيان؟

تدخّلت السيدة أريام تدّخلًا مثاليًا كعادتها وقالت....

كيان في الفندق بالأقصر.

ثم وزعت نظرتين ما بين نادر وصالح واستطردت....

لقد كنا جميعًا بالحديقة ورأينا إضاءة غرفتك فجئنا للاطمئنان عليك.

ثم قالت بحنان لمسته حقًا....

وقد قام السيد حجاج بتحضير وجبة عشاء فندقية، أتمنى أن أشاركك إياها، ولكنك تعلم حمية السيدات في مثل سنّي.

تدخل صالح كعادته مجاملًا....

ليت كل الشباب مثلك أيتها الوقورة.

ثم نظر تجاهي واستطرد موجهًا حديثه للسيدة الوقورة....

لا تقلقي، سأشاركه الوجبة ولن أبرحه حتى يأتي الطبيب.

هنا فقط تنبهتُ للواقع وأغفلتُ جوارحي وغرائزي وجوعي وعطشي وسألت بشغف طفل يمد يده ناحية شمعة لأول مرة ولا يعلم الضرر الناتج عن فعلته الساذجة وعيوني حائرة بين الحضور....

لمن الطبيب؟

سكت، وتذكرت فجأة واقعة الحديقة وترتيب أحداثها التي كان نتاجها خطة السيدة أريام الوقورة وكانت بدايتها ضرورة سفري أنا وصالح إلى القاهرة ونهايتها اختراقي للبوابة سعيًا للهرب، فسألت مجددًا ولكن هذه المرة

أنتظر الرد حقًا....

ماذا حدث؟

ماذا حدث بالفعل؟

ساد صمت مطبق بين الوقوف، قطعه صالح شارحًا...

كما تعلم يا كمال، لقد كان مقررًا سفر كلانا في أول حجز إلى القاهرة لملاقاة الطبيب، وما حدث هو أنك غافلتنا وهرولتَ دون سابق إنذار صوب بوابة الحديقة الخلفية وعبرتها، واختفيت عن الأنظار داخل الصحراء بعد تخطيك البوابة، فهرولنا خلفك مسرعين ويغشانا القلق، فوجدناك مُلقي أرضًا على جانب البوابة مغشيًا عليك تمامًا، فنقلناك إلى هنا بغرفتك كي تستريح وكي نقدم إليك الإسعافات آملين عودة وعيك إليك، لكن دون فائدة، فهاتفنا السيد طبيب أسرة رئيس التحرير الخاص لتقديم المشورة اللازمة، وقد أخبرنا بأنه مشترك بفعاليات مؤتمر طبي في كلية الطب جامعة أسيوط وسوف يستغرق أيامًا وسيوافينا إلى النمسا فور انتهائه منه، وقد نصحنا ببعض الأدوية لك، كما وصّى بإعطائك حقنة بعينها أحضرناها من المدينة، وقد تكفّل بذلك السيد محمود البستاني، مشكورًا.

ثم أكمل مازحًا دون اعتبار للموجودين...

وبعد أن قام السيد محمود البستاني بكشف أعظم أجزائك غطَتَّ في نوم عميق منذ الشروق وها أنت ذا تقف في كامل وعيك، لكن عليك أن تتناول وجبة السيد حجاج الآن، لأننا حقًا في حاجة إليها أكثر منك.

ثم قام السيد حجاج بمرافقة السيدة أريام نزولًا إلى السيارة حيث كانت في انتظارها مع سائقها لتوصيلها إلى فندق إقامتها لدى كيان بعد اتفاقنا على

ضرورة اتباع تعليمات الطبيب بتناول جرعات الدواء الموصوف في وقته حتى إشعار قدومه، وقد وافقت برحابة على الحفاظ على مواعيد الدواء الموصوف طيلة فترة انتظار الطبيب غير معلومة المدة، كما وافقت على وضعي بخانة المرضى لانشغالي بخطط أراها قيد النسج وينقصها الربط ومفتاحها بوابة النمسا.

جلسنا ثلاثتنا أنا وصالح ونادر على مائدة العشاء لتناول الوجبة التي تتمناها كل جوارحي، وبينما كانت أعضائي تستمتع بوجبة العشاء وجمالها، كنت أنا أستمتع بخبر تأجيل قدوم الطبيب بنفسه إلى النمسا، والذي فيه مكوثي بجوار البوابة دون قتال من جانبي أو دون أسباب واهية من طرفي للبقاء، ولكنها لم تكن صدفة بل كانت نتيجة التدابير، هكذا ما علّمني إياه ساكن الظلمة، فالتدابير تربطني بها وأنا لن أبتعد عنها بالمقابل، فهي مرادي وهدفي وستكون السيادة لي من خلالها، وسيكون أطراف تلك الطاولة هم، الذين تتقاطع مسارات حياتهم مع مجال حياتي أيضًا، طوع اختياراتي وتدابيري.

لكن المهم أن أستغل الفترة حتى قدوم الطبيب من أسيوط في خلق بدائل أكثر لبقائي، أو الانتظار لما ستسفر عنه مخططاتي حتى إشعار آخر، وأجمل ما في تلك المخططات أنها أمست منزوعة الفزع من كيانات أو هيئات كنت أظنّها مرعبة، بل من الممكن أن يتطور الأمر ويصبحون جنودًا لي وتحت إمرتي مثل أصبحت مسيطرًا على الزمن.

انتهت الوجبة ولم تنته نظرات نادر المرتابة تجاهي، فأنا ألاحظها وأتجاهل ما ترمي إليه على عكس نظرات صالح، والتي تحمل في طياتها المراقبة للاطمئنان، وهذا ما أكده حديثه معي عندما شرعنا في التوجه إلى غرفنا

حيث اقترب صالح وقال...

لقد تأكدنا من الطبيب أن الجرعات صباحية ومسائية، كما أشار إلى أن تناول العلاج في توقيته سيحافظ على نسبة التركيز لديك، وما عليك سوى الراحة، الراحة فقط لا غير.

ثم أردف في اهتمام يشوبه القلق...

أنا قلق عليك حقًا يا كمال، فأنت لم تشعر بنفسك صباحًا، كان الوضع كارثيًا، أرجو أن تتقبل كلامي الذي أعلم أنه ليس في محله ولكنه من باب الاهتمام لأمرك ليس إلا.

بادلته بابتسامة دالة على الامتنان لاهتمامه بأمري من خلف جسد منهك، ثم أكمل ثرثرته دون رادع....

على العموم سأرافق نادر الآن لننال قسطًا عظيمًا من الراحة، والتي تحتاجها أنت أيضًا، وسأكون متأهبًا تأهب الغواصين لنجدتك إن لزم الأمر، ولا تتوان في طلبي إن احتجت لأي أمر أو إذا شعرتَ بأي عرض.

صعدت للغرفة طلبًا للراحة من ناحية والاختلاء بنفسي من نواحي عدة، ومما زاد نواحي طلب الوحدة هو هاتفي، فقد أعطاني إياه السيد محمود البستاني بعد أن وجده في ركن من أركان الحديقة بعد واقعة الشرف المنتهك المزعومة، وقد شكرته شكرًا كبيرًا على ذلك، كما شكرت الظروف لعدم ظهور الهاتف حينها فتظهر الصور التي زعمتُ إرسالها وينكشف أمري مع البوابة، حينئذ تصبح خططي خارج نطاق الأسرار، أو على أقل تقدير سأبدو منتهكًا لخصوصيات الزميلات، وسيتم تصنيفي تحت بند المريض الشهواني وأفقد تعاطف من له الحق أن يتعاطف، أما الآن فهو مجرد مرض لا أكثر،

وأنا قـادر على محو ذلك التصنيف بناءً على قدراتي الزمنية الخارقة، بل قادر على أن أصل إلى أعلى المراتب.

ما جعل ثقتي تتزايد في قدرتي حقًا هي صور كيان التي وجدتها بالفعل في هاتفي فور دخولي لغرفتي واختلائي بنفسي، حيث كان ذلك النشـاط هو أول ما قـررت تنفيذه، وقد جحظت عيناي من الفرحة جراء مشاهدة تلك الصور، وأضاء بريق جحوظها أركان كياني والغرفة، وبدت وكأنها عهد سرمدي مع ساكـن الظلمة على تفعيل بنـود الشراكة بلا رجعـة أو نقض.

تمعنتها بقوة ودقة وطمعت في الأصل، ذلك الأصل الذي بدا لغيري خلال قفزة ملعونة لا أريدها أن تتكرر، وتمنيتها أن تكون مجرد زيارة مشوّشة لا تستند إلى الحقيقة، ولكن وإن كانت كذلك فأنا الآن أملك ما هو قادر على تغيير ما لا يمكن تغييره، فنظرتُ مجددًا إلى صورتها، وهيأت ذاتي لرحلة ليلية إلى فندق الكرنك محل نزول كيان، ووضعت الهاتف في حضني ورقصت معه رقصة تمايلت معها وكأنها مع كيان ذاتها، رقصة ساحرة دخلت بها إلى عالم حالم أطير به بلا أجنحة، ولا سطوة فيه لزمن.

انتظرت حتى ينزل الجميع في غياهب النوم وغياهب إدراكهم بكوني مريضًا تحت تأثر العلاج، وبدأت نار نفاد صبري تشتعل حتى ألتحم بالبوابة، وقد تخطى الوقت منتصف الليل بقليل وأسدل السواد القاتم ستائره على المحيط، ولم توجد أي عوائق تحول دون تنفيذ ما تميل إليه رغباتي سوى تعارض مألوف بين الجسد والعقل.

جسدي المثقل بالإنهاك وعقلي المثقل بالتطلعات، فرجحت التطلعات رغمًا عن الجسد وتسللت خروجًا من غرفتي بعد أن هيأت أذني لاستقبال أي حركة خارجها ولم تلتقط، وهذا ما حدث مع غرفة صالح ونادر، فهرولت

إلى الحديقة ينتابني إحساس مَلَكِي بعظمة ما أنا بصدد اختباره. وصلتُ لدي البوابة وقد استقبلتني بأضعاف شوقي لها، وبرزت نقوشها بروزًا لافتًا، كما لمعت وكأنها تناديني بأن عبور اليوم ليس كأي عبور، بل يحمل من التميز أطنان.

وقفت لديها واخترت بعقلي اتجاه وتوقيت الرحلة وإحداثيات الانتقال، وقلبي ينتفض رقصًا من الفرحة وأكاد أسمع ضرباته، كما أن خلايا عقلي تتناغم وتتمايل حتى تجتمع على انطباع صدق ما سوف يحدث، أخذت نفسًا عميقًا حتى تهدأ أعضائي، لكنها لم تستجب وكأنها جواد غير قابل للاستئناس، نظرت للبناية خلفي لعلي أهدأ وأكون قابلًا للانطلاق تحت السيطرة، فما فائدة إطلاق مكوك فضائي إلى الفضاء دون كبح مراكز وقوده، أعدت ذلك النفس العميق مجددًا واستدرت للبوابة وداخلي اقتناع يملئ محيطًا بأن ما سيحدث هو حق أصيل لكمال، وعبرتُ.



(١٢)

لم تكن أعراض العبور شديدة الوطأة كالسابق، ولكنها باتت كدغدغة مدلك محترف، استفقت بعدها مباشرة في شرفة غرفة فندقية فاخرة، فأدركتُ أن اتجاهات الرحلة قد أصابت، واسترقت السمع للموجات القادمة من الداخل فسمعتُ صوت من حضرتُ لأجلها، كياني، منصة مخططاتي القادمة، والتي اجتزت الزمن لها، ولها سأتغاضى عن كل شيء.

كانت تتحدث بالهاتف ولم يسعفني ذكائي لألتقط ماهية الطرف الآخر حتى جاءت الإجابة صريحة صادمة شطرت قلبي نصفين متعادلين، فكان نادر هو الطرف الآخر، وكانت المحادثة تدور عن كمال، عنّي، وقد التقطت كيان طرف الحديث حيث قالت....

كيف له أن يجرؤ ويصرحَ بأنه اقتحم خصوصيتي، أيمكن أن يكون قد تعلق بي للحد الذي يصل به الأمر إلى تخيله بأنه دخل غرفتي؟ وما قصة تلك الصور الخاصة بي؟

صمتت لتستمع لما ورد إليها من الطرف الآخر ثم ردت في ابتسامة مثيرة....

لا أدري أذهَبَ خياله إلى أبعد من ذلك، أم اكتفى بالصور؟

ثم أردفت بجدية حادة....

إذا كان هذا هو الحال خلال وجودك بالنمسا، فماذا سيكون رد فعله إن

عرف ما بيننا حقًا؟

استمعت كيان لبعض الكلمات منه ثم أجابت....

كيف هذا يا نادر، كيف تقول هذا؟ كلماتي معه لم تتخط حدود الزمالة، وإن علت وتيرتها ذات مرة فرضًا، فإنها ستكون بديهيًا ضمن إطار العبارات التشجيعية ولن تخرج عنها، ولكن من الجائز أن تكون حالته المرضية هيأت له بيئة تعايشَ من خلالها مع ما ما آلت إليه نفسه.

ثم قالت بحنان اهتزت من فيضه الشرفة بمن فيها....

أنا قلقة عليه حقًا.

سكتت برهة ثم أجابت على ما سمعتهُ بنبرة استنكارية....

لا أعلم حقًا!

ماذا سيكون العمل وقتها؟

انتهت المحادثة ما بين عبارات وكلمات وهمهمات لا تدخل في طور الأهمية بالنسبة لي، ولكن الناتج لا يختلف عما خلفته معرفتي بإصابتي بصرع الفص الصدغي، بل يزيد، فإن كان الأول مجرد إصابة، فإنه الآن تدمير يصل إلى حد الطمس، أقف مصدومًا وأفرك عيني بالخطأ حتى أستوعب ما سمعته، وتمنيت أن تقذفني البوابة إلى نبتون أبعد كواكب المجموعة، أو أن أقذف بنفسي من الشرفة.

كيف هذا يا كيان؟

قلتها وأقصدها، أيعقل أن يكون زفافك على نادر حق؟ أكان حديثك الودود مجرد عبارات تشجيعية! أم كانت شفقة؟! وإن كانت هناك علاقة

خفية بالفعل بينك وبين نادر، فمتى نشَأت بينكما؟ هل انطلقت بالجريدة في القاهرة؟ أم وأنا مشغول بالبوابة دون أن يعي ذلك كمال الأبله؟! هذا البديل منزوع الروح والإرادة والقرار، ففي هذا نصف إثبات على عدم تشويش قفزة الزفاف، فإن كان ذلك حقًا فإن كمال لا يستحق الحياة، وإن استحقها فسأسلبها منه تمامًا كما سأسلب كيان براءتها، وإن كنتُ قد استحييت أن أجرح خصوصيتها مسبقًا فها أنا ذا سأذبحها بكامل جوارحي وسيصل الحد إلى أنني سأشتهيها نظريًا وعمليًا دون رادع، ولن يمنعني مانع أو حاجز أو تربية.

شرعتُ بالفعل حيث غمرتني الرغبة وغاب عني كل ما قد يمنع، بدأت من شعرها المعروف لدي مسبقًا وصولًا إلى لون أظافر أقدامها الزرقاء، وقد حضرَ الذئب البشري في جسدي بكامل طاقته، وحضرت معه تراتيل البرية الجامحة حيث لا وجود لقوانين أو قواعد تحكمها سوى مواسم واجبة لغريزة بعينها، وما منع عوائه أو أجّله طَرْق باب غرفتها، فتابعت المتطفل عن كثب، وكانت السيدة أريام، دخلت وجلست معها جلسة أنثوية طويلة معهودة، وتبادلا أطراف الحديث وأعماقه ولم يتناولا أمرًا يخص كمال أو نادر، وإنما حديث أنثوي ممل بالنسبة لأي رجل، ولكنني لستُ برجل وإنما أنا عابر، فخطرت لي خاطرة من شأنها تمرير وقت الجلسة تلك، وهي أن أكون عند الطرف الآخر من المهاتفة التليفونية التي أصابتني في مقتل حتى تجتمع لدي الرؤية بكاملها، مما قد يساعدني في مخطط الامتلاك خاصتي، فانتقلت رأسًا إلى منزل النمسا حيث غرفة صالح ونادر منذ قليل، وبالفعل.

وقفتُ مستترًا في شرفة غرفتهما، وبينما صالح يغوص في نوم مسموع الصوت من فرط انغماسه به، انسلخ نادر في ركن من سريره متحدثًا عبر الهاتف مع طرف كنت لديه توًا وأعلم تمامًا نَص الحوار الدائر، وما حضوري

إلى هنا سوى مضيعة للوقت وتمرير للجلسة الأنثوية المملة، ولكن ما اكتشفته ثَمّنَ حضوري للغاية، وجعل له فائدة مضاعفة، حيث استمعت إلى الجملة المفقودة في الحوار الدائر والتي كان رد كيان لها...

لا أعلم حقًا ماذا سيكون العمل وقتها!

حيث قال نادر صراحةً...

ماذا لو أعلنّا عن موعد زفافنا؟ فما هو العمل وقتها؟

نزلتْ تلك الجملة على قلبي كهطول المطر على العاري في شهر يناير، واكتمل نصف الإثبات ليكون بدرًا شاهدًا على صحة ما ذهبت إليه وجئت منه. غضبٌ جارف استبد بناصيتي فساقني دون وعي لأن أدور حول محوري داخل شرفة الغرفة، وتراءت لي كيان جوار نادر في زفافهما وأني كنت مجرد مدعو لمباركة اقترانهما الأبدي، فأصابني عَرَضَ القيئ من شدة الدوران دون أن أقيئ، كما انتابني عَرَضَ الاختناق دون أن أفقد الوعي، وأيقنت بأنني كنت أبحر في تيار مخالف للواقع، وأن الواقع الحالي يقود للمستقبل اللعين الذي ليتني لم أزره، لكنني زرته دون أن أنتبه، وحين انتبهت، كنت قد وصلت لنقطة لا رجوع منها، فلا التيار سيتغير اتجاهه ولن تسعفني قوتي.

انتهت المكالمة وأنا أعلم حال الطرفين، لأنني كنت أتمنى أن أكون أحدهما، ولم أكن، وبدلًا من أن أرجع لما كنت أشتهيه في فندق الكرنك، قررت أن أبدأ مخططي من الآن بضرورة فضّ ذلك الالتحام ليس المكاني فحسب وإنما الروحي أيضًا، ومن أجل أن يخلو لي قلب كيان الممتلئ، عليّ أن أنجح في إخلاء وجهها أولًا بإبعاد نادر عن الصورة بأي شكل حتى أظلّ في مجالها بمفردي، ولن يكون هذا الشكل مجرد أمرًا سطحيًا أو عاديًا، وإنما يجب أن يُحرّك نادر من جوف قراره، ليس بضرورة ترك المنزل في اللحظة وحسب،

بل الرحيل عن الأقصر كلها والعـودة إلى القاهـرة، ولن أجد أغلى وأهم من عائلته، ضرر بسيط يصيب أحد أفرادها أو جميعهم، فالعائلة هي السبب الوحيد القادر على اجتذاب مُغرم من قلب شهوته ليفزع لها، إنها العائلة.

أنهي صالح تلك الخاطرة عندما استيقظ من نومته وتبادل الحديث مع نادر الذي أنهى الحوار مع كيان بدوره، فاستدعيت مراسم الرجوع لغرفتي بمهارة حتى يتم نسج التكتيك ليكون موضوعيًا طبيعيًا.

رجعت، وجلست على طرف سريري مأرجحًا قدمـاي وأعتصر خـلايا عقلي كي أصل لأعظم خطة، وكل الاختيارات حاضرة، البريء منها ولا أستبعدُ الإجـرامي كذلك، بل أميـل للأخير لما فيه من مباركـة لاستمرار الشراكـة المعهودة، فقررت أن يكون الصدام وجهًا لوجه، على أن أزور عائلته وأتربص بهم الدوائر لعلّي أجد مدخلًا لإثارة هلع نادر مهرولًا إليهم.

قمت بدورية استطلاع للنائمين بالمنزل مجددًا حتى أصل للبوابة بعد أن استقريت على الانتقال إلى منزل نادر بالقاهرة مباشرة، ولا توجد خطة واضحة المعالم، فأنا لا أزال مبتدئ في عالم الإجرام أو الأذى، مجرد بعض التكهنات بوضع ما يسبب تهيجًا معويًا قوي التأثير لكامل العائلة يصل مداه إلى حد التسمم إن أمكن، ولكن يبقى كيفية التنفيذ، ففي هذا استحضار فوري لنادر من النمسا كقطـب مغناطيسي لإدراك مـا أصاب العائلة لا منـاص، وأراهـا في ذات الوقت خطـة نصف مؤذية ولا ترتقي لأن تكون إجرامية صرف، وإن كنت لم أعد أكترث لذلك، ووصلت إلى البوابة وحددت بوصلة اتّجاه رحلتي في عقلي، وعبرت.

جرفتني الأضواء والصفير إلى مكان أعهده كعهد الإيمان بذاتي بأنني كمال أسعد لا غيره، وتنتابني الحيرة ما بين إخفاق إحداثيات البوابة من جهة

وبين إخفاق تحديد وجهة الرحلة داخل عقلي من جهة أخرى، فكيف هـذا؟ لقد أحضرتني رحلتي إلى باب شقـة طالما طـرقت عليه راحة يدي وظهرها وقبضتها، بيد أن الباب ذاته يستطيع أن يتعرف عليّ، إنه باب شقة عائلتي أنا، أنا كمال أسعد.

اختمر بداخلي الحنين فجأة شوقًا لرؤيتهم واختلطت بالاختمار أحاسيس وأفكار تقود إلى الغيبوبة الحقيقية حين وجدت لوحة الباب مكتوب عليها اسم طالما ارتبطت به، حيث كان مكتوبًا....

"أستاذ الكيمياء أسعد....".

الاسم الأول أبي، أما بقية الاسم المكتوب هو ذات الاسم الذي كان مكتوبًا على لوحة زفاف كيان ونادر، نفس الاسم ونفس الإحساس ذاته، سقوط حر من أعلى هاوية مجهولة الارتفاع ومعدومة القاع، إنها لوحة شقة باب والد نادر، ما هذا حقًا، كيف؟، وماذا يحدث؟ ألهذا الحد استبدل نادر حياتي بحياته؟ أسَلَبَ منّي كل ما يمثل كياني وتكويني؟ أم أن البوابة أخلّتْ بما اخترته؟

وقفت لدى باب الشقة أتمعّن أركانه كما لو كنت كلب حراسة عند مدخل أمني وقد اشتبهت أنفه في وجود مخالفة ما، ولكنها لم تكن مخالفة، بل جُرم مثبت وشهادة إثباته لوحة باب الشقة، أعدت ضبط بوصلة رحلتي، فمن الممكن أن يكـون الشوق لعائلتي قد اعتصر إحداثيـات عقلي وقـادني إلى ما رغبته الأمنيات المدفونة، فحدث خلـطًا أو لبسًا عبثًا، ولكن اللوحة ليس بها أي لبس أو خلط، حروفها تقتلع عيني من محجريها بمعنى الكلمة، فركّتُ وجهي ورأسي وكافة ملامحي لأجد تفسيرًا منطقيًا، لكن لم تظهر أي بادرة في الأفق سوى أن استكشف بذاتي ساكني شقة عائلتي التي تحمل لوحة رب

عائلة آخر.

قمتُ برن جرس باب الشقة وقد استسغته أنا وأذني لأنني أعرفه لأنه ببساطة يخصنا، طال الرنين كالعادة، فقام بفتح الباب أخي الصغير ثم تبعه بذات العادة الأخ الأصغر الآخر، وقفا متلاحمين كعهدهم حينما يطلّ علينا زائر، ونظرا لي نظرة استطلاع عن الطارق ثم قالا بصوت مُتّحِد....

والدي!

زائر يا أبي.

فغَرَ فاهي واتسعت عيني وانتابت أذني صفيرًا حادًا غير صفير بوابة النمسا، لكنه انعكاس لخواء عقلي لأنهم لم يتعرفا عليّ، فقمت بلصق وجهي في لوحة اسم الوالد لعلّها تعكس ملامحي لربما أجد نفسي في هيئة غير كمـال، وللأسف وجدتني أنا.

أعادا النداء بصوت أعلى....

يا والدي!

إنه زائر يا أبي.

لم يجبهم أحد فقاما بغلق الباب بشدة في وجهي، فتهللت أساريري لربما تكون دعابة ولكنها للأمانة ستكون الإجابة النموذجية للسماجة إن كانت حقًا، انتظرت ليفتحا الباب مجددًا ويرتميا بين أحضاني، انتظرت ثم انتظرت، ولكن لا شيء.

حتى بدت بارقة قريبة وانفتح الباب أخيرًا وإذ بي أجد أخي الأكبر هو الفاتح، وقال في ترحاب...

أهلًا أستاذ كمال، تفضل بالدخول.

تعطلت خطواتي حالها حال كلماتي، كما تعطلـتْ أفكاري، هل أدخل؟ أم أعتذر وأختفي كاختفاء الظبي من ميدان السباع، لكن أخي لم يمهل لاختياراتي أن تطفو فوق لساني، وقال مُلحًّا....

تفضل بالدخول، حللتَ أهلًا ونزلتَ سهلًا.

دخلتُ وأنا أسكب بصري في كل ركن من أركان الشقة التي أعلمها ولكنها لا تعرفني، أحفظها وتجهلني، أراقب جدرانها بقبول وترفضني، جلست واجمًا على مقعد صالون أعهده، وواجهني بالجلسة أخي الكبير، حبيبي، هو بعينه والتي تعلوها ندبته، تلك الندبة التي عايشت واقعتها بنفسي.

قاطع وجوم أفكاري وملامحي صوت أخي سائلًا....

أليس من المفترض أن تكون مع نادر وباقي الفريق بالأقصر؟

أجبت باسمًا....

نعم، نعم، لقد جئتُ في أمرٍ ما وسأعود على الفور.

سأل بود....

كيف حال العمل هناك؟ وكيف حالكم بالأقصر؟

قلت بذات الابتسامة المصطنعة وعيني تدور بين جنبات الشقة ولا يمنعني من الغوص بها سوى أبواب غرفها المغلقة....

كل شيء على ما يرام.

قال أخي بذات الود وببشاشة...

هل تفضل احتساء نفس مشروبـك الغـريب الذي تتناوله دومًا عند زيارتك لنـا، أم ستتناول غيره؟

انتفض قلبي من كلمته، وتوجهتُ إليه بكل جوارحي دون عيني فقط بعد أن توقفتُ عن تفقد الشقة بنظراتي الثاقبة والتي تسمّرتْ لفترة لدى برواز به صورة لأشخاص ظننتهم دومًا أنهم عائلتي، صورة تضمهم جميعًا بمن فيهم نادر كأحد أفرادها، فسألتُ في استفسار ظاهره الابتسام وباطنه الْعَجَبُ....

ومتى كانت أخر زيارة؟

قال ببساطة...

في حفلة شرف المأمورية، حيث حضر جميع المشاركين بهـا، ومن ثـمّ بدأت مراسم التحضير لها على حد علمي.

انتبه أخي لبحثي عن موضع تلك الزيارة بين ذكرياتي وقال بنيّة مساعدتي على استحضارها....

أتتذكر؟، لقد كانت أمسية جميلة حقًا.

سكتَ قليلًا ثم سأل بابتسامة من شأنها أن ترسم الابتسامة على وجهي بدورها....

أليس كذلك؟

أجبتُ قائلًا بتشتت حقيقي....

بالتأكيد، يالها من أمسية رائعة.

انتبه أخي لنفاد الكلمات في فمي كما انتبه لجلستي المتوترة غير الثابتة، ولي

من الأسباب المئات، أولها هو ذاته، فسألَ مرتابًا...

أهناك خطبًا ما؟، هل نادر بخير؟

عاجلته بالرد سريعًا لطمأنته....

لا لا، لا تقلق، إن كل شيء على ما يرام، لقد كنت بالقاهرة لمعاينة أمر ما خاص بالعمل بالجوار، فساقتني قدمي إلى هنا، كما أن نادرًا قد كلّفني بذلك، وأكد.

ابتسم أخي وقال....

كلّفك؟ ليس تكليفًا يا كمال، إنما تسمى توصية أو طلب، على العموم سأقوم بتوصية والدتي بإعداد مشروبك، وأظن أنها تسمعنا الآن.

قلتُ فرحًا....

حقًا؟، حقًا؟، والدتي موجودة؟ أقصد والدتك؟

قال ضاحكًا....

نعم، سأسألها أن توافينا حالًا هي ومشروبك.

قام أخي وتوجه لغرفة من الغرف والتي على ما يبدو بها أمه، وعند اختفاؤه هلَّ أبي استهلالًا ما أروعه، وكان بمثابة يد العون الأخيرة لفك طلاسم تلك الدعابة المُعقدة، وقال بود لافت...

حللت أهلًا ووطئت سهلًا، أهلًا بك بين إخوتك، سعداء بوجودك معنا، كيف حالك؟ وكيف حال باقي الفريق يا بطل؟ وكيف حال نادر؟، هل كل شيء على ما يرام؟

قلتُ في شوق ينقصه أن أخفي رغبتي في احتضانه...

بخير، كل شيء على أكمل وجه، لقد كنتُ بالجوار وقد وصّاني نادر بالزيارة ووفّيتُ.

قال أستاذ أسعد بضيافة بالغة....

نود أن تتكرر زياراتك يا بني، فقد لمسنا بك حُسن الرفقة ودماثة الخلق، وشعرنا بأنك أحد أفراد عائلتنا حقاَ، وهذا يفسر سرعة انخراطك بيننا بيسر رائع، خاصة في تلك الأمسية الأسرية الأخيرة التي قضيتها برفقتنا.

ابتسمت واقتربت منه بشدة وملت على أحد أذنيه كأنني أُلقّنه كلمة سر ما لتسليم شحنة محظورة وقلتُ بصوت خافت....

أتؤمن بكيمياء الأفكار؟

ضحك أبي بغزارة حتى بدا سنّه وسأل في دعابة شيّقة....

أَوَلَها؟

ضحكتُ أمامه بالمقابل وسألتُ في تردد....

هل تتذكر تلك المحادثة بيننا؟

قال الأستاذ أسعد في أبوة عميقة....

بالتأكيد، لقد كانت في إحدى زيارتك لنا هنا، وكنت تشعر وقتها بالتخبط ودار بيننا هذا الحديث، ومن الجميل أن الشباب يتذكر المحادثات مع الأجيال التي تكبره، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على النضج، بني.

سألته في أدب جم أن يعيد إجابته حيث قلت....

هل لحضرتك أن تعيد الإجابة عليّ لاحتياجي إليها حقًا!

أجاب الأستاذ أسعد بعنفوان خبرات السنوات المتراكمة وبلمسة مميزة من الحكمة....

بالطبع، فالأفكار كالعناصر، لها نواة ومجال، ولها تفاعل أيضًا، فيمكن لفكرة خاملة بداخلك أن تتحد وتتفاعل مع فكرة عابرة بخارجك لتكون فكرة ناجحة وجديدة تمامًا. فكم مرة تغرغرت عيناك بالدموع عند سماع مقطوعة موسيقية، وكم مرة نجح الملتزم الذي بداخلك في إزاحة الفاجر الذي يشاركه الموقع عند سماع آية أو عظة، وكم مرة شعرتَ ببراح الطريق عند سماع تجارب الآخرين الناجحة. فاعلم أيها العنصر أن بداخلنا نار قد تحرق وقد تنير، قد تؤذي وقد تطيب وما علينا سوى حُسن التوجيه عن طريق جودة الأفكار.

على الرغم من أن إجابته منحوتة بدقة متناهية داخل مخزوني بل وتُشكّل دعامة أساسية في جدار مرجعيتي، إلّا أنني أدركتُ وقتها بأن تلك اللمحة ما هي إلا لمحة مسروقة من مخزون أناس آخرين ودخلتْ إلى تاريخي مدخل غير شرعي، لكنني لا أملك صلاحية القبض على مهرّبها لجهلي لما يحدث، ونتيجة لهذا الجهل البالغ تعالى صدري صعودًا وهبوطًا جراء الماراثون الذي قطعته توًا بالرغم من عدم تحريك قدمي قيد أنملة وتصبب جبيني بقطرات ناتجة عن ذلك الضياع.

توقف الوقت للحظات، وعلى قدر الكلمات التي يحصرها عقلي لم يستطع العصب المسئول عن الكلام في الدماغ من استحضار أي منها، ولا حتى حرفًا، وما أنقذني حقًا هو ظهور أمي حاملة مشروبي في إطلالة، ويالها من إطلالة، ملكة في خطوتها، أميرة في نظرتها، تُحيي طبول وَقْعْ خطواتها معاني الحب، ويقرع صدى نطقها أجراس العطاء، حيث قالت بترحاب

نجح في إذابة ما تعطل في دماغي...

كيف حالك يا ولدي؟ وكيف حال نادر؟

أجبتُ وقد تأكدتُ بأنني مجرد ضيف.

بخير يا أمي، كل شيء على ما يرام.

سألتْ بحب...

لما الغياب يا ولدي؟

قلتُ متلعثماً...

ظروف العمل يا أمي.

قالت بنفس الحب....

أيمنعكَ عملك عن وصل من أحبكَ؟

أجبتها بابتسامة صادقة وتملئني محبتها.....

لا، لا يجب أن يمنعني يا أمي.

قالت بمحبة وقد اجتمعت حولها عناصر الأسرة....

حفظكم الله، وسدد خطاكم.

ابتسمت وعيني تدور في المكان وسألتُ باحثًا....

أين صغير العائلة؟، أين هو ذلك المشاكس؟

أجابت الأم في استغراب باسم....

لا يوجد مشاكس آخر، فالقوات المسلحة تعاني من التعبئة القصوى ولا

تحتمل عنصرًا إضافيًا.

أثْبتَ يقين إجابتها خراب ما ظننته ثابتًا، وغدا آيل للسقوط لا محالة، فنال الصمت من باطني وبدا على ظاهري أيضًا حتى دار حوار عائلي تدخّل به كل أطراف الجلسة، وانضم إلينا الصغار وتبادلنا الضحكات والأقوال، حتى تطرّقنا لتلك الأمسية سالفة الذكر التي حضرت بها كمدعو وليس كعضو بالعائلة، وتناولنا ما دار بها في جو من السمر والألفة، وتأكدتُ بأن معرفتي بواقعة ندبة شقيقي الأكبر أو بمعنى أصح شقيق نادر مصدرها تلك الليلة وقد تكون ليالي أخرى، وكذلك بعض الذكريات التي أعرفها وتتآلف مع وجداني ككمال، ولكنني لا أعرف لما التحمت بشريط حياتي، كل ما أعرفه وأتأكد منه بالوقت الحالي هو أن ود الجلسة ودفئها قطع خط التساؤلات أو أجلّه لحين أن أنتقل.

تناولتُ مشروبي الخاص الغريب مع الضحكات، وتشبّعت بجلسة كنت أحتاجها وأتوق إلى كل لحظة من مكوناتها، ولم يعد فارقًا مع كمال أكان عضوًا بالعائلة أم مجرد ضيفًا، وعلى الرغم من المتعة التي حزت عليها، لكنها لم تمنع اندهاشي من كوني غريبًا بين عائلتي، أو هكذا أظنها، حتى انتهت الجلسة بطلبي الدخول لدورة المياه وما أن اختليت بنفسي، استدعيت مراسم الرجوع على الفور فجاءت خاضعة.

انتقلت لأجد نفسي جالسًا بحديقة منزل النمسا ويقف أمامي السيد محمود البستاني، فالتقطني من المراسم وسأل في أبوة مفتقدها توًا وبلهجة أقصرية خالصة...

كيف حالك يا وليدي؟

نظرتُ له من تحت عيون مثقلة من أشعة الشمس على الرغم من كوننا

ليلًا، ولكنها تبدو أشعة الحقائق المتداخلة، تحجب عيني عن الرؤية وعقلي عن الفهم، فتداخل ما قبل الانتقال مع ما بعده، وما عدت من تلك الزيارة إلا بفشل خطة إيذاء عائلة نادر بنجـاح، وكيف الضرر ولهـم من قلبي مقام معلوم، فأجبته في تيه...

لا أعلم حقًا، سيدي.

حل الصمت برهة ثم أردفتُ...

أنا عالق على جسر من الـورق مُحَمّل على أعمدة من الورق أيضًا، تحته بحيرة من التماسيح ويعلوه سحابة من الطيور الجارحة.

لم يفهم السيد محمود البستاني عمق ما شرحته، وقال بأدب....

لقد لاحظتُ جلوسك وعبوسك في الحديقة منذ ما يزيد عن الساعتين، وأنت هكذا لا تحرك ساكنًا، فقررت أن أقدم إليك يد العون وأدلك على طريق الخروج مما أنت به، قد يكون خطرًا لكنه المنجى لا مفر.

لم أفهم عمق ما شرحه السيد محمود البستاني بالمقابل وسألتُ مستفسرًا...

ماذا تقصد؟

مد يده لأرافقه الوقوف وقال شارحًا...

ما أنت به لن يخرج عما ذهب إليه فكري.

اقتربت منه في تؤده وسألتُ وقد تملّكني الفضول...

وما هو إذن؟

قال وقد اعتصر قوله صمامات قلبي، ونجح في لمس منابـع قد جففتها من قبل....

المسّ.

إنه مسّ من الشيطان، ولم تسنح لي الفرصة لأخبرك من قبل أن أعراضك تلك لن تخرج عن ذلك، إنك ترى وتعيش أحداث لا يعايشها أحد غيرك، بل أنها تؤثر تأثيرًا مباشرًا على حياتك الحقيقية.

أجبته وفي مخيلتي ضياع عائلتي، أو ضياعي أنا منها، حيث قلتُ في إثارة....

وما قولك إذن في إنني على علاقة مباشرة بمن عرشه على الماء، وبيني وبينه اتفاقيات ومعاهدات، فأنا حقًا لا أبالي بأعراض أو غيرها، ولكنني أعاني من عدم ثبات الحقائق و....و.

امتنعت فجـأة عن السرد وقد أنارت كلمته "حياتك الحقيقة" جزءً معتمًا في إدراكي، وانتابني الصمت والوجوم للحظة ثم قبّلت جبينه قبلة ابن لأبوه وأسرعت إلى غرفتي مباشرة ولم أعقب، وأنا متأكد بأنني لم أترك خلفي سوى نظرة على وجهه تؤكد بأنني ممسوس، وقد أصابني الخرف نتيجة لهذا المسّ لا محالة.

رجعت إلى غرفتي وقد تغيرت المعطيات وتبدلت المقدمات، وباتٍ عليّ التأكد من حياتي الحقيقية إذن، فتشت عن تلك الأوراق التي كنت أُدونُ بها وثباتي فوجدتها، وكانت تلك هي نقطة البداية والتي أتفق بها مع ذاتي الحائرة، ثم بحثت في هاتفي عن صور كيان التي أرسلتها لي خلال رحلة من رحلاتي ووجدتها أيضًا، وكانت بمثابة التدعيم لخط سير أفكاري، ثم بحثت عن رقم هاتف أمي أو أبي، أو أي صورة تجمٍعني بهم فلم أجد ما يفيد وجودهم في هاتفي، فأين هم من حياتي، من كنت أُحادث إذن عبر هاتفي؟

انغرس سيف الوجع في خاصرتي لأن في هذا تأكيد على عدم وجودهم في حياتي الحقيقية، وياليتها كانت أوراقي أو صور كيان هم الطرف المفقود في معادلة ضياعي تلك وليس عائلتي، فقد كانت كلمات السيد محمود البستاني مرشدة دالة على أن الخلط في عقلي لا غيره، فها أنا ذا بكامل وعيي تحيطني أشياء وتتساقط مني أشياء، وقد يكون لفص صدغي يد في هذا التساقط، ولفض النزاع هذا، يستلزم اجتماعًا فوريًا مع ساكن الظلمة، ولكن كيف يتم التحضير له، وهل متاح لي أن أدخل عليه من تلقاء رغبتي، وإن دخلت فهل سيكون مُرحّبًا بي أم سيتم إدراجي في بهو صخري خاوي على عروشه.

طال الفكر ومعه المعاناة، وقد سرق من الوقت وقتًا لم أشعر به، وما أخرجني من إحباط ما أعانيه هو طرق باب غرفتي بنغمة أعهدها، فكان صالح ومعه جرعة دواء حان وقتها، وقد دخل الصباح على حين غرة مني دون أن أنتبه، كما دخل صالح بالتمام قائلًا...

جيد، كنتُ أظنكَ مستغرقًا بالنوم، وكنت أحمل هم إيقاظك لتناول تلك الجرعة، هل كانت نومتك هنيئة؟

أجبتُ وقد علت شفتاي ابتسامة سخرية مكسورة...

هنيئة؟! فجفني لم يهدأ منذ البارحة.

قال صالح باستبشار...

حسنًا، فتلك الجرعة بها قرص سيساعدك على النوم المبرح.

سألتُ بتردد....

أتتذكر أمسية منزل نادر؟

أجاب وقد ارتسمت على وجهه ملامح السعادة...

أي أمسية تقصد بالتحديد؟

سألتُ وقد بدا الاندهاش على سؤالي....

أهي متعددة، أقصد هل تكررت أكثر من مرة؟

قال صالح بوضوح....

عائلة نادر أصحاب كرم، ولم تنقطع دعواتهم لنا مطلقًا، لكن للأمانة فإن أمتعها هي تلك الأمسية الأخيرة قبل سفرنا إلى النمسا.

سألتُ باستعجال....

وهل تذكرها بالتفصيل؟

أجاب بسعادة بالغة....

بالطبع أذكرها، يالها من أمسية رائعة.

سألتُ وأملي سحب تفاصيل أكثر....

صف لي الحضور؟

قال صالح شارحًا، وقد تداخل مع شرحه بعضًا من الاندهاش نتيجة لسؤالي الذي بدا في غير توقيته....

كنا جميعًا بالحفلة، فقد كانت قبل سفرنا إلى النمسا، وذلك بعد الاجتماع المعقود بالجريدة لشرح تفاصيل تلك المأمورية.

سكت ثم أضاف مفصلًا....

كانت خلال أيام التحضير الثلاثة السابقة للمهمة، وكان كل المدعوين

ذوي أرواح لطيفة.

سألت في عصبية...

قل لي يا صالح، من هم الحضور؟

عدّد صالح لي الحضور في استغراب متزايد....

أنت، وكيان وأنا ونادر، كما كانت السيدة زوجة رئيس التحرير موجودة نيابة عن سيادته، وكانت عائلة نادر أهل بصدق لكل معان الضيافة الرائعة كعادتهم.

سألتُ وقد أرهقني قوله فجلست....

قُصَّ لي أحداثها؟

قال صالح وهو يعطيني الجرعة...

كانت طبيعية ومألوفة يا كمال، تبادلنا الضحكات، وكان القسم الأكبر من الضحكات على مشروبك وغرابته ورائحته المميزة والتي لا تخطئها أنف، وكذلك على واقعة ندبة شقيق نادر الأكبر، والأجمل أنهم أطلعونا على صورهم خلال شبابهم، وكيف كان نادر يبدو كالأبله في صغره.

سألتُ ويرتدي سؤالي دموعًا خفية....

وماذا تعرف عن عائلتي؟

أجاب صالح بظُرفٍ غير مقبول وكأن الجواب على طرف عقله....

لا شيء سوى أنك اخترت أن تعيش بمفردك في تلك الكومة التي تدعي أنها شقة، وهذا ما صرّحت به لي عند زيارتي لك قبل حضور اجتماع انطلاق المهمة الذي تم بالجريدة، كما عرفت من خلال حديثك عنهم بأنهم لا يختلفون

تمييزًا ودفئًا عن عائلة نادر، ولذلك كنت أطمع في رؤيتهم.

سألت صالح سؤالًا وكنت متأكدًا من وضعه لي في خانة الهذيان المبرح الخارج عن الحد وقلت....

ما هو اسمي إذن؟

تأفف صالح لظنّه أني أستخف به وقال....

أرجوك يا كمال، هذا يكفي.

أقسمت عليه بإلحاح أن يجيب حيث قال حتى يجاري هذياني حتى لحظة تناولي الجرعة والتي فيها منامي....

منذ قدومك وأنت كمال، عرّفت نفسك على أنك كمال، ومع مرور الأيام عرفنا اسمك تلقائيًا منك، كمال أسعد.

ثم أنهى كلامه قائلًا....

هذا كل ما نعرفه عنك.

اتسعت عيناي من إجابات صالح، ولم أكترث بما ستخلّف أسئلتي من انطباع لديه أو لدى غيره، لأن كلامه يحمل معنى خطير من أن هناك أحداثًا تتساقط من ذاكرتي حتى وأنا دون البوابة، فأمسكتُ الجرعة من يد صالح كمتعاطي محترف يريد أن يهرب من هول الواقع إلى....

في الواقع لم أجد كلمة قد تبتعد عن معنى الهول أيضًا، فالواقع هول والنوم هول، ولكن أبغض الأهوال في الحياة هو الواقع المؤلم، الواقع الذي يفرض عليك معايير خالية السند، فكانت الجرعة مطلوبة حقًا، تناولتها وتسطّحت السرير عسى أن أجد في فقدان الوعي وعيًا جديدًا يفسر ما أنا

غارق به، فغرقتُ في النوم.

***

(١٣)

ممتطي جـواد حالك السواد لجامـه شعرهُ الذي أقبض عليه بيُسراي، أقف به فوق صخرة ملساء مُقاتلًا لا يتبعني جُنـد، قابضًا بيميني على سيف فولاذي أمام صدري بلا غمد، مرتديًا عباءة سوداء بغطاء رأس مصدره ذات العباءة، مكتمل الطاقة والقوة لأعلى نسب، تلمع عيناي بدمع الرغبة، راصدًا طريقًا صخريًا مخيفًا تترامى على جانبيه زنْزَانات تُقاطع قضبانها أيـادي لأرواح أسيرة ترجو إطـلاق السراح، يعلَـو على صرير أنفاسهـا أصوات ترانيم خفيّة بلغات متداخلة، ويدفعني نداء داخلي مجهول لتحرير ذوي الأيادي، وأدرك أن التحرير يستلزم قتالًا، كما أدرك أنه لا مفر لتلك الأرواح سواي.

وقد وجدت حقًا ما أدركته، فاصطف عبر الطريق الذي يحوي الزنْزَانات جنود ملعونين معلومي الهوية حد القرابة حلمًا وواقعًا، تتزايد أعدادَهم كما تتعالى أطوالهم، يقودهم كيان مجهول تنسدل فوقه ظلمة كشلال مخيف، تبعه حين تقدم من خلف الاصطفاف حتى أصبح في الطليعة، إنه ساكن الظلمة، الطـرف الآخر من الشراكـة ذات البنود، فأنا إن غفلت عـن نفسي فلن أغفـل مطلقًا عنه وعن تلك الليلة، الليلة التي تأكدتُ فيها من تفردي وما كانت تلك الطليعة سوى سرية بين سرايا عدة، فجاء أمر الهجوم من تحت شلال الظلمة، آمرًا جنوده ذوي الهيئات المرعبة بالاجتياح، وفي المقابل صدر أمر رد الهجوم من النداء الذي يكمن داخلي، فَالْتَقَى جمعهم مع سيفي وأنا على صهوة جوادي أمده بالطاقة ويمدني بالرشاقة، أضرب عنق هذا وأنحر

رقبة ذاك، تتطاير الأشلاء وتتناثر القطع وتنفجـر الدمـاء، يتناقص عددهم ولا تتناقص قوتي، أقاتل ونصب عيني ساكني الزِنْزَانات، فتحريرهم هو المراد.

وما أن كفّة التحرير كادت تميل لذو القوة، إلا وجاء الأمر بإرسال سريتين آخرتين للدعم، وما كان ذلك الإمداد إلّا خطوة استباقية لدك حصون التقدم، فازداد العدد من حولي، وفقد السلاح الفولاذي في يدي صقله وبات يحتاج إلى إعادة الشحذ لمجابهة الأعداد الغفيرة المتزايدة، ولم تسعفني القوة، وما نفعهـا دون أداة، وسقط غطـاء الرأس جراء الضربات متعـددة المصادر وهوت قائمتي لتصطدم بصخرة من صخور ميدان القتال، فسال الدم وارتج العقل داخل الرأس وبدأ مراد تحرير الأرواح في التلاشي شيئًا فشيئًا، حتى اختفى تمامًا مع فقدان الوعي الذي حل بالضرورة.

استيقظت ولا آبـه بشيء سـوى الألـم الذي أحـل برأسي من وقع الاصطدام بالصخرة اللعينة، تفقدت مركز الألم بيدي فلم أجد له أثر على الرغم من وجود تأثيره، وضعتُ قدمي على الأرض فتذكرت جوادي الصارخ من الزلة التي أَلَمَّتْ بنا، كما تذكرتُ ساكن الظلمة ودوره في الحرب التي شنّها بأمره على جبهتي، ولما تندلع حرب بين طرفي شراكة يجمعهما التوافق مع الاقتناع!

ياله من حلم ليس في وقته بالمرة...

قلتها وقد انتبهت لتحركات غريبة وأصوات مرتفعة بالمنزل، فقمت لأستطلع ما يجري وهممت بالنزول وإذ بي أجد ما يشبه التجمهر في ساحة المنزل بالدور الأرضي ويتوسط ذلك التجمع رجل يرتدي زيًا عسكريًا برتبة عقيد، علمتُ من السيد حجاج حين قابلته بمجرد نزولي أنه رئيس

نقطة شرطة النمسا، ثم توجهت سريعًا إلى صالح لأستوضح سبب وجود الشرطـة بهذا الشكل المتوتر، لكنه كان أكثر توترًا من الجميع فسألته وقبـل أن يجيب أشار لي صاحب الرتبة أن أقترب منه وسألني بحدة مؤدبة....

من أنت؟ ما اسمك؟

وهويتك بعد إذن حضرتك؟

تذكرتُ على الفور بأنني لم أمتلك هوية يومًا ما، ولكنني لم أستطع مصارحته بهذا الاكتشاف المضاف إلى مصائبي المتعددة، فتأخر الرد على الرغم من استعجاله لي لولا تدخل صالح قائلًا....

هذا كمال، صحفي زميل لنا في المهمة وكذلك في نفس مكان الإقامة، وقد كان تحت تأثير العلاج حينما وقعت الواقعة.

نظرت إلى صالح من خلف ملامح خائفة مرتابة ثم سألتُ....

أي واقعة يا صالح؟ ماذا حدث؟

تطوع السيد رئيس نقطة شرطة النمسا بالرد عن السؤال وقال شارحًا وكأن زمام الأمور أصبح في يده من الآن فصاعدًا....

لقد اختفى زميلكم الأستاذ نادر أسعد منذ منتصف ليلة أمس، وحتى الآن لم يستدل عليه وكذلك لم يجب على أي مكالمات، كما أن هاتفه أصبح خارج نطاق التغطية منذ قليل.

لمعت عيني من حلاوة التدابير التي صُمّمت خصيصًا لإبعاد نادر عن طريقي بالنمسا، ثم أخفيتها سريعًا خلف ملامـح دهشة واجمة مختلسة وقلت وكل قولي زيف....

كيف هذا؟

أنا متأكد من وجوده بالمنزل ليلة أمس، فقد كان بغرفته، أنا واثق من ذلك يا سيدي.

اقترب مني سيادة العميد بعد تبادل النظرات مع الوقوف وسأل بنبرة المحققين المتمرسين في المهنة وبصوت أقرب إلى الاتهام....

ومن أين لك هذه الثقـة وأنت تحت تأثير العلاج كما أشار زميلك بالمهمة وشريكك بمحل الإقامة؟

خطر في عقلي أن أستحضر مراسـم الانتقال حتى أهرب من الإجابة، وكذلك من هذا المأزق الذي زرعتُ نفسي به، ولكنني تذكـرت بأنني لم انتقل من الأساس وإنما أنا أحيا في قلب الواقع المؤلم، وتعطّلت الحروف في جوفي مجددًا لولا تدخل صالح المنقذ المتكرر حيث أجاب....

لقد كان نادر برفقتي في غرفتنا بالفعل ليلة أمس، حيث إننا رفقاء غرفة واحدة، تبادلنا أطراف الحديث، وكان يمانعه النـوم وقد قرر أخذ جولة بحديقة المنزل أو في تخوم النمسا، فحاولت منعه من الخروج من المنزل باعتبار أن الجولات الليلة غير مأمونة في تلك الناحية لكنـه أصر على ما يبدو، وقـد توجهت لدورة المياه كي أقضي حاجتي، عـدت منها ولـم آبه بمكانه واستكملت نـومي حتى الصباح موعد جرعة كمال، تناولها وتحادثنا قليلًا، وحين رجعت من غرفة كمال لم أجده بغرفتنا ولا بدورة المياه حيث ظننت، فتشت عنه في أركان المنزل فانتابني القلق لنفس النتيجة، وقد قمنا أنا والسيدان حجاج القائم على المنزل ومحمود البستاني بتوسيع أعمال التفتيش حتى أصابنا الفشل، ومع اقتراب الغروب كان لابد من الاستعانة بحضراتكـم لأن الأمر بات مريبًا حد الفزع.

التقط السيد رئيس شرطة النمسا أقوال صالح والتي تنفي أي إتهام قد يتم توجيهه لأي أحد من أهل المنزل، ووجه سؤاله إلى السيد محمود البستاني حيث قال....

متى أخر مرة رأيتَ أستاذ نادر؟

فكر السيد محمود البستاني في تفاصيل الليلة الفائتة وهمّ بالإجابة وما منعه من ذلك دخول شاب إلى ساحة المنزل لو رأته الفتيات لاخترن أن يكون تجنيدهن إجباريًا حتى يخدمن تحت إمرته، وكأن ملامحه تم نحتها بإزميل الثقة ومفاتح الحُسن، نظر نظرة حادة كنظرة النسر الذي يرقد فوق كتفه، وقال بعد أن قام بمسح ملامحنا بنظرة واحدة....

عمتم مساءًا جميعًا.

أوامرك سيدي المأمور.

رد عليه المأمور وكأنه يعلم قدره حق العلم وقال....

لقد جاءنا بلاغ من منزل السيد كمال العمّاري المرشح المحتمل عن دائرتنا عن اختفاء أحد رجاله في ظروف مُريبة، ومن قام بالإبلاغ هو أستاذ صالح، أحد أفراد حملته الانتخابية.

سأل سيادة الرائد سؤالًا خارج صندوق أفكارنا وقام بتوجيهه إلى صالح بما أنه من قام بالإبلاغ....

أين سيادة المرشح؟ أليس من المفترض أن يكون هو المُبلّغ عن واقعة الاختفاء تلك؟ أو على أقل تقدير أن يكون على دراية بها.

نظر كل من في الساحة إلى صالح، حيث أرادوا حقًا معرفة إجابة هذا

السؤال وأنا على رأسهم للأمانة، فقال صالح وكان قوله كالصاعقة....

هذه يا سيادة الرائد المصيبة الأخرى.

انتبهنا جميعًا لما سيخرج من فاه صالح حيث سكت قليلًا ثم أردف ونظره موجهًا إليّ....

لقد حاولت التوصل إلى السيد رئيس التحرير ولم أنجح، ثم قررت إبلاغ السيدة زوجته في فندق الكرنك بالأقصر محل نزولها عساها أن تصل له أسرع مني، وقد علمتُ من موظف الاستقبال بأن السيدة زوجة رئيس التحرير وكيان قد أصابتهن حالة تسمم من الدرجة الخطيرة وهن الآن بمستشفى إسنا التخصصي.

سكت الجميع عدا السيد رئيس نقطة شرطة النمسا حيث قال ويشوب قوله الثورة....

كيف يحدث هذا لأسرة وفريق السيد كمال العماري دون أن يتم تدارك الأمر أو أن يكون سيادته على علم به من الأساس.

فركَ ذقنه قليلًا ثم وجّه قوله لسيادة الرائد آمرًا....

ستقود عملية البحث عن أستاذ نادر في النمسا بنفسك، كما ستتولى متابعة حالة السيدة زوجته الصحية ومن معها، وإذا تتطلّب الأمر إرسال إشارة إلى السيد وزير الصحة شخصيًا لتكون المتابعة على أعلى مستوى، كما أننا سنجد طريقة للتوصل للسيد كمال العماري بالقاهرة حتى ولو أبلغنا السيد وزير الداخلية شخصيًا.

زادت ثورة سيادة العميد موجهًا كلامه للطاقم العسكري المرافق له من جنود وأمناء وقال في صرامة....

الأمـر لا يحتمل التأجيـل أو التواني يا حضرات، إنه كمال العمّـاري يا سادة، وإن نال شيئًا ما من فريقه أو عائلته دون اتخاذ الإجراءات اللازمة سيكون رد الفعل غير متوقع بالمرة.

ثم انخفضت حدة حديثه موجهًا كلامه لسيادة الرائد....

لن نجد أبعد من الأقصر مكانًا نخدم فيه.

استجاب سيادة الرائد لأوامر السيد رئيس نقطة شرطة النمسا استجابة فطرية وأعطى الأوامر المباشرة للطاقم التابع باستجواب كافة الموجودين بالمنزل وتفريغ أقواهم ومقارنتها بأقوال المارة حول المنزل خلال الأربع وعشرين ساعـة الأخيرة من وقـت الاختفاء حتى حينه للوقـوف على ملابسات الواقعة، كما أكد على ضرورة اقتياد أي شخـص قد تدور حوله دائرة الشبهات إلى نقطة شرطة النمسا على الفور، وإصدار إشارة لكافة المستشفيات أو نقـاط الشرطة في المراكـز المحيطة بضرورة الإبلاغ في حالة استقبال أي شخص تتشابه أوصافه مع المدعو.

أما بشأن حالة السيدة زوجة رئيس التحرير وكيان فقد اقترح مبدئيًا استجوابِ طاقم المطبخ بالفندق عسى أن يتـوصل إلى سبب التسمم ونـوع الطعـام المُقدم وأسـماء العاملين في الوردية وقت وقوع الحادث، للتأكد من عدم وجود شبهة جنائية أم أنه مجرد حادث عابر؟

انتهت التعليمات العسكرية الصادرة وانخرط كل من له دور في مساره لتنفيذ ما هو منوط به كخلية نحل، هذا بالنسبة للحادث، أما بخصوص الحادث معي فعدِّدْ ولا حرج، ضياع عائلتي، ما يحدث معي بالنمسا، عدم وجود هوية، تسمم كيـان، وجـود الشرطة في كل مكان، انقلاب حياتي رأسًا على رأس، لأني لا أثق أين يطأ عقبي، وكل هذه الأحداث تدور برأسي

الذي لا يزال موجوعًا من الحلم الذي قمتُ منه توًا، ولا أجد أي ترتيبًا منطقيًا لها وأجـد استحالة المضي قـدمًا في ذلك التيه، ويتردد داخلي سؤالًا جديدًا جوابه يحتاج إلى سنين من الجلسات، أكان لحضوري كل هذا الغياب، وإن كنت غائبًا بالفعل فأين إذن محيط حضوري؟

انزوى صالح بي جانبًا بعد انتهاء هذا الزحام وأخذ الأقوال في محاضر رسمية "لأننا بالطبع لن نذهب لنقطة الشرطـة احترامًا لقدر كمال العماري"، والاتفاق على أن نكون قيدٍ التواصل في حالة التوصل لأي مستجدات من كلا الطرفين، وسألني سؤالًا في محله....

قل لي يا كمال، من أين لك كل هذه الثقة عن تواجد نادر بغرفته على الرغم من وجودك بغرفتك تحت تأثير العلاج، وأنا أعلم أن تأثيره قويًا؟

سمعت سؤاله وأنا أراقب خروج آخر قدم عسكرية من باب المنزل ثم استدرت تجاهه وأمسكته من كلا ذراعيه وأجبت على سؤاله بسؤال....

ماذا تعرف عني يا صالح؟

ارتسمت ملامح الدهشة على وجه صالح وله الحق بالطبع، لأن سؤالي لا يواكب الوقائع الدائرة، وقال....

لا أفهم، ماذا تقصد يا كمال؟

أعدتُ عليه السؤال بشكل أكثر حدة ووضوحًا...

ماذا تعرف عني يا صالح، ومتى بدأت معرفتك بي؟

لم أنتظر إجابته وأردفت شارحًا....

حين طلب مني سيادة الضابط هويتي، أدركتُ بأنني لم أمتلك واحدة

قط، كما أن هناك بعض الأحداث التي تحدث معي تظنوها أنتم مرض وهي في الحقيقة أبعد من ذلك، أرجوك أجبني، متى بدأت معرفتك بي؟

قال صالح مجتازًا الأحداث والاستفسارات الصادرة عن حديثي، وانتقل إلى الهوية ببساطة....

قد تكون فقدتها في ركنٍ ما أو خلف قطعة أثاث ربما.

قلتُ بإصرار صارخ....

أنا لم أقصد فقدها، بل أنا لم أمتلك واحدة مسبقًا قط.

تأفّف صالح من كلماتي وقال متذمرًا....

أرجوك يا كمال، الوضع لا يتحمل تلك الترهات، فأنا محاصر هنا في الأقصر بمفردي بين مرضك واختفاء نادر وبين تسمم السيدات وعدم قدرتنا على التوصل إلى السيد رئيس التحرير.

قلتُ مطمئنًا إياه بنبرة صداقة أتمناها ألّا تكون كأيامي الزائفة...

أرجوك يا صالح، كفاك ثرثرة، لا تقلق بخصوص نادر، فأنا قادر على اكتشاف مكان اختفائه، وكذلك لا تقلق بشأن واقعة التسمم، سيكون كل شيء على ما يرام، لا تقلق.

نظر لي صالح داخل عيني وقد لمس صدق قولي، وسكتَ برهة ثم قال وينتاب قوله التردد....

كيف ستكتشف مكان نادر إذن؟ ألك يدًا في هذا؟

أجبته وأنا أستعطفه أن يعود لإجابة سؤالي الهام....

لا تقلق، سيكون كل شيء على ما يرام، فأنا الأن لا أكترث لأي أمر سوى

معرفة "ماذا تعرف عني يا صالح، ومتى بدأت معرفتك بي؟".

قال صالح وحاله كمن يبشر شخص بوفاة والده...

الابن المدلل، هذه كنيتك بالجريدة، تم تعيينك بلا مسوغات تعيين وبأمر شخصي من السيد رئيس التحرير، كما أنك الوحيد في الجريدة الذي لا يندرج ضمن لائحة الجزاءات أو الحضور أو الانصراف، كنا جميعًا نرتاب منك منذ مجيئك، فنحن لا نعلم حقًا ما هو الهدف من وجودك، فإمكاناتك لا تسمح "اعذرني" لأن تكون عضوًا في الجريدة، ولكننا في فترة قصيرة جدًا لمسنا بك صفاء نفسك وعدم ضرر وجودك بيننا، ونشأت بيننا صداقة سريعة وها نحن ذا في مهمة واحدة.

سألتُ وكُلي طمع في استخلاص ما هو أعمق....

متى انضممت إلى الجريدة بالتحديد؟

أجاب صالح سريعًا....

قبل تلك المهمة بفترة ليست بالكبيرة ولا بالقليلة، ولكنها مجرد أسابيع على ما أذكر، أسابيع فقط لا غير.

سألتُ وأكاد يغشى عليّ من إجابته....

وأين أقيم؟، أين أسكن؟، أين أعيش؟

أجاب صالح وقد بدأ يدق الملل ردوده....

بمفردك، تعيش بمفردك في شقة كان لي شرف زيارتك بها، ولكنها للأمانة لا تليق بالابن المدلل للجريدة.

أنهى صالح إجاباته وقد ظنّ بأنه نجح في إخماد ثورة الأسئلة التي

تأجّجت داخل الرأس الممتلئ عن أخره، لكنه لا يعلم بأنه بذلك قد أطفأ النار بالسُّولار، وبدا تأثير هذا الاشتعال على الخزي الذي طفى على سطح وجهي، فأخرجتُ زفيرًا واجبًا حتى لا تنفجر خلايا مخي، وفي نهايته سأل صالح ببراءة....

كيف ستكشف مكان اختفاء نادر إذن؟

نظرتُ له نظرة شكر واجبة لتوقيت سؤاله لأنه أحضرني من حافة الانهيار حرفيًا، وقد أعاد لي الحياة وأعطاني فرصة للنطق الذي كان على وشك الفقدان النهائي، وقلت بنبرة يكسوها الإجهاد....

لا تقلق، سيكون كل شيء على ما يرام.

نظر لي صالح نظرة مفادها أن الفاسق نجح في نيل مراده من القاصر بناب عليه آثار دماء الواقعة، ثم ألقاها في مفترق طرق ضبابية، فهبّ لرد ما أصابه، لكنه تذكّر سريعًا الوضع الذي يبدو على تفاصيل ملامحي، وقال بصوت أبوي أحتاجه بالفعل....

لا عليك، الأهم هو الالتزام بموعد جرعتك المسائية، فنحن لا نريد أن نخسر كافة المعارك على كل الجبهات، عليك تناولها الآن، وأنا سأكون بمستشفى إسنا التخصصي لمتابعة حالة السيدات هناك وسأطمئنك هاتفيًا فور اطمئناني، وسوف أعود لاحقًا إلى المنزل للراحة الإلزامية، لأنني أحتاج إليها أكثر من أي وقت مضى.

وافقت من بابين، الأول الإرهاق الذي غشّى تاريخي العائلي والشخصي، والثاني نيتي بالانفراد بالبوابة ليلًا كي أستقصى أمر تسمم كيان والسيدة أريام أو استقصاء أمر مخزون الذكريات الخاص به والذي أصابه الثقب

فأفـرغ كثيرًا مما فيـه، وتركـت صالح لخططه عسى أن تكـون زيارتـه للمستشفى مفيدة، وتناولت الجرعة المسائية واتجهت لغرفتي رافضًا أي عرض عشاء مقدم من السيد حجـاج وولجت كمُسن أثقلته الهموم وافترشت جثتي السرير ونالت الجرعة مفعولها منها ونمت.

وإذ بي أجد نفسي فجـأة بمطار القاهرة الدولي قاعة كبار الزوار، أرتدي ملابس فاخرة يعلوها معطف أكثر فخرًا، فتفقدتُ جيوبه والتقطت مفاتيح من جيبه، ثم استقللت طائرة خاصة، ويبدو من معاملة كل من أقابلهم بأنها لي، والغريب أن وضعي الفاخر لا يمثل لي أي جديد وكأنه المعتاد دومًا.

هبطتْ الطائـرة بعد منتصف الليل بمطـار مدينة الأقصر الدولي وكان في استقبالي سيارة فارهة من نفس نوعية الطائرة الخاصة والمعطف باهظ الثمن، قادتني السيارة إلى منزل النمسا ورحلت، ومن ثم وصلت رأسًا دون مقدمات لدى باب الحديقة الذي يقبع في نهايتها، تلك البوابة التي عبرتها ومن وقتها قلبت حياتي رأسًا على عقب، وقفت لديها ثم عبرت وقد مرّت عليّ مراسم العبور مرور أكرم من الكرام وإذ بي أجدني ممتطيًا جـواد حالك السواد، لجامـه شعـرهُ وأقبض عليه بيُسراي، أقف به فـوق صخرة ملساء مُقاتلًا لا يتبعني جُنـد، قابضًا بيميني على سيف فولاذي أمام صدري بلا غمد، مرتديًا عباءة سوداء بغطاء رأس مصدره ذات العباءة، مكتمل الطاقة والقوة لأعلى الدرجات، تلمع عيني بدمع الرغبة، راصدًا طريقًا صخريًا مخيفًا تترامى على جانبيه زنْزَانات تُقاطع قضبانها أيـادي لأرواح أسيرة ترجو إطـلاق السراح، يعلـو على صرير أنفاسها أصوات ترانيم خفيّة بلغات متداخلة، ويدفعني نداء داخلي مجهول لتحرير ذوي الأيادي، وأدرك أن التحرير يستلزم قتالًا، كما أدرك أنه لا مفر لتلك الأرواح سواي.

وقد وجدتُ حقاَ ما أدركته، فاصطف عبر الطريق الذي يحوي الزِنْزَانات جنود ملعونين معلومي الهوية لتقاطع طرقنا سلفًا، وتتزايد أعدادَهم كما تتعالى أطوالهم، يقودهم ساكن الظلمة ولايزال شلال ظلمته المخيف ينسدل فوقه، تبعه حين تقدم من خلف جنوده حتى أصبحَ في الطليعة، وما كانت تلك الطليعة سوى سرية بين سرايا عدة، فجاء أمر الهجوم من تحت شلال الظلمة، آمرًا ذوي الهيئات المرعبة بالاجتياح، وفي المقابل صدر أمر رد الهجوم من النداء الذي يكمن داخلي، فَالْتَقَى جمعهم مع سيفي، أضرب عنق هذا وأنحر رقبة ذاك، تتطاير الأشلاء وتتناثر القطع وتنفجر الدماء، يتناقص عددهم ولا تتناقص قوتي، أقاتل ونصب عيني ساكني الزِنْزَانات، فتحريرهم هو المراد.

وما أن كادت كفّة التحرير تميل لذي القوة، إلّا وجاء الأمر بإرسال سريتين آخرتين للدعم، وما كان ذلك الإمداد إلّا خطوة استباقية لدك حصون التقدم، فازداد العدد من حولي، وفقد السلاح الفولاذي في يدي صقله وبات يحتاج إلى إعادة الشحذ لمجابهة الأعداد الغفيرة المتزايدة، ولم تسعفني القوة، وما نفعها دون أداة، وسقط غطاء الرأس جراء الضربات متعددة المصادر وهوت قائمتي لتصطدم بصخرة من صخور ميدان القتال، فسال الدم وارتج العقل داخل الرأس وبدأ مراد تحرير الأرواح في التلاشي شيئًا فشيئًا، حتى اختفى تمامًا مع فقدان الوعي.

استفقت وفتحت عيني تلقائيًا لأجدني أختبر ذات الإحساس الذي اختبرته مع ذات الحلم، وجدتُ نفسي لا آبه بشيء سوى الألم الذي أحل برأسي من وقع الاصطدام بالصخرة اللعينة، تفقدت موقع الألم بيدي فلم أجد له أثرًا على الرغم من وجود تأثيره، وضعتُ قدمي على الأرض فتذكرتُ جوادي الصارخ من الزلة التي أَلَمَّتْ بنا، وانتابتني قشعريرة فورية

من ذلك السؤال يتيم الإجابة....

ما هذا الحلم؟، كيف يتكرر أكثر تفصيلًا هكذا وأشعر به حقيقةً دون أن أعبر، وماذا حدث كي تشبّ حرب ضارية كهذه؟

ثم علا صوتي بسؤال رغمًا عني....

وما خطب صاحب الظلمة؟

تغاضيتُ عن الحلم وعن إحساس الألم، كما تغاضيتُ عن الجواد وزلته بمجرد أن تذكرتُ حياتي وما بها، تفقدتُ الوقت واكتشفت أنه يقارب منتصف الليل وجسدي ينهار من نقص المؤن اللازمة لإبقائه قيد الاستقامة، قررتُ على الفور إعطائه ما يستحقه وذلك بسبب مرور فترة ليست بالهينة من حرمانه من أي شيء سوى جرعات العلاج، نعم حقًا، إنها هي بالتحديد جرعات العلاج اللعينة.

تلك الجرعات التي ينتابني بسببها ما ينتابني من أحلام حد الواقعية بمجرد تناولي إياها، فقمتُ مترنحًا ومررت على غرفة صالح وكان وقتئذ ينال قسطًا عظيمًا من الراحة كما كانت خططه، فآثرتُ ألّا أقاطعه وهممت نزولًا لأجد وجبة السيد حجاج التي دعاني إليها قبل نومتي لازالت متسطحة الطاولة فجلست وتناولتها عن أخرها لدرجة أني جرحت الأطباق من إصراري على طلب المزيد منها.

انتصبت قائمتي بعد الوجبة، وخرجت للحديقة كي أستنشق أي هواء يصلح ليكون وقودًا كافيًا يساعدني على هضم ما التهمته بأحشائي، وكي أتجرع أيضًا من غير ما تجرعت من هزيمة أثناء الحلم والذي ظهرت به خاسرًا مدحورا، تناسيتُ أمر الهزيمة وأدرجتها بأبواب الأحلام المنسية

ووصلتُ إلى البوابة، أتأملها ولا أعلم بمن أبدأ، هل بكيان؟!، أم أبحث عن عائلتي التي ليست عائلتي أم تاريخي الذي لم يعد تاريخيًا، أم أكتشف مكان نادر وتكون صفقة أقايض بها أي طريقة قد تبعده وتقربني من كيان، أم أذهب للسيد رئيس التحرير مفقود الأثر والتواصل، أم أذهب إلى بداياتي كي اكتشف من هو الشخص الذي أجاز لي أن أضع اسمي بعد اسمه، فإن كنت سرقت هوية نادر بالكامل وأصبحت كمال أسعد، فما هي هوية كمال الحقيقية، وكيف لم أنتبه إلى مثل تلك الأمور.

إلى هنا وقد علت خشبة مسرح أفكاري خاطرة الفص الصدغي وعلاقته بما يحدث معي مباشرة، وإن كان هو الاتهام الموجه لي والذي برأتني منه البوابة، فربما يكون هو الدليل الدامغ على صدق زيارتي لعائلتي، أقصد عائلة نادر وكذلك صدق شروحات صالح.

اختلطت الأفكار وتشعبت الأسئلة وتعددتْ البدائل، وكان الاختيار الأول ما اختاره قلبي على الرغم من جفاؤه وخيانته لي على غير المرسوم، فاخترت كيان، عسى أن يكون ظفري بها راحة لقلبي، ومنه إلى براح شاسع يشرح ما استشكل على كمال، كمال دون استكمال، ذلك التائه الضعيف، لا، إنه القوي الذي يملك ما لا يملكه غيره، والذي بيده ما ليس بيد أحدٍ سواه.

إذن، لقد وقع الاختيار على كيان وكيفية إنقاذها من واقعة التسمم المشؤومة قبل تدخل الشرطة، وفي هذا سيكون بطولة منقطعة النظير قد تقربني إلى قلبها زُلفى، ومنها إلى بقية السابق واللاحق من أحداث.

***

(١٤)

عجبًا لغزال قَتّال قد زاده حُسن الخُلق شراسة، من أراد يومًا الظفر ببهائه احتاج فوق الصبر فراسة، وإن قُدّر لرجلٍ العيش في رحابه كان نهاره نضالاً وليله حراسة، فالقمر في اكتماله يُغار حرّقًا من قسماته، وكسفًا من السماء تتهادى طوعًا تحت أقدامه، هذا هو اللون الذي اختارته كيان لتضعه على أظافر أقدامها، الأزرق السماوي.

تمركزت أنا بموضعي بالشرفة بينما جلست هي على كرسي مجاور لسرير الغرفة الفندقية الفاخرة، ممددة قدم وحاضنة الأخرى تلون الإصبع تلو الآخر بحرفيّة وبراعة، ثم تنفث من بين شفتيها زفيرًا رقيقًا يبدو برائحة الرحيق لتجفيف ما لونته، ترتدي ملابس ليست للنوم وإنما تبدو للرفاهية، وتتمايل غرائزي ما بين التلوين والتجفيف والرفاهية كاستجابة فطرية لجمال الغزال، الذي قاطع تجلياته صوت هاتفها معلنًا عن انتهاء تلك المراسم الجميلة، فلعنت نادر على سوء توقيته دومًا، لكن اللعنة أخفقته لأنه لم يكن هو القاطع حيث أجابت كيان على الهاتف، وقالت...

لقد انتظرتك كثيرًا، ما الذي أخّرك هكذا؟

إتضح من رد كيان أن الطرف الآخر أنثوي النوع، كما تأكدت من أنه لن يخرج عن كونها السيدة الوقورة زوجة رئيس التحرير حيث أجابت من هناك ولم يصلني ردها، ثم أردفت كيان ....

حسنًا، أنا في انتظارك، سنقضي ليلتنا هنا بغرفتي، ثم قالت بابتسامة

رائعة...

لقد تشققت كعوبنـا من الأقصر وضواحيها، سنطلب من الفنـدق ما تشتهيه أنفسنا وسنمكث هاهنا، اتفقنا.

وما كادت أن تضع هاتفها لاستكمال التزين الأنثوي المُبهج حتى أطل الاتصال الآخر بجناحيه والذي أعلم طرفه عن ظهر قلب، والذي أعلم أيضًا باختفائه بمجرد أن يفرغ من تلك المكالمة الحميمية، فأجابت ودرات المحادثة التي سمعت تفاصيلها مسبقًا، لم يتغير بها حرف، بل زادت التفاصيل بسبب حضوري هنا مرة وعند نادر مرة أخرى، وأنا أتلوى من تكرار سماعها وأتلوى أكثر من معرفتي بكامل الحوار بين السائل والمسئول، العاشق والمعشوق، تلك المكالمة التي كانت مدخلًا إلى نفق معرفتي أن عائلتي ليست بعائلتي، وبالتالي فإن حياتي ليست ملكي ولن تكون يومًا، وهنا خطرت ببالي فكرة من شأنها هدم ما جئتُ من أجله، فماذا لو نجحت حقًا في إزاحة نادر عن طريق كيان، وماذا لو نجحتُ في كشف ملابسات تسمم كيان وشفائها، وماذا لو نجحت في السيطرة على قلب كيان زورًا أكان أو صدقًا؟ ما هو المصير إذن؟! كيف ستكون الحياة وأنا ضرير في ماض بلا عمد وأتحسس دروبي في مستقبل بلا سقف، كيف سأخفي الدمعة التي ستسكن عيني للأبد، وكيف سأكمل حياتي وأنا وضعي مقلوب كالوطواط، وهل سيمنع امتلاكي لما أريده ظهور تلك الأسئلة في مجرى حياتي مجددًا، أم ستحيا بداخلي كالخناجر المزروعة وعليّ أن أتأقلم على التعايش مع ألمها.

انتهت مكالمة كيان عبر الهاتف مع نادر، وقطع طرق باب غرفتها مناوشات مناجاة النفس بداخلي، دون نتيجة مرجوة وبلا رغبة لإعادة ما دار، دخلت السيدة أريام وجلست وأخذت الاثنتين تتسامرن لا متبادلات

أطراف الحديث فحسب بل تسبرن أغواره وأعماقه، شأنهن شأن أي أنثيين اجتمعتا معًا على طاولة واحدة. وقد دار بينهن ما سمعته مسبقًا إلى أن جذبني جزء من الحوار قد فاتني حين أصابني الملل وانتقلت بسببه إلى غرفة نادر، فقد سألت السيدة أريام العُطيفي كيان سؤالًا واضحًا وهي تعلم ما تقوله....

متى وأين سيكون عقد قرانك ونادر؟

أجابت كيان بخجل عروس....

كان المخطط له بعد عودتنا إلى القاهرة، ولكن يبدو أن ما حدث بالنمسا عكر صفو الاتفاق النهائي على الموعد.

قالت السيدة أريام....

أتقصدي كمال وما حدث معه أو بسببه؟

مطّت كيان شفتيها وقالت....

هل ما حدث سيدتي يمكن أن يدخل ضمن إطار المعتاد؟ لا أظن ذلك، فالأمر غريب وقد جعل نادر يصب جام غضبه عليّ، على اعتبار أنني قد مهدت الطريق إلى كمال كي يحلم ويتخيل بوجود أمر ما بيننا بدءًا من تكليفه بإعطائي التقارير اليومية قبل وصولي وحضرتكً إلى الأقصر، نهايةً بأمر صوري التي على هاتفه حين زعم دخول غرفتي، الأمر حقًا غريب.

صمتت كيان قليلًا ثم سألتُ...

ألازال السيد رئيس التحرير لا يعلم بالأمر؟ أم أنكِ أردت عدم الإفصاح له عن عمد؟

أجابت السيدة أريام وقد بدت علامات عدم الارتياح على ملامحها بكل وضوح وقالت....

لم أكن أنوي اطلاعه على تلك الأمور باعتبار أني قادرة على حلها دون الرجوع إليه لثقل مهامه وضيق وقته.

وأردفتْ باهتمام....

كما أن السيد رئيس التحرير يولّي كمال اهتمامًا من نوع خاص، فلم أرد أن يناله بعضًا من القلق هو في غنى عنه، ولكن ما يقلقني حقًا هو أن محاولاتي للوصول إليه باءت كلها بالفشل بكل الطرق، ثم قالت السيدة زوجة رئيس التحرير بإصرار مطمئن وهي تتجه لالتقاط سماعة هاتف الغرفة.....

سيكون الأمر على ما يرام، أنا أعلم ذلك.

قالت كيان ردًا على جملة الطمأنينة تلك....

سيكون كل شيء على ما يرام.

ثم أردفت بحماسة....

بمن تتصلين؟

أجابت السيدة أريام والهاتف بيديها بالفعل....

سأتصل بموظف الاستقبال لكي يطلب من البوفيه إرسال عصائر طازجة لزوم الجلسة، فنحن في حاجة إليها، والليلة ستطول.

وافقتْ كيان على الفكرة لانتعاشها، وحضرتْ العصائر بتنوعها وطالت معها الثرثرة الأنثوية الممتعة بالنسبة لهن والمملة بالنسبة لنا معشر الرجال، إلى أن وجبت استراحة طبيعية ضرورية حين سألت كيان الاستئذان لدخول

دورة المياه، ذلك الطلب الذي قوبل بموافقة السيدة أريام لتوجهها إلى غرفتها لتلبية ذات الاستراحة الفطرية، وكذلك لإحضار شيء ما لا ينتمي لعالم الذكور، لكنه يخصهن، على كل حال تنفستُ الصعداء للانفراجة الممنوحة، كما انتابتني رعشة كرعشة الكلب لفض الماء عن جسده بعد خروجه منه، وذلك بعد انتهاء فترة عزلي داخل شرفة حجرة كيان، فهممتُ بالدخول إلى الغرفة لالتقاط بعض من المؤن أو العصائر التي اشتهتها عيني، وبالأخص كوب كيان الذي راقبته عن كثب عسى أتتبع وقع شفتيها لأتذوق جمالها، بينما أجهض الاشتهاء أمرًا مريبًا.

عندما تلصصتُ بعيني من الشرفة للتأكد من صلاحية دخولي للغرفة بعد فراغها من جالسيها، إذ بي أجد عددًا لا حصر له من ذوي الهيئات المرعبة، أولئك الذين يرتدون عباءات سوداء لا تنتمي للقرن الحالي ويغطون رؤوسهم بغطاء رأس مصدره ذات العباءات، ولم تتغير أقنعتهم الفاسدة وإنما ازدادت فسادًا، ظننت في البداية أنهم قادمون من أجلي على الرغم من جهلي لسبب مجيئهم، فلا يوجد داع لإخافتي مجددًا، كما أنه لا يوجد نقض لعهد بيننا يستلزم حضورهم، هذا ما ظننته.

انتشروا في أماكن متفرقة بين أرجاء الغرفة التي وسعتهم على كثرتهم، كلًا في مكانه يستكشف محيطه الذي وكّل له وكأنهم في انتظار حدث جلل على وشك الحدوث، ففزعت على كيان، ولكن ما أجّل فزعي عليها هو ظهور ذلك الأشعث الهيئة وكث اللحية المجاور لعرش ساكن الظلمة فوق الماء، خرج من إحدى جدران الغرفة ولم تعجزه وكأنها لم تكن، نظر حوله ليتأكد بأن ذوي الهيئات المرعبة في أماكنهم، وقد كانوا بالفعل، فمن خلال نظرته بدا وأنه لا أحد يجرؤ على الاقتراب من منطقة تأجيل الأمر أو عدم تنفيذه، تقدم صوب باب دورة المياه واسترق السمع من خلاله فتأكد من

وجود كيان به كما استشعر مدة الوقت التي ستستغرقه بالداخل، ثم رجع إلى منتصف الغرفة يستنشق هوائها ولا أدري لماذا، وكل تلك التحركات لم تكن خطوات وإنما كأنه متزلج على لوح خشبي فوق مسطح مـائي راكد، ثم نظر فجـأة في اتجاه الشرفة، ارتعبت حين سقط نظـره عليها عسى أن يكون قـد اكتشف مخبـئي وآتى لحاجـة في نفس ساكن الظلمة الذي أرسل خادمه المطيع للتنفيذ، لكنه عاد بنظره فجأة إلى طاولة عصائر كيان والسيدة زوجة رئيس التحرير، فهدأتُ نسبيًا وعكفت أتابع تلك التحركات والتي لن تخرج عن كونها إرسالية من عالـم تجهله كيان وأعلمه أنا، حضروا لتنفيذ مهمـة مـا وضعتني رحلتي عبر البوابة في مرماها بالصدفة، عذرًا، أقصد التدابير.

قام ذلك الأشعث بعد أن تفحّص الطاولة جيدًا بوضع كمية من عقار ما في كوب السيدة الوقور دون سواه، فانتظرت لأن يعامل كوب كيان نفس معاملة كـوب السيدة أريام، لكـن النتيجة سلبية، فيبدو أنه حضر لكـوب السيدة خصيصًا أو ربما أخطأ التركيز فأصاب كوبًا عن غيره، ولكن تلك النوعية لا تخطئ مطلقًا، فهو كالصاروخ الموجّه، يراقب إحداثيات الهدف بعد الانطلاق وإما يصيبه وينفجر أو ينفجر ويصيبه، وقد انتهى من وضع العقار بكمية كبيرة ثم أخذ منه رشفة كي يطمئن على تأثير كمية الجرعة الموضوعة وقد راقته النتيجة، ثم نظر نظرة اجتمع على آثرَها ذوي الهيئات المرعبة ونفذوا جميعًا عبر الجدار مثلما حضر.

وفي تلك الأثناء لم تقفز إلى خاطري أي خاطرة، سواء بالتدخل لمنع الأشعث عن جريمته، أو تعقّبه لتتبّع مخططه من ذلك الحضور، ولم يُصِب عقلي سوى التجمد الذي نتج عن عجز ترجمة ذلك المشهد الغريب، فما علاقة هؤلاء الزائرين بجلسة الإناث تلك، وما أذاب ذلك التجمد سوى خروج كيان من دورة المياه بالتزامن مع دخول السيدة زوجة رئيس التحرير

حاملة بيدها صندوقًا ورديًا مما اختزنته من جولة سابقة بأسواق الأقصر، وشرعت في فتحه، وبالفعل أخرجت منه قطعة أنثوية خاصة جدًا سحبتْ تركيزي رغمًا عني فسهيتُ عن كيان التي أبدت دهشتها من جمال القطعة واحتست مما في كوب السيدة أريام سهوًا دون أن أدري وتدري ما الكمية التي رشفتها، فتحشرج النفس في حنجرتي ثم زادت الحشرجة أكثر عندما نزعت السيدة أريام كوبها من يد كيان مدافعة عن حقها في كمية العصير خاصتها، حيث قالت وهي تحتسي ما تبقي بنهم أنثوي لذيذ....

ألهذه الدرجة أربكتك جمال القطعة، مما أصابك الإخفاق عن كوبك يا كيان؟ عليك أن تنتبهي جيدًا.

تعالت أصوات ضحكاتهن سويًا بينما أبكي أنا على العقار الموضوع والذي سيظهر تأثيره في أقرب وقت، والذي سيقلب تلك الجلسة الحميمية إلى مسرح قريب من الجريمة بحضور أطقم طبية وشرطية بكل تأكيد، وبكل تأكيد هذا ما ظهرتْ بوادره حين ترنحت السيدة أريام ترنحًا مخيفًا ما بين الحائط والحائط، والذي كان ترنحًا خاليًا من أي اتزان، وسقطت مغشيًا عليها وبيدها ذلك الكوب وما يحويه، والذي عجّل دورها عن كيان التي انتبهت لسقوطها بلا أدنى إمكانية لتقديم العون في وقته، ففزعت من المشهد كما فزعت لها سريعًا وهي تنادي عليها وسط صراخ أنثوي، لكن السيدة أريام لم تستجب، فنزلتْ إليها كيان أرضًا ووضعتْ أذنها فوق أنفها عسى أن تلتقط أو تشعر بأي نفس صادر منها، وبالكاد شعرتْ كيان بأن الروح لاتزال تتمسك بأطرافها، فرجّتْ جسدها كليًا عسى تنتفض السيدة أريام من غيبوبتها وتفلح في استجلابها.

بينما بدأت السيدة أريام تفقد التشبث بباقي روحها وغدت الأنفاس

تتقطع وتتباعد ومعها انفجرت دموع كيان العاجزة في الظهور رغماً عنها، فهرولتْ كيان بقوة مفزعة تجاه باب الغرفة للاستغاثة، لكنها استبعدت هذا الحل في منتصف الطريق وغيّرت استهدافها إلى الهاتف فجأة لطلب النجدة، وما بين البـاب والهـاتف وجب دور كيـان المؤجل من الأعـراض السّامة في الظهور، وشعرتْ بأن سكاكين بوفية الفندق الحادة جميعها اجتمعت داخل جوفها للتو وشرعت في مباشرة عملها في التحرك والتقطيع، وقد ظهر ذلك على ملامحها من جهة وعلى اضطرابات حركات جسدها من جهات أخرى، ولم تعد قادرة على تحمل التقطيع الداخـلي الشرس فصرخت من الألـم مُعذّبة، صرخة عالية تلتها أخـرى أقـل شدة، وصاحب تكرار الصرخـات نقص في قـوتها، هي والصرخـات.

تلك الصرخـات جعلتني أنقض على باب شرفتها لأدخـل إلى الغرفـة لأتدخل في رفع أي قدر من عذابها أو على الأقل إعطائها جرعة أمل بإمكانية إحضار المساعدة حتى وإن كانت من شخص غير متوقع حضوره، وما وجدته عكس ما توقعته، فبمجرد رؤيتها لي إلّا وتضاعفت عدد صرخاتها والتي امتزجت ما بين المفاجأة والألـم، انتصر منهـا الألـم وجلست أرضـًا غصبًا، وجلست أنا بالتزامن مع جلستها وكأننا انعكاس مرآة، مددتُ يدي كي أسند جلستها المترنحة وأمسكتها من كتفيها وهي تتلوى مما يحدث بداخلها، وأنا أتلوى مما بداخلي أيضًا.

فالعقار السام يؤذيها والحب يؤذيني، والتعلق في قطعة من حبل بال هلاك، وأنا الآن هالك لا محالة، فأنا أحبك ولكنني أعوذ بك من أن أكون حبيبًا غير محبوب، وشقاء المحبين في أحادية الطـرف، ولم تفلح تلك الأحادية في منعي من أن أظهر وأتدخل لمحاولة إغاثتك ولا أكترث بما قد تظنيه، وأنت الآن تنهارين بين يدي دون أن أستطيع أن أمنع انهيارك.

نعم، توجهت إليها بالحديث مباشرة وصرّحت لها عما يمزّق جوفي كجوفها، عسى أن تكون تلك الومضات آخر عهدي بها فتغيبْ وهي تراني وتعلم صدق ما يجعلني على كامل استعداد الكون على امتصاص ما في جوفها من أذى حتى لا أراها تعاني هكذا، وإن كان في هذا الاستعداد التنازل عما يميزني كما أظن، بل وأيامي وسنين عمري بأكملها، حتى وإن طويت لها كامل الزمن للأمام أو للخلف، فأنا قادر على فعل أي شيء خارج عن المألوف لأجلها، وما جعل قدراتي قابلة للظهور، معرفتي المستقبلية بأنها ستدخل في حالة إغماء ليس إلّا، بل وقادر على استجلاب ترياق سمّها من جوف الأفعى، قادر على إحضاره من الأشعث وغيره، من ساكن الظلمة ذاته، ولن أكتفي بالترياق ولن يكفيني الإطاحة بعرشه إذا غابت كيان بلا رجعة.

غابت كيان من الألم في أحضاني، وغبت أنا وهي بين أحضاني، أزيل مجرى دموع الإرهاق وأشواط المعاناة من فوق وجنتيها بيدي، وأتأمل ملامحها تأمل العابد الذي أصابه الولع، فلم نكن بمثل هذا القرب من قبل، اقتراب بعيد بُعد المشرقين، وما جذبني من سحر القرب هذا سوى أنين السيدة أريام البعيد بالجوار، نظرت إلى جسدها الملقي أمامي ثم إلى كيان بين أحضاني، فاختبرت أنفاسها كما فعلت هي مع السيدة أريام، وهدأت رويدًا حين سمعت أنينها السحيق المتقطع، لكنه موجود وفي هذا انفراجة مؤقتة لن تدم سوى بسرعة الاستغاثة، وضعتها أرضًا بجوار جسد أريام ويخالط روعي الروع والصدمة من قسوة التجربة وسرعة إيقاع المشهد، ويدي من وفاض الحلول خالية وأفكاري من دروب النجاة خاوية، قطعها أصوات طرَقْ متسارعة متزايدة على باب الغرفة وعلى ما يبدو فإن صراخ كيان المتواتر استدعى بطبيعة الحال بعض السيارة في ممرات غرف الفندق.

وقفتُ مبتعدًا دون إرادتي عن السيدتين ولا أدري ماذا أصنع! فمن سيدخل ويجد جثتين ورجل وصراخ، فستتحول الغرفة حينها إلى ساحة محكمة وسيصدر الحكم دون إجراءات أو مرافعات، ووجدت باب شرفة الغرفة المهرب المثالي مما أنا فيه، فقفزتُ قفزة واحدة من مكاني إليها دون عوائق ووقفتُ أتابع من خلالها دخول أهل النجدة واطمأننت حين وجدتهم أهل لها.

تدخلوا سريعًا لاستدعاء ما يلزم، كما استدعيت أنا مراسم الرجوع، وانتابتني الحيرة ومضاعفاتها من خطة العودة، هل ستكون إلى الواقع الفعلي المُعاش أم أتوجه إلى مكان تواجد نادر المختفي أم أرجع إلى ماضي كمال معدوم الأصل، وما حدد اتجاه العودة هي مشاعري التي احترقت جراء مشهد تألم كيان وتعذّبها، فاتجهت من شدة الإجهاد النفسي صوب غرفتي بمنزل النمسا مباشرة كما لو كنت مياه تتدفق من منحدر شديد الانحدار، وتلقاني صوت ليس بغريب عن مسامعي فور انتهاء مراسم الرجوع حين قال....

كمال، كمال، تفضل معنا من فضلك، دون أي إزعاج.

لم أستجب سريعًا لندائه بسبب رجوعي توًا من رحلة مكروهة لأي مُحب، فما أصعب أن يتذوق الحبيب كأس الفقدان، وتتجرع أجزائه مرارة الشرخ، ذلك الشرخ الذي أصاب شريط الحمض النووي الخاص به فجعله مُهشّم الجوانب، وما ساعد على استجماع بعض من الوعي المتخبط هو تدخل صوت آخر أحفظ تفاصيله عن ظهر قلب حيث قال مدافعًا عني بأخوة....

فلتعذره يا سيادة الرائد، فهو تحت تأثير جرعة الدواء، وهي شديدة الأعراض حين الاستفاقة منها.

استجمعت مكان رجوعي وإذ بي أجد نفسي أجلـس على طرف سريري بمنزل النمسا مُحاط بمجموعة من العساكر ويترأسهم ذلك الرائد الذي أبلغنا سابقًا باختفاء نادر وتسمم كيان وأريام ويجاورهم الوقوف صالح وكذلك السيد حجاج والسيد محمود البستاني، جميعهم يقفون متراصين وينتهي مدد بصرهم على موقع جلستي، ومن الواضح أن الليل قد انتهى برمته وتنفّس نهار الصباح الجديد وأنتج تلك الرفقة.

أبصرتهم جميعًا بالتنـاوب بدءًا من أولهم وكان السيد محمود البستاني مرورًا بسيادة الرائد والجنود حتى نهايتهم والذي كان صالحًا، فقلتُ له مستفسرًا....

أعراض؟، أي أعراض؟ ماذا يحدث بالتحديد؟

التقط طرف الحديث سيادة الرائد وأعاد طلبه الذي صرح به عند نهاية مراسم انتقالي وقال بتهديد مؤدب....

أرجوك يا أستاذ كمال، عليك مرافقتنا دون أي جلبة أو إثارة أي مشاكل.

سألتُ ببشاشة....

أهناك جديد يخص اختفاء نادر؟

نفى سيادة الرائد أي جديد برأسه دون كلمات، ثم أعاد طلبه....

هلّا رافقتنا؟

سألت والفزع يكمن في حروف سؤالي....

ماذا فعلتُ سيادة الرائد؟

ثم توجهتُ بسؤالي إلى صالح لصلاحية رفع نبرة صوتي عليه وسألتُ

بغضب ممزوج بامتعاض كافي....

هلا أخبرتني ماذا يحدث؟

تتدخل سيادة الرائد وأجاب شارحًا ....

لقـد وردتْ إلينا إشارة من مستشفى إسنا التخصصي تفيـد بأن الأستاذة كيان قد استفاقت من تأثير التسمم.

سكتَ قليلًا ثم استطردت....

واتجهنا على الفور لاستجوابها أو بمعنى أصح لأخذ منها بعض الأقوال التي قد تفيد في معرفة ملابسات واقعة التسمم، وماذا تتذكره بالتحديد، وللأسف لم نستطيع الوصول إلى أبعد من جملة أو جملتين على أكثر تقدير، ثم غَفَتْ مجددًا.

سألتُ بلهفة مُحب....

وكيف حالها الأن؟، هل الوضع مستقر؟

نظر الرائد إلى صالح ورفع حاجبه وكأنه قد ملّ من ذلك النقاش الذي ليس في محله بالنسبة له، أما لي فهو في منتصف دائرة شاخص الهدف، فتنفسَ وقد وصلني من نبرته بأنه الجواب الأخير على أي أسئلة قد ترد من ناحيتي وقال....

هنَّ بخير، حالتهن مستقرة إلى حد كبير، لكن الخطر لا يزال قائمًا وذلك بسبب جهل الأطباء بنوع العقار السام حتى الآن برغم تدخلهم بعمل غسيل معوي عاجل.

امتعض ثم أضاف بلهجة عسكرية شديدة بعض الشيء....

هلّا رافقتنا في الحال؟، وبهدوء.

لم أفهم ماذا يقصده بطلبه هذا، وقد بلغ الضيق من كلامه أقصاه، فتوجهت إلى صالح وسألته وأنا أهمّ بالوقوف.....

ماذا يحدث يا صالح؟

أنا لا أفهم شيئًا.

لم يجب صالح مجـددًا وكأن خشبة مسرح الحـوار لم يعتليها سوى سيادة الرائد وهو المنوط بالأسئلة والأجوبة دون غيره وقال بنبرة أخوية راقية إلى حد كبير....

يا أستـاذ كمـال، لقد وضحتُ لحضرتك بأننا توجهنا إلى مستشفى إسنا التخصصي فـور استفاقة أستاذة كيـان وقد تحصّلنا على القليل من كلماتها وكان أهمها بأن أخر ما رأته قبل فقدان وعيها من أثر ألم التسمم، هو حضرتك.

كل الوقوف كانوا على علم بتلك المعلومة عداي، وقد بدا ذلك على ملامحهم التي لم يظهر عليها أي دهشة من وقع قولها، فابتعلت ريقي من صدقها، وإذا أقسمت لهم جميعًا بصدق روايتي عما دار في تلك الزيارة، لن يحرك ذلك من إيمانهم بكذبي شيء، فحاولت الاستفسار عن معنى رؤية كيان لي، وهل في هذا شبهة جنائية، أم أنه مجرد استجواب بمحضر رسمـي بمقر نقطة شرطة النمسا، فسألتُ بشفاه مرتعدة مرتابة....

وما معنى هذا؟

أنا لا أفهم حقاً، ما معنى هذا؟

أجاب سيادة الرائد كالمعتاد....

معناه أن أصابع الاتهام تتجه صوبك لا محالة، وبالأخص بعد عدم اعترافك من تلقاء نفسك بوجودك هناك وقت وقوع التسمم.

ثم خطا خطوتين حولي وسأل مستنكرًا....

فلم الإنكار؟

فلم الإنكار إذن؟

كان هذا السؤال تصريحًا لجنديين من الموجودين أن يجاوراني تمهيدًا لاصطحابي إلى نقطة شرطة النمسا إيذانًا بكوني متهمًا بواقعة أعلم مرتكبها ولكن شهادتي ستضيف حتمًا لقب مجنون بجوار متهم، فآثرت النزول معهم دون مقاومة، وبالفعل نزلت وحولي تشريفة كما لو كنت تمامًا أحد أعضاء وفد دبلوماسي رفيع المستوى والذي وطأت قدماه النمسا وما يزيد قليلًا على التشريفات المتعارف عليها دومًا نظرات الآسي والإشفاق الصادرة عن زميلي صالح وكذلك السيدان المحترمان.

خرجنا من البناية إلى الحديقة ولازلت أرتدي ملابس أول لقاء لي مع سيادة الرائد منذ فترة، وتعلو ملامح وجهي إجهاد مسجوني الأشغال الشاقة العاملين طول فترة حبسهم في المحاجر الجبلية، يغطيني عفار الإرهاق وغبار الصحراء، وسقط بصري على تلك البوابة فخطرتْ ذات الخاطرة التي نفذتها حين ظنّ الجميع بأني مجذوب في وجود كيان والسيدة أريام، وهي الركض نحو البوابة للعبور وليغرق الطوفان كمال عديم الإدراك الذي سأخلفه في ساحة المنزل.

تَحَيَّنْتُ الفرصة للخروج من براثن من يجاورني، وبالفعل ركضتُ بكل

ما أوتيتُ من مقدرة وسرعة صوب البوابة التي دانت في مرماي وظننتُ نفسي بأني ظفرتُ بها، ولكن يبدو أنني أخطأت تقدير مستوى الخصوم، فهم على عكس براءة المرافقين لي بالمرة الأولى، صالح والسيدان المحترمان، كانوا أكثر قوة وسرعة كمتعهدين في اصطحاب المجرمين الضالعين أمثالي وانقضوا عليّ انقضاض الطيور الجارحة على أرنب بري في ساحة مفتوحة السماء دون حماية، فأمسكوا بي كلا من جهة بعد أن تَمَرَّغَ ثلاثتنا في تراب الحديقة تَمَرُّغُ أطفال الشوارع الذين يتصارعون لأجل قوت يومهم، وفشلت في الوصول إلى البوابة، وكان عدم الوصول هذا، أعظم فشل اختبرته في مسيرتي الإجبارية.

توجهوا بي إلى سيادة الرائد الواقف لدى بوابة المنزل، وما أن وصلنا إلّا ورمقني بنظرة حنق شديدة أنكرتها لعدم فهمه نية هروبي، فإنه لم يكن هـروبًا بالمفهوم الشُرْطِيُّ وإنما مجـرد تأجيل للعقاب وإعطائهم كمال فاقد الإدراك حتى أجد طريقة للوصول إلى الأشعث لأعلم ماهية فعلته أو للاستدلال على نوعية العقـار السام الذي يحير الأطبـاء حتى الآن عسى أن تكون معرفتهم به هي سبيل للنجاة لهن.

جاء أمر مباشر من سيادة الرائد محطماً كافة التقديرات المأخوذة تجاه السيد رئيس التحرير ووفده بوضع الأصفاد بيدي كأمر احترازي بسبب فعلتي الشنعاء ومحاولتي الهروب، وما سبقها من عدم الإفصاح عن مكان وجودي أثناء واقعة التسمم المشؤومة، ساقوني وأنا أستودع صالح بنظراتي وأستحلفه ألّا ينساق وراء الظاهر، وأن الباطن يحمل أضعافًا مما يبدو لنا، فاستجاب بمرونة عاجزة لأنه لا يملك من الأمر شيء سوى التأكيد على موعد جرعاتي الطبية في وقتها، وقابل سيادة الرائد مرونة صالح بمرونة مشكور عليها بأن سمح بذلك.

وصلنا إلى نقطة شرطة النمسا، وكان النهار قد انتصف دون أي إجراء متخذ ضدي سوى جلوسي مكبل بالأصفاد على دكة خشبية متهالكة في ركن من غرفة أكثر تهالكًا تشير إلى أن كل أهل النمسا من الأخيار، أما الأشرار فمعدومين، ولذلك لم تسنح لهم الفرصة في توفير مكان يأويهم، وكان هذا تمهيدًا لإعادة استجوابي الذي لم ينل الرضاء في أول مرة، والذي لم يخرج عن إنكار ما صرحتْ به كيان، أو على أمل استفاقتها مجددًا للتأكيد على المعلومة، أو استفاقة السيدة أريام العطيفي للتأكيد على شهادة كيان برؤيتي.

طال الانتظار وثقُلت الأصفاد، ورأسي كذلك، ومعها تزايد اليأس والأرق حتى وضعوني داخل زنزانة منفردة بلا مقاعد، عتيقة منهكة كحالي، بابها بلا فتحات وشباكها قضبان نال منه الصدأ مبتغاه كما نال من هوائها، جلست أرضاُ وأسندت رأسي على أحد جدرانها تترنح أمامي وحدتي كالسكير المتحامل على نفسه رغم استحواذها على مفاتح وعيه، وأنا حالي كحالها أنعي وقتي، وقد ارتسمت أمامي فجأة أشكال الزنزانات ذات الأيادي التي تبغي التحرر.

تلك الزنزانات التي تتجلى لي دومًا في أحلامي غير المفهومة، فما أشبه مرادي بمراد أهلها، أما ما بعد المراد غيوم ضبابية كثيفة تحجب الرؤية عن المستقبل، والذي من الواضح أنه سيكون عكس ما تمنيتُ. فغدوت فاشلًا مجنونًا مجرمًا فاقدًا للأهلية، لدرجة أنني عاجز عن النزوح إليه للاطلاع عليه، وكذلك عاجز عن التراجع عما اكتشفته هنا بالنمسا، وأصبحت أحلامي منزوعة الريش مكشوفة الصدر مكسورة الأجنحة، لن تُحلّق مجددًا ولن تسمح لي مطلقًا بالنجاة من التهاوي بين شقوق الضياع.

***

(١٥)

هجم الليل من دون مقدمات بين ثنايا قضبان شباك زنزانتي، وأسدل بظلامه على ما تبقى من فواتح الرغبة لدي فصبغها بسواد لا بَيَاض بعده، وباتت النفسية في هذيانها أقوى مئة مرة من الجسد المنهك والمنقسم على نفسه بين الجوع والعطش والحاجة، فناديت يأسًا من خلال باب الزنـزانة لعلّي أصادف مُغـيث رحيـم القلب يغيثني بكسرة خبز أو شربة مـاء، وقد نجحت المحاولة وجاءني الغيث على هيئة فرد شرطة كبير الرُتبة، أمدني ببعض الطعام والماء كقافلة مارة على تائه وسط امتداد الصحراء الغربية، فشكرته على الحياة التي قدمها لي شكرًا حقيقيًا بعد نسيان أهل النقطة وجودي من الأساس أو من الجائز انشغالهم بأمر جلل.

تناولت ما سمح به كرمه وأشبعت جسدي المتيبس من الظمأ، وتجاهلت عن عمد جرعة العلاج التي أعطاني صالح إياها، كما تجاهلت تأكيده على تناولها بالموعد، لأن وجودي هنا دليل لا يقبل التشكيك على صحة عبوري، فرؤية كيان لي نبوءة غير قابلة للنفث أو التكذيب، وفي هذا أزر مشدود حد النصل ينقطع لديه كل وهم أوٍ خداع، فتركتها كما هي بجيبي، وحاولت أن اختلس من الليل جزءً بسيطًا من الراحة بعدما اجتمعت الدنيا بأزماتها ضدي.

وإذ بي في بداية الاختلاس أجد ركـنًا من أركـان الزنزانـة جعلني أُسلّم نفسي للجـلاد عن اقتناع تام، ووجدت زائـرًا كان يحضرني دومًا، أعرفه وأعرف قطيعه، وحين دققتُ النظر تأكدتُ من أن طول الزائر لا ينتمي

للطول الطبيعي الخاص بالجنس البشـري وإنما يزيد بسنتيمترات مخيفة تكاد تصل إلى سقف الزنزانة، يرتدي رداء أسود لا ينتمي للقرن الحادي والعشـرين ويغطي رأسه بغطاء رأس مصدره نفس الرداء.

تيقنت أن هناك موعدًا قد تم تحديده لزيارة ما، مع إغفال جدول أعمالي كوني طرفًا أصيل في المقابلة دون إخباري، فأخذتُ نَفَسْ لم يصل آسفًا إلى العمق المطلوب، وتمسكت بأهداب الشجاعة زورًا حتى لا ينتابني فرضًا ذات الفزع الذي ينتابني دومـًا بحضرتهم، وقـررت التوجه إليه بشجاعة محـارب فقد أسلحته تـوًا، لكنه لايزال يمتلك القدرة على التضحية، والجرأة على تقديم نفسه أسيرًا في حرب غير متكافئة الأطراف، وفي ساحة غير ممهدة للقتال من طرفي ولكنها تمتلك كافة التمهيدات له.

تقدمتُ نحوه خطوة وخطا نحوي ضعفها، فكررتُ التقدم وكذلك هو إلى أن أصبحنا رأي العين، وبدا قناعه الفاسد واضحًا في ضوء الزنزانة الخافت، رمقت مركز عينيه نظرة حادة ظاهرها القـوة وباطنها السؤال عن سبب مجيئه الآن تحديدًا، فبادلني نظرة جامدة من خلال عين يعتريها السواد القاتم، نظرة مفادها أنه يجب عليّ أن أتحلى بالرهبة المُنقذة، فتجاهلتها بدافع أنني مختار ليس كمثله أحد، وقد قابلت من هو أقوى وأمهر منه وكنت ندًا مناطحًا في تلك المقابلة حتى أنني فزتُ بها، بما لم يفز به إنس ولا جان، فصرخت به صرخـة ظننتها الأخيرة تراجـع من قوتها خطوتين للخلف، وسألتُ وأعلم أن أسئلتي يتيمة الرد....

لماذا وضعتم السم في كوب كيان؟

لماذا تريدون القضاء على ما أتمناه في هذه الحياة؟

أضاف لي رجوعه إلى الخلف قوة مُصدّقة، كما أضاف عدم رده منطق

لتنوع الأسئلة من ناحيتي، ثم قلت بثقة لم أعهدها في واقعي....

أتظنون بأنكم ستنجون بفعلتكم هذه.

صدر عنه أنين مخيف من تحت قناعه الفاسد جراء هذا التهديد، أنين أحدث داخلي هزة لم تظهر آثارها خارجًا، حيث حاولتُ جاهدًا أن أتمالك شجاعتي كي تظل ملامح القوة التي تعلو وجهي كما هي دون تأثير أو تغيير، وبالفعل، هدأ أنينه لقوتي، وتغيرت أدوات الحوار الدائر ونحّى مواجهته لي ظهور الأشعث ذو اللحية المجدولة من خلال أحد جدران الزنزانة محاطا بجمع من ذوي الهيئات المرعبة، أرجعني ظهورهم خطوتين للخلف تلقائيًا، فنظرت إليه طوليًا ووجدت قدمه مدببة على حالها منذ لقائنا الأول، وقد تكلم من خلف لحيته دون أن يظهر عليها أعراض الحديث وقال في ثبات مخيف وبصوت مُجسّم....

لسنا مخوّلين للرد عن أسئلتك.

نظر باشمئزاز إلى أركان الزنزانة نظرة دائرية أنهاها عند عيني ثم أضاف بنفس الطبقة....

ما جئتُ إليك سوى لأن أؤكد عليك بأن ما حدث مع السيدة في الفندق ما هو إلّا مجرد تذكرة.

علا حاجبي حاملًا معه أسئلة متعددة تحتاج لإجابات أكثر تعددًا، ولكن الأشعث لم يمهلني وأكمل....

ما بيننا هو اتفاق، وقد أخلّيتَ بأحد بنوده ولهذا تم تطبيق الشرط الجزائي.

سألتُ باندهاش....

أي شرط جزائي؟

قال الأشعث وهو يقترب من وقفتي....

أنسيتَ أن شراكتنا عبارة عن ماكينة دائمة الدوران، بطاريتها القسوة ووقودها الكراهية، وأنت تراجعت عن تنفيذ ذلك البنـد مما قد يعطّل تلك الشراكـة، وتحقيـق الشرط الجزائي واجـب التنفيذ حتى لا يتم سحـب مميزات الشراكة منك، وهذا ما أتطلع إليه.

ثم اقترب مني أكثر حتى أصبحت العين بالعين وقال....

تراجعتَ عن تمويـل الشراكـة بشروطهـا حينما امتنعت عـن تنفيذ مخططك في إبعاد نادر، وافتديت بحبك مقابل إيذاء عائلته، وها نحن ذا جئنا لنضع نقاط الاتفاق فوق حروفَ التنفيذ.

سألتُ وتغمرني رغبة في معرفة الرد....

وهل كنتَ تعلم أنها عائلة نادر وليست عائلتي؟

لم أنتظر إجابته ثم نظرت إليه مباشرة وسألت مجددًا....

وهل كنت تعلم بأنك وضعتَ العقار السام بكوب السيدة أريام، وأن كيان تناولته بالخطأ؟

أجاب بلامبالاة مستفزة وتتخللها القوة....

أسئلتك التي تحتاج إلى أجوبة أمر يعنيك وحدك دون غيرك، هذه مشكلتك فلا تقحمنا بها.

سألتُ مرة أخرى بتودد لعلي أفهم....

لما السمّ؟

قال ناعيًا قدرتي المُقيّدة في الزنزانة وبشماتة بيّنة....

بينك وبين ما تريد أن تعرفه قيود وأغلال، أتود أن تعلم المزيد؟

أومأت برأسي إيجابًا دون حرف.

ارتفع جزءً جانبيًا من لحيته المجدولة فأيقنت بأنه قد ابتسم ابتسامة تحمل قدرًا عاليًا من الشماتة مما حمل معه ذلك الجزء من لحيته وقال....

شتّان الفارق بين كمال هناك، وكمال الأخرق هنا.

أعدتُ عليه السؤال بصورة أكثر توددًا....

لما السمّ؟، أرجوك.

قال ببساطة مميتة....

وهل جزاء الإنكار إلّا الإنكار.

تحرك أمامي حاملًا معه نظري الذي لم يبرحه قط وقال وقد تحوّلت نبرته من البساطة إلى التحدي سريعًا....

لقد أنكرتَ وامتنعت عن تنفيذ ما عقدتَ العزم على تنفيذه بكامل إرادتك، ولذلك فقد أصابك ما امتنعت عن إصابته، وعليك أن تنتبه بأنها دَقَّةٌ بدَقَّة ولو زدتَ لازدادت عليك المشقة.

قلتُ مستحضرًا روح الصحفي البارع....

أنا على أتم الاستعداد لتقديم أي تنازلات شريطة أن أفهم.

قال الأشعث ببراعة فاقت براعتي....

لا تَفَاوُض ورأسك داخل فم الغول، لا مجال للمبارزة أو التباري سوى

الانكسار والخزي.

وصل حتى جدار الزنزانة ثم عاد أدراجه وقال....

أنت لا تملك من الاختيارات سوى اختيار أذل الطرق، لتقديم فروض الولاء ومراسم الطاعة بدلًا من التلاعب عديم الجدوى.

قلتُ بندّية وقد استبد بي الغضب من إجاباته....

ولكنني سوف أعرف كل ما أريد أن أعرفه، وأنت على علم تام بأن الأوقات والأماكن تحت طوعي، أطوي منها ما أشاء وقتما أشاء.

نظر الأشعث مجددًا إلى أرجاء الزنزانة باستهانة وقال....

لا أظن ذلك أيها المَعْتُوه، فأنت حبيس عالمك مثلما أنت حبيس تلك الزنزانة تمامًا.

أنهى نظرته الدائرية المُهِينة عند أطراف نظري وقال بتحدٍ يخالطه التَشَفٍّ المسّتفز....

أخلع نياشينك الآن، فلستَ اليوم عابرًا ولا مميزًا، أنت عديم الفائدة من دون البوابة، شخص مجذوب يتلاشاه الأقربون إن رأوا طباعه ويمقته الأبعدين إن استمعوا إلى هُرائه، نحن إذا تلاشينا من أمامك الآن فلن تفي نداءاتك بجواب، ولن يفلح اصطدام رأسك بتلك الجدران بشيء.

هممت لكي أحبس كلماته داخل فاه المختفي خلف لحيته بيدي ولكنه أطبق عليها إطباق سبع يُعلّم أشباله الدرس الأول للقتل، فكان الإطباق نموذجيًا كاد أن يطحن عظام يدي وساعدها، فأدركت سريعًا أن التعامل معه خلال واقعي قرار متهوّر ومحفوف بكل أنواع المخاطر وأن لنا ساعة في

ساحة أرجوها لكنها ليست ها هنا.

انتشلت يدي من قبضته بصعوبة وتراجعتُ خطوة إلى الخلف حتى ينفض ذلك التلاحم غير متكافئ الجبهات، وبالفعل انفض على أثر نداء الشرطي صاحب كرم المؤن الممنوحة لي من خلف باب زنزانتي، فاختفى الوفد برئاسة الأشعث داخل جدران الزنزانة وكأنها لم تكن فتمنيتُ ملاحقتهم لإدراك ما يفوتني، ولكنني تذكرتُ وصف الأشعث لي بالمَعْتُوه وقد أصاب، مثلما أصاب نداء الشرطي لي حيث سأل....

أتُحَدِّث نفسك يا ولدي؟

ثم تمتم مُحَدِّثًا نفسه ولكنني سمعته....

يالك من مَعْتُوه مَسكين.

فأجبته مهمومًا ومتجاهلًا ملاحظته التي في محلها....

لقد أصابني الملل، وعَفَتْ عيني عن إدراك الراحة.

فقال بود يكسوه الإشفاق....

لقد اقترب فلق الصباح، ومع تنفسه يتجدد كل راكد، ويزيل بنسيمه البسيط غبار الأمس الفائت.

كان كلامه أحق ما يكون أن يُسمع خلال تلك الأمسية، ويالها من نصيحة لم أدرك أبعادها بين ظلام الليل وفهمتها حين أطل الصباح بالبشرى على لسان سيادة الرائد حين استدعاني لمكتبه وأفاد بأن السيدة أريام استفاقت من غيبوبتها وقد أنكرتْ رؤيتها لي خلال واقعة التسمم الملعونة، وأن تلك الشهادة تنفي تورطي بشكل مبدئي في جريمة الفندق إن صح التعبير، هذا

الجزء الجيد.

وكدأب الأخبار الحلوة دومًا في عدم اكتمالها، فقد قفز في نهايتها خبرًا سيئًا عكّر صفو ما سمعته، إذ أن السيدة أريام سرعان ما عادت أدراجها داخل غيبوبتها مجددًا ولاتزال بها هي وكيان، فالأطباء لازالوا عاجزين عن كشف نوع السمّ المستخدم، كما أن أصابع الاتهام لاتزال لم تجد ما تشير إليه بثبات، وقد أكمل حديثه معي قائلًا.....

ستكون بمنزل السيد رئيس التحرير رهن الاستدعاء إن لزم الأمر.

سألته في تأفف....

هل أنا رهن الإقامة الجبرية؟

أجاب في بشاشة....

لا، ليس بالمعني الحرفي، ولكن لاتزال التحريات قيد الإجراء، وكذلك لايزال اختفاء نادر قيد البحث، ولا نـريد خسارة عنصرًا أخرًا من الممكن أن نحتاجه.

سألته بتودد....

وماذا لو استفاقت كيان مرة أخرى وأقرّت حقًا برؤيتي؟

نظر سيادة الرائد مطولًا إلى عيني بتركيز وقال....

هذا ما سألناه للأطباء وقد أفادوا بأن ما صرّحتْ به الأستاذة كيان يندرج ضمن هذيان تأثيرات غيبوبة العقار.

ثم قرع على سطح مكتبه مرتين وأردف....

كما أن تحرياتنا أكدت عدم وجودك بالفندق في ذلك التوقيت وهذا ما

توافق مع تفريغ كاميرات الفندق.

ثم صمتَ قليلًا واعتصر شفتاه بين إبهامه وسبابته وقال....

هذا إن لم يكن لديك أقوال مخالفة لما تم التوصل إليه مبدئيًا، وعليك أن تتأكد بأن التحريات قيد التشغيل.

ثم قال بتأكيد جدّي....

يا كمال.

أرجوك يا كمال.

سكت قليلًا ثم تحولت نبرته من الجدية إلى النصح....

من فضلك، علينا جميعًا الالتزام بما يتم التنبيه عليه، فنحن نقاتل في معركة متعددة الجبهات، بين مستشفى إسنا التخصصي وبين اختفاء زميلكم في ظروف غامضة.

ثم أنهى حديثه بتأكيد أخوي وقال....

اتفقنا؟

قلتُ وكل كلامي صدق....

نعم، اتفقنا.

وافقته على كل كلامه بغية الخروج من نقطة شرطة النمسا، وبداخلي طاقة تكفي لسحب شاحنة صعودًا على منحدر شديد الانحدار، كما كان داخلي قَسَمْ واجب التنفيذ بعدم تكرار تجربة الزنزانة مرة أخرى مهما كانت الخسائر، وعلى الرغم من كونها ليلة طويلة في زمنها حبيسة في ظاهرها، لكنها عظيمة في باطنها نافذة في تأثيرها، فمنها عرفت بأنني لا شيء من دون

البوابة، كما تأكدتُ بأنني داخلها كمال آخر مغاير عن كمال الحالي، وهذا ما أثبته الأشعث بكلامه.

إذن فمن المنطقي "ولا منطق يقبل ما أفكر فيه" أن مَن تنطوي له تركيبات الحياة من زمان ومكان، أن تكون له الغلبة الكاملة في قوته وجزئياته ومكوناته، فعزمتُ على ذلك كما عزمت على رد صاع قبضة الأشعث لي داخل الزنزانة صاعين غير مدرجين في قوائم الانتقام لتفردهم، فخرجت من نقطة شرطة النمسا وقد أفردت الشمس أشعتها على عالمي الواقعي وأنا متوجهًا رأسًا إلى المنزل، لا ينال مني إرهاقًا، ولا تنقصني مقدرة، وكل ما ينصب عليه كامل تركيزي هي البوابة.

البوابة لا غير.



(١٦)

ما أروع الرجوع....

كانت تلك الجملة هي جملة استقبال الوفد المنتظر إياي عند باب المنزل، ذلك الوفد الذي ترأسه صالح وأعضاءه السيد حجاج والسيد محمود البستاني، فقد استقبلوني استقبال العائدين من معسكرات الاحتلال بعد غياب سنوات غيّرتْ ملامح شبابي فغدوتُ ما بين الكهولة والشيخوخة، وبادلتهم تحية الرجوع دون الالتفات لأسئلتهم أو تحضيراتهم التي رأيتها متسطحة مائدة المنزل خلال مروري عليها أثناء صعودي إلى غرفتي كي أنزع أتربة الليلة الفائتة وأرتدي ثياب تليق برحلتي المخطط لها، فلا يليق أبدًا أن أدخل عالم أنا به مميز بملابس النوم المنهكة التي تشتكي دوامها لفترة دون راحة، فكيف أقنع الأشعث وحاشيته إذن وقتها.

دخلت إلى غرفتي تلاحقني ثرثرة صالح بأسئلة لا أعلم أجوبتها وإن علمتها فلن يسنح الوقت لمناقشة نتائجها، توجهتُ إلى خزانة الملابس كي أنتقي منها ما يناسب مهمتي، بينما توجه صالح للجلوس على السرير مراقبًا نشاطي الذي لا يناسب إرهاق أيامي الفائتة بالمرة بعدما أغلق باب الغرفة وسأل ....

أتعلم أن مدة المهمة كادت أن تدخل حيزها الأخير دون تحقيق إلى ما جئنا لأجله؟

نظرتُ إليه شذرًا من سطحية سؤاله بينما لم يعير نظرتي أي اهتمام وأكمل

بتلقائية....

أنا قلق جدًا على السيدة أريام وكيان، وكذلك نادر الذي لم يستدل عليه حتى الآن، ولم يصلنا ما يريحنا من سيادة الرائد بخصوصه.

تنفست بتأفف وأنا أرتدي ملابس المهمـة خاصتي ولا زلت مصرًا على عدم إتاحته فرصة للاسترسال ولكنه يمتلك شهوة احترافية في الثرثرة تتفادي أي حواجز وسأل....

ماذا صنعوا بك في نقطة شرطة النمسا؟ أكان الأمر أشبه بمعسكرات الاعتقال؟ وهل تناولت جرعتك العلاجية في وقتها؟

اقتربت منه بود وسألته....

هل نجحت في الوصول إلى السيد رئيس التحرير؟

أجاب صالح بالنفي.

قلتُ بنيّة طمأنته وأنا في طريقي للخروج من الغرفة....

لا تقلق، سيكون كل شيء على ما يرام.

قال وهو يلاحق خطواتي السريعة الواسعة...

إلى أين أنت ذاهب؟

أجبته دون أن أعقب خلفي....

سأضع حدًا نهائيًا لما نحن فيه.

قال بعد أن قابلنا السيدان المحترمان في طريق خروجنا إلى الحديقة التي بدت مزدهرة عما كانت عليه وأنا متّجه نحو البوابة بحماسة مبالغ فيها....

أنا لا أفهم شيء يا كمال، أرجوك، عليك أولًا أن تضع حدًا لما أنت مُقْدِم عليه، فأنا في حيرة من أمري من أفعالك غير المفهومة.

نظر إلى السيدين المحترمين وقالا بنبرة عالية بغية أن أستجب لنداءاته وألتفت إليه....

يا كمال، أتظن أن خرفك هذا سيفلح في إصلاح ما نحن فيه؟

وصلتُ إلى حدود البوابة وقبل أن أمد يدي لالتقاط مقبضها لأعبر، التفت إليهم وبسطت يدي بجانبي في غطرسة واثقة وقلت....

هل لازلتم تخالون أني أبالغ في ردة فعلي وقراري؟

فها أنا ذا سأكون مفتاح اللغز ورمز الشفرة.

ثم التفت وقبضت على مقبض البوابة باشتياق وحددت إحداثيات الانتقال في عقلي وفتحت البوابة بالفعل واجتزتها متجاهلًا ما يدور بخلد الجمع الذي يقف يتابع إصراري الذي يرتدي رداء شجاعة الخارقين، وعندها انتابني ما ينتاب الفتيات وقت حيضهن وسط جمع من الشباب، والتمني بانشقاق الأرض لكي تبتلعني غير كاف لوصف ما أنا به بعد عبوري المزيف للبوابة، لأنه لم يحدث انتقالًا من الأساس، فكنتُ أتمنى على الأقل أن أذهب إلى ما أريده وأترك لهم كمال عديم الإدراك يفعلون به ما يشاؤون، على أن أعود أنا بإدراكي لاحقًا وفي يدي كل حل لكل مسألة، ولكن على الأرجح انطباع الخرف المُتخذ عني سيتفاقم حتمًا ليصبح عقيدة راسخة للأبد دون تشكيك أو بهتان.

حاولتُ إعادة مراسم العبور عبثًا لعلي أفلح في الهرب بإدراكي مما أنا أدركه الآن ولكن هيهات يا كمال، قلتها في نفسي حتى إنني قد مللتُ من

نظرات الإشفاق المتكررة تجاهي، اقترب مني صالح وقال بصوت مسموع للجميع وهو يظنه همسًا....

أتناولتَ جرعتك العلاجية المسائية والصباحية يا بطل؟

أجبته وكأنني أعترف بإغفال موعدها....

للأسف لم أتناولها سواء بالأمس بنقطة شرطة النمسا، ولا حتى صباحًا عند عودتي للمنزل.

قال وهو يصحبني كممرض يساير مريضه النفسي لإيصاله إلى جلسة الكرسي الكهربائي دون أن يخبره....

فلتتناولها الآن ثم تصعد كي تنال قسطًا كبيرًا من الراحة وأنا سأبقى قيد انتظار أي جديد فيما يخص الأحداث الدائرة.

تأذيتُ من نظراتهم التي تحولت إلى أسهم لا يتحملها جسدي، فأردت أن أهرب من مرمى سهامهم إلى أي ملجأ، فاتخذت من اقتراح صالح سِترًا لعورتي التي باتت مكشوفة لهم بإثباتات أكاد أؤمن بها أنا شخصيًا، وبالفعل توجهت إلى غرفتي وأنا أتكأ على صالح اتكاء المرأة الحامل في شهرها التاسع وصعدنا إلى الغرفة وقد تأكد صالح من إعطائي الجرعة بيده وكأنه متوجِس خوفًا على مولوده الأول الذي أحمله له، وفي تلك المساندات كان صالح أوفى من أكثر الناس وفاءً، رغم ثرثرته، والتي لم يبرأ من عدواها حيث قال وهو يَهم بالخروج....

لقد تواصلتُ مع السيد طبيب عائلة رئيس التحرير، وقد علمت منه أن اجتماعه الطبي على وشك الانتهاء وسيوافينا في غضون أيام، كما أكد على ضرورة مداومة الجرعات في توقيتها، لأنها ستساعد على استقرار الحالة لحين

حضوره إلى النمسا.

أحس صالح بثقل كلماته فسارع برفع وقعها وقال....

بالطبع لم أخبره بأمر السيدة أريام، فالأمور ستكون على ما يرام، أليس كذلك؟

لم أجبه لأسباب عدة مجتمعة أولها ليلة الزنزانة وثانيها خزي البوابة وأخرها مفعول الجرعة، انسحب صالح بلطافة وهيأ الغرفة للراحة المسلوبة المرجوة بأن أخْفَضَ إضاءتها وأسدل ستائرها، فاستقبلت السرير بصرخات داخلية مُرهقة وقبل أن تلتحم جثي به تذكرت شيئًا من شأنه أن يربط على قلبي بصحة قواي العقلية رغم تأكدي من سلامتها، فقمت بنبش أوراقي التي كنت أدون فيها قفزاتي ووجدتها، كما تفحّصت صور كيان المرسلة على هاتفي ومتعتُ نظري بنسخة أحرقتني حال أصلها مما استدعى بطبيعة الحال وجع تلك الواقعة، فقام الوجع بإعادة بثّ محادثتي مع الأشعث، وأنار حواره المنطقة الرمادية في عقلي والتي تتمدد وتنقبض طبقًا لحالي غير المستقر. وما لبثت أن استقرت حالتي واتسعت دائرة تفكيري في كلامه، فقمتُ بإنارة ما أطفأه صالح وهرولت إلى أوراقي التي أدوّن فيها ما يتراء إلى إدراكي، وبدأتها بسؤال داخل دائرة مرسومة في أوراقي ألا وهو....

لقد كان الأشعث يعرف أنها ليست عائلتي، كما أنه وضع العقار السام في كوب السيدة أريام دون كيان.

فكيف هذا؟

ثم رجعت سريعًا إلى سؤال آخر له علاقة بالدوامة التي جرفتني البوابة إلى داخلها وسألت....

لماذا لا أستطيع أن أعبر حقًا حينما أريد أن أثبت قدرتي على العبور لأحد ما، أو شخص ما؟ لماذا تتعطّل الخاصية حينئذ؟

جاءني همس خافت من أحد أركان الغرفة فالتفت فزعًا إلى مصدر الصوت ظننًا مني أنه الأشعث أو أحدًا من بني جلدته، ولكنني لم أجد شيئًا فظننتُ أنني دخلتُ في نوبة هذيان نتيجة مفعول الجرعة العلاجية، ولكن جاء إثبات صدق إفاقتي من ركن آخر بالغرفة، وإذ بي أجد ذلك العجوز الذي لطالما رأيته وحدي دون غيري في المنزل وكنت قد نسيته بالفعل بعد لقاءنا غير المفهوم، حيث أجاب عن السؤال ببشاشة وكأنه افتقد ملامحي....

إثباتك للعبور لن يفلح مطلقًا ما دمت أردتَ الإثبات.

لم أفهم مقصده ودخلت معه رأسًا في صلب المناقشة وكأنني اعتدت على تلك التجليات سواء في الغرفة أو خارجها وقلت...

ولكنه حدث قبل ذلك عندما هربت من الجمع الذي تأكد بالعيان أنني مجنون لا محالة، وقد عبرت بنجاح.

قال مفسرًا....

لكنك لم تكن تقصد وقتها الإثبات، وإنما الهرب لا غيره، فالعبور هدف لا يدركه إلا من أدرك ذلك، وعليك إدراك ذلك بنفسك.

سكتَ برهة ثم أحضر شيئًا من دفتر لياليّ وقال....

خير دليل على ذلك هو فشلك في العبور عندما أردتَ أن تثبت ذلك لنفسك في نفس ليلة فشل عبورك مع صالح للإثبات أيضًا.

استعجبت من معرفته تفاصيل أنا بالكاد أذكرها، ثم سألت ردًا على

تفسيره الذي لم يضف إلى فهمي شيئًا....

هل يمكن أن أسألك شيئًا؟

أجاب بأبوة....

أنا على أهبة الاستعداد كي أجيب.

سألت وبدا سؤالي مرتعشًا....

أتقصد أنني لن أستطيع العبور إن أردت مجددًا؟

قال نافيًا....

أنا لم أقل ذلك، ولكن عليك ترتيب احتياجاتك من العبور.

أصاب العجوز بكلامه العلامة التي في منتصف شاخص الهدف بنجاح حين ألقى مرساة الحوار في بحر الأسئلة فتوقفت سفينة تيهي عند شط الاستفسار وسألت....

وهل تعرف أنت ترتيب احتياجاتي؟ وهل تعرف من أنا من الأساس؟ لقد عبرت كي أنتقل إلى عائلة نادر فانتقلت إلى ما كنت أظنها عائلتي، ولكنها لم تكن عائلتي أنا بل عائلته هو، وحين قمتُ باستجواب صالح للاستفسار قال إنني التحقت بجريدتهم قبل أسابيع من مأمورية النمسا، وأنا لا أعرف حقًا ماهي نوعية الحياة التي كنت أحياها قبل.

شعرت من سيل سردي بأنني أدخلت العجوز في دوامتي دون سابق إنذار فقلت مطمئنًا....

أتفهم شيئًا؟ هل تفهمني؟

قال بود لافت....

لا عليك، أكمل ما يرد على خاطرك.

أسعدني تفهمه وأكملت شارحًا...

فكيف لي أن أعرف أو أكتشف حياتي التي لم تعـد كذلك، وكيف أنسى عشقي لفتاة كنت أظن أنها على شفا كلمة اعتراف مني بذلك ولكنها لم تكن كذلك أيضًا.

انتابتني الحيرة ذهابًا وإيابًا من إنهـاك ما عانيته ومن إنهـاك ما أقـوم بسرده، ثم استطردت في آسى بالغ....

لقد رأيت واقعة تسمّمها بعيني هي والسيدة أريام ولم أستطع أن أحرك ساكنًا، وحين حاولت كان سببًا في دخولي إلى زنزانة لمدة ليلة كاملة ذُقتُ بها كأس الحيرة من خلال حوار مع من قام بوضع العقار السام بنفسه، لقد تحدثت معه بكامل إدراكي ولكنني كلما شعرت أنني قد وصلت إلى بر تستطيع أن تطأه قدمي كي أستريح من إرهاق السباحة غير الهادفة إلا وزاد عمـق التيه، لقد شعرت في بعض الأحيـان بأنني مريض بصرع الفـص الصدغـي حقًا، لدرجة أنني أحافظ على مواعيد الجرعات العلاجية، وبمناسبة تلك الجرعات اللعينة، فكلما تناولت جرعة أدخلني تأثيرها في نوبة نوم عميقة ومنها إلى حلم لعين أعيشه حد الواقع، وفي الأخير أنا ها هنا الآن أتحدث مع شخص لا يبدو لأحد سواي حتى، وإن اجتمع بجلستنا ثالث.

أرهقني الشرح جـدًا وأتعبتني الاستفاضة، ونال تأثير العلاج من بدايات الوعي لدي نيلًا ليس بسيطًا، جعلني أتوجه إلى السرير لأتخـذه مرقـدًا من تشويش زادت وتيرته، فأردتُ ألّا أنهي الحوار خالي وفاض الفهم، وبالأخص عن سبب مجيئه لي، وهل في حضوره إضافة، لكنه لم يمهلني إضافة كلمة أخرى وقال....

أخشى أن يتغير إيماني بك يا ولدي.

ثم اقترب من مرقدي وقال....

هناك أشياء لا تحتاج إلى أحد سواك في أن تصل بين أضلاعها حتى تتضح الصورة الكاملة، أضلاع ما بين الواقع والحلم، لا تحتاج إلى قرب زائد فتختلط الخيوط ولا تتحمل بُعدًا أكثر فتتوه التفاصيل، إنما تحتاج إلى مسار معياره أنت دون غيرك، فما حدث وما سيحدث به أجوبة تغفل أنت عن فقه معناها، كل ما عليك هو ترتيب خطواتك، الأولى فالأولى، وقد تتغير إحداها إن طرأ طارئ.

سكتَ قليلًا ثم قال بنبرة تكسوها الحكمة والرؤية....

إنها أقدم قصة في الكتاب، عزيزي.

الاختيار يا ولدي، فمن عرفها حقًا فقد عرف المغزى والوجهة والطريق.

قال تلك الكلمات وقد قام بترتيب أولوياتي بعقلي بحق، حتى الأمر الطارئ أخذ ترتيبه العارض على رأس القائمة وهو إنقاذ كيان وبالتبعية السيدة أريام ومن ثم أنا، يجب أن أنقذ نفسي، ولن أؤجل تنفيذ قائمتي والتي تذيلها اختفاء نادر، ذلك الاختفاء الذي إن صنفته لكان تحت بند غير المنطقي، فهممتُ بعرض قراراتي العقلية عليه ولم أجده، لقد اختفى وانسحب من المشهد مثله مثل قواي التي انسحبت من جسدي رغماً عنه، فحاولت انتهاز فرصة لبدء التنفيذ ولكن هيهات، فالرقود على السرير تحول تلقائيًا إلى استمتاع وقد ثقلت جفوني رغماً عنها وانسقت وراء ثقلها رغماً عني ولم يمنعني من ذلك شيء، وتزامن مع ذلك همهمات شفوية غير مفهومة صادرة عني كدليل على إصراري على استذكار ما نَوَيّتُ عليه،

فتهيأت لأن أغوص في غفوة آسرة، ولا أرغب في أن أكون أسيرًا داخل حلم قد اعتدته وغير مفهوم بالنسبة لي، ولكن كلام العجوز أثار اهتمامي بما قد أراه، فمن الجائز أن اكتمال الصورة بدأ من حلم لا أرغبه، وما نزع فتيل رغبتي في الاستغراق داخل غفوة أرجوها كلمات سيادة الرائد والتي وضعت طوق سببية ذهاب كيان بلا رجعة حول رقبتي، وأذابت رغبتي في النوم كتأثير سكب الماء المغلي على حفنة من السكر في قاع كوب، فاختمرت بداخلي فكرة إلقاء جسدي عبر البوابة كي أصل لمكان الأشعث لمعرفة نوع العقار السام الذي لايزال يُحيّر أطباء مستشفى إسنا التخصصي، وليحدث ما يحدث مع كمال عديم الإدراك هنا، المهم أن أصل.

قمتُ واقفًا بالرغم من رفض جسدي، لكنني تحاملت عليه لتأجيل تأثير الجرعة العلاجية قدر المستطاع، وقد اعتمدت على بعض الوقود المتوفر به لإيصالي للبوابة فقط ومن ثم لا أكترث بما سيحدث معه، توجهت لباب غرفتي واطمأننت على انشغال كل شاغلي المنزل الحاليين فيما يشغلهم، وخرجت من باب بناية المنزل خلسة أترنح مستندًا على عزيمتي التي بدأت توهن أكثر فأكثر، سرت في اتجاه البوابة مباشرة بخطوات تبدو لي سريعة كرغبتي، لكنها في الواقع بطيئة لحالتي، وما كدت أصل لديها إلّا وزاحمتني أصوات منادية من خلفي ترجوني بأن أعود إلى غرفتي لما فيما أن قادم عليه ضرر بالغ عليّ، تجاهلتها كي أعبر وكلي ثقة بأنني أريد أن أهرب للحقيقة وليس لإثباتها، فقفزتُ صوب المقبض ليلتحم براحة يدي كما لو كان آخر حبل منزلق من على متن سفينة تهرب من الارتطام بحيد بركاني عظيم، فإما الإمساك أو الهلاك، وبالفعل نجحتُ في الوصول بما تبقى من عزيمتي المنتهية عن أخرها وحددتُ إحداثيات اتجاهاتي عند نهاية نداء صوت صالح باسمي.....

كمااااااال، أرجع يا كمال أرجوك.

مرّتْ مراسم العبور سريعًا وقذفتني البوابة إلى حيث حددت بالتحديد، وقد تملكتْ جسدي أعراض قوة مفرطة عكس ما تركته عليه قبل العبور، وفي هذا تأكيد لحديث العجوز بأن العبور موجود لغاية وليس للإثبات لأحد، وكانت تلك الخاطرة هي الدافع الذي يلوح في بالي وأنا أتفقد هيئتي التي قـذفت بداخلها، فهي هيئة فارس أسطوري، تمامًا كالتي أراني بها دومًا في غفوتي بعالمي "عالم كمال الأخرق"، ممتطيًا جـواد حالك السواد، لجامـه شعرهُ وأقبـض عليه بيُسراي، أقـف به فـوق صخرة ملساء مُقاتلًا لا يتبعني جُنـد، قابضًا بيميني على سيف فولاذي أمام صدري بلا غمد، مرتديًا عباءة سوداء بغطاء رأس مصدره ذات العباءة، مكتمل الطاقة والقوة لأعلى الدرجات، تلمع عيني بدمع الرغبة، الرغبة في تحرير كيان من مفعول العقار السام، ولكن قبل الرغبة إنهال فيض من تدخلات عديدة على رأسها كيف التحم الحلم بالعبور، وما هي معدلات التشابه المتوقعة في الأفق أو غيره؟

كانت الإجابة سلبية النتيجة لعدم وجود من يفك أسرها، وابتعدت التدخلات العقلية العديدة ومعها الرؤية لتَتَّسِعُ موقعي الكائن أنا وجوادي فيه، وإذ أجدني على أعتاب ساحة قتال مكشوفة تشبه ساحة ماكسيموس الأثرية الواقعة في العاصمة روما والتي تعد أقدم ساحات القتال في العالم، وتتزاحم مدرجاتها بجماهير غفيرة جميعهم من ذوي الهيئات المرعبة الذين لطالما تعقبونني، وتتفاوت نداءات تشجيعهم بين الصخب الحماسي وبين المتابعة عن كثب.

تَرَجَّلتُ عن جوادي بحنكة فارس متمرّس من فرسان الحكايات المرسومة على جدران الحضارات المبهرة ولايزال سيفي بيدي، دخلتُ

إلى الساحة حتى وقفت بوسطها وتدور عيني على المدرجات التي تعالت أصوات هتافها بمجرد توسطي إيّاها وكأنهم قد حجزوا تذاكر نزال مُعدّ الترتيب له مسبقًا وأنا أحد أطرافه، ومن الواضح أيضًا بأنني أتمتع بشعبية جارفة بينهم، ونتيجة الحماسة المنطلقة من المدرجات تجاهي صدرت مني بعض الحركات البهلوانية بسيفي الفولاذي والتي تعجّبتُ من امتلاكي لها من الأساس ولكنها تؤكد صدق شعبيتي، وأن تعلقهم بي في محله، وقد انتزعت مهاراتي بسلاحي آهاتهم بالفعل، والتي توحي بالانسجام والإعجاب بما قدمته، حتى هدأت الآهات نسبيًا فجأة بسبب دخول الطرف الثاني من النزال إلى الساحـة، أبصرته وكان مُجهَّزًا للقتال تجهيزًا خرافيًا يجعل انسحاب جيشًا كاملًا من أمام هيئته المكتملة المخيفة أمر منطقي، أما أنا فكانت تغمرني عقيدة بأن الموت في كيانها حياة والحياة من دونها موت.

لم يكن فارع الطول، بل مساو للهيئة العادية بقدر ليس ببعيد، أما جسده فكان عريض عرضًا لافتًا يحيطه درع حديدي مُلتف مُحكم الدفاعات لا يكاد ينفد منه سهم منطلق أو ضربة سيف موجهة، يحمل بيمناه سيف ثنـائي النصل يلمع لمعـان الاشتياق إلى الدم، وبيسراه درع من نفس معدن درع جسده، ويرتدي كذلك قنـاعًا حديديًا أكاد أجزم أنه أقل بشاعة من حقيقته التي تختفي بالكامل خلف قناعه.

تلاشت الآهات والنداءات تمامًا وساد سكون مميت سمعت من شدته صرير أنفاسي المتعاقبة، وذلك بسبب بروز كرسي عظيم الطلة من بين المدرجات، كرسي أعرفه عن ظهر عقل وعين قلب، إنه عرش ساكن الظلمة، ولايزال يتدفق من فوقه ذلك الظلام الأسود الذي يغطي كنهه مما يجعل هلاله أشد رهبة، وقال بصوت مُجسّم أجش وبلغة عربية ركيكة....

لقد آتى الغريب كي يحصل على إجابات.

لنرى ما سيقدمه بالمقابل؟

لم أكن أدرك بأن كلمته تلك إيذانًا ببدء النزال، إذ تقدم عند نهايتها خصمي المتأهب تأهب الغَلِيل وبادرني بضربة مفزعـة من سيفه ثنائيٍ النصل ظننتُ من هولها بأنني هالك أنا وشقي جسدي الذي سينشق حتمًا نتيجة ضربته، بينما تعالى فجأة هدير المدرجات كالرعد بعد صمتهم في أماكنهم من روعة براعة صدّتي الاحترافية كاحتراف المحاربين الأسطوريين الذين تغطي أجسادهم ندبات المعـارك، فإنها لم تكن صدّة محترفة وحسب بـل أعقبتهـا ضربة هجومية أدرك خصمي من خلالهـا بأنني ضيف ثقيل على ساحته، ثم بعدها ضربة أخرى في اتجاه آخر حرّكت ميدان القتال من تحت أقدامه التي لمحتها فوجدتها مدببة الأصابع فعرفت أن مرتدي القناع هو الأشعث لا غيره، فزادت حدة الهجوم من جهتي طبقًا لغلّ المحادثة الثنائية التي دارت بيننا في زنزانـة نقطة شرطـة النمسا، وقد حاول عبثًا رد الهجوم بضراوة وما منعه من ذلك قوتي المتزايدة في النمو والتي انبهرت حقًا من تواجدها عكس كمال الأخرق، وبالفعل نجحت ضرباتي المتتالية في طرحه أرضًا وبمجرد شعوري بأنني أوشك على الانتصار، قمتُ بانتزاع قناعه من وجهه وقلتُ بتشفي متزايد....

أظن أنه قد حان وقت نيل الأوسمة أيها المَعْتُوه.

لم يرد الخاسر خوفًا من ساكن الظلمة أكثر من الانكسار والخزي، فظننت أنه من العدل أن يفصل بيننا ساكـن الظلمـة ويأمره بضرورة إعطائي الأجوبـة التي حضرت وقاتلت من أجلهـا، ولكن خـاب ظنّي حين فرغـت المدرجات من أصحابها عن بكرة أبيها بمن فيهم ساكن الظلمة،

وكأنهم تركوا الأشعث لمصيره والذي قد يصل إلى حد القتل على أن يسمح له بالإفصاح عما لا يريد الإفصاح عنه.

زاد حنقي على القتال غير الملتزم بمعايير وبدا ذلك على لهجتي، وجثيت على ركبتي فوق صدر المهزوم وغرست نصل سيفي بين رأسه وصدره وسألت وأنا عازم على تنفيذ ما جئت من أجله....

ما نوع العقار السام الذي وضعته في كوب كيان؟

أجاب بهدوء مُحيّر....

ولكنني لم أضعه في كوب كيان.

سألت وأنا أدرك حقًا بأنه صادق لأنني رأيته بعيني....

ولماذا وضعته في كوب السيدة أريام بالتحديد؟

أجاب وقد أتعبه ثقل جسدي فوق صدره....

ليس لدي إجابة لهذا السؤال، ولكن ما أعلمه هو ضرورة تنفيذ بنود اتفاقية الشراكـة وهذا ما أخبرتك به مسبقًا، وهل جزاء الإنكار إلّا الإنكار، لقد نلتَ من أحد بنودها فمن الطبيعي أن ننال مما يخصك.

أربكني رده لعدم وقوعه في حدود المنطق بالنسبة لي، فأردت أن أخرج من خانة الارتباك تلك عن طريق توجيه سؤال ستفيدني إجابته على أرض الواقع، حيث سألت بعزيمة....

ما هو نوع العقار السام؟

أجاب ببساطة....

الثاليوم.

سألتُ مجددًا بنبرة حادة....

ما هذا العقار بالتحديد؟

أجاب شارحًا وقد بدأ الإجهاد ينال من جسده حقًا....

الثاليوم، عقار قديم من قرون مندثرة، لا لون له ولا رائحة، مميت للغاية وابتلاع جرام واحد قادر على الفتك بمبتلعه، وتلك هي الكمية التي تم وضعها في الكوب المشروب منه، يؤدي إلى أوجاع البطن الشديدة كما أنه يسبّب الإسهال وكذلك الدخول في غيبوبة قد تصل لأيام، وهو سم بطيء المفعول ومن الصعب اكتشافه.

سألتُ وقد رفعتُ ركبتي من فوقه لإفادته....

وماذا لو اكتشف الأطباء نوعه في الوقت المناسب؟

أجاب بائسًا....

إن تم اكتشافه في الوقت المناسب سيتم تحديد ترياقه دون أي عوائق، أما إن مر على ابتلاعه مدة طويلة فقد يؤدي إلى أضرار عدة أخطرها الموت وأقلها تساقط شعر مبتلعه.

أشعل رده نار الثأر داخلي فغرست سيفي الفولاذي بقوة في رقبته حتى بزغت قطيرات من الدماء، ولكن بند القتل غير مُفعّل في أولوياتي. كما تذكرت فترة غيبوبة كيان والتي طالت بعض الشيء وتحتاج لأن أنقذها قبل أن تدخل في حيز الموت أو تساقط الشعر، فقررت على الفور أن أنتقل من تلك الساحة إلى مستشفى إسنا التخصصي مباشرة لموافاة الأطباء بروشتة علاج السيدات عطلّني سؤال بسيط نهائي تدخل إجابته ضمن الهدايا المجانية على كامل الفاتورة حيث سألت....

ما هو سر إختفاء نادر؟، ألك دخل في ذلك؟

أجاب سريعًا....

بلي، ليس لي أي علاقة بذلك الاختفاء، نحـن ملتزمون ببنود الشراكة لا غير، كما عليك أن تتأكد من أن الاتفاقية لاتزال سارية.

قمت واقفًا بعد استخلاص ما أردته من تلك المعركـة وسألت بصرامة بينما لايزال مطروحًا أرضًا....

هل سيكون هناك خسائر أخرى؟

أجاب وهو يهم بالوقوف ويغطي لحيته تراب الهزيمة....

لا يوجد قانون من أجل الفوز الدائم بالمعارك.

ثم أكمل وهو يدرك مدى قوتي....

من فـاز اليوم ليس بالضرورة أن يفـوز مجـددًا، سيلاحقك العـار والهزيمة يوم ما، وهذا اليوم ليس ببعيد بل هو أقرب لك مما يكون.

قالها واختفى هاربًا، فأسرعت بالانتقال إلى مستشفى إسنـا التخصصي ويملؤني التفاؤل جراء معركتي التي خضتها من أجلها كما يملؤني التساؤل جراء أنها ليست هي المقصودة، دخلت غرفتهن وكنّ لازلنّ في غيبوبتهن المخيفة، أبصرتهن وتشقـق قلبي على حالهـن في حالة إن كنت قـد حضرت في الوقـت غير المناسب، وتخيلتهن من دون شعر، فعندها سيكون الموت هو الاختيار الأبشع لهن، هذا هو لسان حال السيدات، أحييني أنثى في حياة قصيرة ولكن لا تنزع منّي معالمها حتى وإن كنتُ خالدة.

توجهت رأسًا إلى غرفة الأطباء وصادفني صالح في طريقي، فأسعدني

هذا اللقاء لأنه سيوفر عليّ وقت البحث عن الطبيب الخاص بحالة السيدات، وهو سيوجهني إليه مباشرة اختصارًا للوقت، ولكنني أعلم بأنني لن أسلم من ثرثرته المميتة وبالفعل بدأها حين سألني باندهاش مُركّب....

ما الذي أحضر بك إلى هنا؟ ألم أتركك تحت تأثير علاجك بالنمسا؟

سألته عنّي متواريًا....

ماذا حدث بالتحديد صالح؟

أجاب شارحًا باستفاضة كعهده....

لقد تناولتَ جرعتك وتركتك بغرفتك كي تستريح من تأثيرها، ثم توجهت إلى غرفتي كي أستبدل ملابسي لتلك الزيارة، فسمعتُ السيد محمود البستاني ينادي عليك بصوت مرتفع جدًا، فهرولتُ إليك ولحقتُ بك لدى البوابة، وما أن خرجتَ من خلالها حتى فقدتَ وعيك ونقلناك إلى غرفتك.

أمسك ذقنه بحذاقة فارغة وفكر قليلًا ثم سأل بنصف عين....

كيف حضرتَ الآن إذن؟

تجاهلت شرحه وقلت....

لا تقلق، أنا بأحسن حال، كل ما عليك هو أن تدلني على الطبيب المسئول عن حالة السيدات.

استجاب صالح لطلبي دون ثرثرته المعتادة وصحبني إليه، وجدناه بمفرده في غرفة الأطباء يجلس على مكتب صغير في أحد أركانها، فدخلنا وأغلقنا بابها خلفنا ووقف لديه صالح كحارس مانع من دخول أي داخل

لا يتحمله الموقف، نظر الطبيب شاخصًا لذلك الدخول العصابي، ولكنه تعرّف على صالح فتيقن بأننا قادمان من أجل حالة السيدتين، توجهت إليه وقد اتكأت على المكتب محل جلوسه اتكاء يتباطئ من أهميته الوقت وقلت بحماسة ثورية انجذب من لهيبه الطبيب وغدا مصغيًا لي بِاهْتِمَامٍ تخطى البالغ، حيث سألت....

ماذا لو أحضرت لحضرتك اسم العقار السام الذي حيّركم منذ دخول السيدات في غيبوبتهن؟

تبادلت نظرات الطبيب بيني وبين صالح ثم ركّز حدقته في حدقتي وسأل بأمل يشوبه بعضًا من التقليل....

وهل تستطيع أن تصل لما فشلت مستشفى بكامل أطقمها في الوصول إليه؟

أجبته بكلمة واحدة....

الثاليوم.

اخترق الاسم مسامعه بينما كررته عليه وجسدي يعود إلى الاستقامة بعد الاتكاء....

إنه الثاليوم سيدي الطبيب.

نظر الطبيب فور كلماتي إلى صالح ثم نظر إليّ دون كلمات، لكن صالح تتطوع بفيض من ثرثرته المعتادة وقال وكأنه يغسل يده من فعلتي....

إنه يفقد صوابه، سيدي الطبيب.

وقف الطبيب ليس لكلمات صالح وإنما من وقع اسم العقار السام،

لدرجة أن كرسيه سقط للخلف من شدة انتفاضة وقوفه وقال....

من أين لك بهذا الاسم؟ كيف عرفته، وكيف توصلت إليه؟

لم أجب لأنه لن يصدق، ولأنني لا أمتلك الإجابة النموذجية كذلك، واختلطت مشاعري ما بين المفاجأة والخوف، هل أنا أخطأت في ذكري للعقار أم أنني خَطَوْتُ داخل منطقة طبية محظورة، ولم ينه ذلك الخلط إلّا خطوات الطبيب من مكتبه إلى صالح لدى باب غرفة الأطباء ثم وقف ونظر لي نظرة بها كمية محترمة من الارتياح وكأنني أكدت على أمر مشكوك فيه لديه وقال....

لقد أصبْت حقًا.

سكت قليلًا ثم أكمل لأهمية الوقت....

تعرف، لقد جئتنا في التوقيت الذهبي المثالي، وسنبذل قصارى جهدنا لمحاصرته دون ترك أي أثر.

سألت الطبيب وكأنني استشاري مبعوث من جامعة عالمية لمتابعة تأثيرات السموم على سكان العالم النامي....

هل سننجح في محاصرة عَرَض تساقط الشعر لدى مبتلعي العقار؟

انبهر الطبيب من دقة اختياري لألفاظي في السؤال المطروح، وقد فاض احترامه لي من جوانب إجابته، وصل مداه لدى صالح الذي فتح ثغره انبهارًا من جودة النقاش الدائر بيننا، حيث صرّح الطبيب قائلًا....

لا تقلق، فلقد أحضرت لنا سبيل الترياق، ولا أعلم إن كنت تدرك أهمية إنجازك هذا أم لا؟

قال الطبيب تلك الكلمات وخرج من غرفة الأطباء مسرعًا لتنفيذ ما توصل إليه توًا من اكتشاف قد يساعده في إعلاء ترتيبه على السلم الوظيفي، خرج وما ترك لنا خلفه سوى الغرفة الخاوية ونظرات صالح المنبهرة من ذلك المشهد الذي أنطقه رغماً عنه وقال....

من أين لك كل هذا أيها الفذ؟ أأصبحت طبيبًا من دون أن ندري؟

شعرتُ في خروج الطبيب وكلمات صالح بأنني أزحت من فوق صدري صخرة صماء عديمة المسام باحتمالية نجاح معركتي في شفاء السيدتين وأن أول بند في ترتيب أولوياتي التي أعدّها لي العجوز قد نجحت وحان الآن بقيتها، وترجمت ذلك الشعور في ضرورة ترك مسرح مستشفى إسنا التخصصي والرجوع إلى منزل النمسا لإعداد انطلاقة جديدة من منصة ثابتة حيث قلت لصالح....

سأتوجه الآن إلى المنزل كي أنال قسطًا معلومًا من الراحة وعليكَ أنت أن تتوجه إلى نقطة شرطة النمسا على وجه السرعة كي تطّلعَ على ما جدّ في اختفاء نادر، وبالفعل نفّذ صالح ما اتفقنا عليه وخرج من باب غرفة الأطباء وبمجرد رجوعه لطرح ما أظنه سؤالًا آخرًا ليس في محله بالتأكيد، لم يجدني، إذ استدعيت مراسم الرجوع لإنهاكي.

رجعت، وبمجرد استفاقتي رأيت نفس الوجه الذي تركته توًا قبل انتقالي وهو يحدّق بي وأنا بغرفتي متسطح السرير، إنه صالح، حيث قال....

لقد ذهبت إلى نقطة شرطة النمسا كما اتفقنا، ولكن للأسف لا جديد في أمر اختفاء نادر وقد أكد لي سيادة الرائد أن عمليات البحث قيد العمل والمتابعة على مدار الساعة وسنبقى على اتصال دائم في حالة حدوث أية مستجدات، ثم عدتُ أدراجي إلى مستشفى إسنا التخصصي وقد جئت

من هناك بالخبر الجميل.

جلست فجأة وسألت من دون كلمات....

ممممممم.

أجاب مستبشرًا....

لقد نجحوا بالفعل في التوصل إلى نوعية العقار السام وبدأوا في تنفيذ خطوات العلاج السليمة، والفضل كل الفضل يعود إليك وهذا ما ذاع صيته بين كافة الأطباء بالمستشفى، ثم أنهى حديثه بسؤال....

لما لم تسترح حتى الآن؟ لقد جئتُ من رحلتي تلك وقد أخبرني السيد حجاج بأنك بدورة المياه منذ ما يقرب من ساعتين إلى أن أخرجتك منها وأحضرتك إلى غرفتك وسريرك، أأنت على ما يرام؟

أجبته وقد عاد إدراكي لي....

نعم، أنا بأحسن حال.

قال صالح وقد بدا على وجهه الانفراجة من الخبر القادم من مستشفى إسنا....

الآن موعد جرعتك المسائية، يجب أن تحافظ عليها حتى موعد قدوم طبيبك من أسيوط، بالمناسبة هو على وشك الحضور، ليال معدودة ليس أكثر، فلنلتزم بما أقره الطبيب، أرجوك.

تناولت الجرعة وأعلم تمام العلم بأنها مجرد خطوة لتهدئة ثرثرة صالح، كما أنها قد تكون مدخلًا لحلم تنجح رؤيته في اكتمال تفاصيل المشهد الذي أفادني به العجوز، حيث قال إن الأضلاع المترابطة بين الواقع والحلم لا تحتاج

إلى القُرب الزائد فتختلط الخيوط، ولا تتحمل البُعد الزائد فتتوه التفاصيل.

بدأ تسلل مفعول الجرعة اللعينة رويدًا رويدًا وتذكرت أنني لم أتناول أي طعام منذ نشوب معركتي مع الأشعث، لكن جسدي يرفض الانصياع لأي أمر سوى الاستجابة للإرهاق ومفعول الجرعة المسائية، ونمت، وإذ بي أجدني داخل سيارة فارهة كم تمنيت امتلاكها، وبنفس الملابس الفاخرة التي ارتديتها في الحلم السابق ويعلوها ذات المعطف الفخم وفي جيبه مفاتيح أعلم بوجودها سلفًا، قادتني السيارة إلى شقتي بالقاهرة التي أحيا بها بمفردي، تلك الشقة التي لا أعلم عهدي السابق بها كان على أي شكل، والتي لا تليق بالهيئة الرائعة التي أبدو عليها، قمت باستبدال ما أرتديه وتوجهت رأسًا إلى مطار القاهرة الدَّوْليّ، استقللت طائرة خاصة، ويبدو من معاملة كل من أقابلهم بأنها لي هي وممتلكات أخرى، والأكثر غرابة بأن وضعي الحالي لا يمثل لي أي جديد وكأنه المعتاد دومًا.

نزلت الطائرة بعد منتصف الليل بمطار مدينة الأقصر الدَّوْليّ وكان في استقبالي سيارة فارهة من نفس نوعية الطائرة الخاصة والمعطف باهظ الثمن، قادتني إلى منزل النمسا وتركتني لديه ورحلت، دخلته وتوجهت مباشرة إلى بوابة العبور التي تقبع في نهاية الحديقة، تلك البوابة التي منذ أن عبرتها ومن وقتها قلبتْ حياتي رأسًا على عقب، وقفت لديها أستحضر إحداثيات موقع لا أعلم وجهته ثم عبرتْ، وقد مرتْ عليّ مراسم العبور مرور أكرم من الكرام وإذ أجدني ممتطيًا جواد حالك السواد، لجامه شعره وأقبض عليه بيُسراي، أقف به فوق صخرة ملساء مُقاتلًا لا يتبعني جُند، قابضًا بيميني على سيف فولاذي أمام صدري بلا غمد، مرتديًا عباءة سوداء بغطاء رأس مصدره ذات العباءة، مكتمل الطاقة والقوة لأعلى الدرجات، تلمع عيني بدمع الرغبة، راصدًا طريقًا صخريًا مخيفًا تترامى على جانبيه زِنْزَانات تُقاطع

قضبانها أيـادي لأرواح أسيرة ترجو إطـلاق السراح، يعلـو على صرير أنفاسها أصوات ترانيم خفيّةٍ بلغات متداخلة، ويدفعني نداء داخلي مجهول لتحرير ذوي الأيادي، وأدركُ أن التحرير يستلزم قتالًا، كما أدرك أنه لا مفر لتلك الأرواح سواي.

وقد وجدت حقاَ ما أدركته، فاصطف عبر الطريق الذي يحوي الزنْزَانات جنود ملعونين معلومي الهوية أحفظهم كملامح وجهي تتزايد أَعدادهم كما تتعالى أطوالهم كما يحدث كل لقاء، يقودهم ساكن الظلمة تحت شلاله المخيف الذي تبعه حين تقدم من خلف الاصطفاف حتى أصبحَ في الطليعة، وما كانت تلك الطليعة سوى سرية بين سرايا عدة، فجاء أمر الهجوم من تحت شلال الظلمة، آمرًا جنوده ذوي الهيئات المرعبة بالاجتياح، وفي المقابل صدر أمر رد الهجوم من النداء الذي يكمن داخلي، فَالْتَقَى جمعهم مع سيفي وأنا على صهوة جوادي أمده بالطاقة ويمدني بالرشاقة، أضرب عنق هذا وأنحر رقبة ذاك، تتطاير الأشلاء وتتناثر القطع وتنفجـر الدمـاء، يتناقص عددهم ولا تتناقص قوتي، أقاتل ونصب عيني ساكني الزِنْزَانات، فتحريرهم هو المراد.

وما أن كفّة التحرير كادت تميل ناحيتي، إلّا وجاء الأمر بإرسال سريتين آخرتين للدعم، وما كان ذلك الإمداد إلّا خطوة استباقية لدك حصون التقدم، فازداد العدد مِن حولي، وفقد السلاح الفولاذي في يدي صقله وبات يحتاج إلى إعادة الشحذ لمجابهة الأعداد الغفيرة المتزايدة، ولم تسعفني القوة، وما نفعهـا دون أداة، وسقط غطـاء الرأس جراء الضربات متعـددة المصادر وهوَت قائمتي لتصطدم بصخرة من صخور ميدان القتال، فسال الدم وارتج العقل داخل الرأس وبدأ مراد تحرير الأرواح الحبيسة في التلاشي شيئًا فشيئًا، حتى اختفى تمامًا مع فقدان الوعي الذي حل بالضرورة.

استفقت وسألتُ بعقلي بينما جسدي راكدًا....

ما هذا الحلم الذي زاد تفصيله عن سابقه؟

أيعقل أن يتداخل مع واقعي إلى هذا الحد؟

على أية حال لا يوجد أمامي سوى أن ألتزم بجدول أولوياتي المحدد والذي سيكون إلزامي التنفيذ، وأكاد أجزم أن لهذا الحلم إضافة قد تنجح في تهدئة التشتت المشتعل بداخلي.

قمت من نومتي التي لا أعرف عدد ساعاتها، إلّا أن ضحى الشمس أفادني بأن الليل قد وَلّى هَاربًا، تاركًا خلفه جثة في أشد الحاجة إلى ما يقيم قائمتها، وسعيت لذلك جاهَدًا فخرجت من غرفتي بعد أن أبدلت ملابسي المنهكة إنهاكًا متزايدًا كجسدي، وقد تهللت أساريري إذ وجدت شاغلي المنزل قد جهّزوا فطورًا ملكيًا وفي ذلك دليل على أن الخبر القادم من مستشفى إسنا التخصصي قد صبغ الحياة في النمسا بلمحة من التفاؤل كانت مفقودة.

اجتمعت أنا وصالح على المأدبة الصباحية وقد بدا على كلانا الراحة المسلوبة بعد النوم ولكنه لن يفوّت فرصة أيًّا كانت في تنفيذ فضوله الصُحفي في استخلاص أي سبق يهدأ به حيث سأل....

من أين عرفتَ نوع العقار السام؟

ما اسمه؟

تجاهلت فضوله المستفز وسألت....

ماذا سيكون رد فعلك يا صالح إن اكتشفت بأنني لست الشخص الذي طالما عرفته بأنه كمال؟

أجاب بلطافة لم أكن أتوقعها للأمانة....

حتى وإن كنت لم تكن ما أنت عليه، فيكفي أنني عرفتك ورأيت حقيقة ما أنت عليه.

نظرَ لي بتمعنّ ثم أكمل بصدق....

على الرغم من مرضك الواضح للجميع، وعلى الرغم من رفضك الاعتراف به ونحن كلنا نعلم ذلك، فإن هذا لم يمنعك من تقديم مصلحة غيرك على مصلحتك حتى في أضعف حالاتك.

تدخلتُ سائلًا....أضعف حالاتي؟

تجاهل تدخلي وأكمل في انسجام....

عليك أن تتأكد أن أمر شفاءك يتعلق بالالتزام بالجرعات العلاجية ليس إلّا، وقد اقترب وصول الطبيب كما قلت لك سابقًا، وأنا يا كمال لن أتركك، صدقني يا صديقي، لن أتركك.

دمعت عيناي من صدق حديث صالح دمعة أخفيتها داخل ابتسامة ومن بعدها أشحت بنظري بعيدًا ثم عدت إليه بعد أن جفّت وقلت....

وأنا لن أنساك يا صديقي.

لن أنساك.

***

(١٧)

صعدتُ بعدها إلى غرفتي بلا جدول أعمال محدد ووقفت في منتصفها وأنا أتعجب من مقولتي التي أنهيت بها حديثي مع صالح أثناء وجبة الفطور، وسألتُ نفسي مرارًا، لما لم أقل له مثلما قال لي....

"لن أتركك يا صديقي".

لما بدرت من فمي تلك الجملة التي لم يكن يقصدها عقلي....

"لن أنساك يا صديقي"..

لما "لن أنساك" أم أن إدراكي هو الذي أرادها وقصدها، فلربما عند تنفيذ بنود أولوياتي بمعرفة من أنا؟ سيختفي وقتها صالح ومن أعرفهم جميعًا من مخيلتي وأنسى من حييتُ بينهم ويظهر على السطح من هم أحق بمعرفتي وأنا أحق بمعرفتهم، فياله من إدراك معيوب من رأس تدرك وتتأكد من أنها ليس مشوّشة.

كان نتاجًا لهذا الإدراك معدوم المصدر أن مزقت أوراقي التي لطالما دوّنت بها ما دار خلال وثباتي هنا في النمسا، لقد مزقتها دون أثر، كما حطّمتُ هاتفي الذي يحمل أهم أدلتي الخارقة "صور كيان"، تلك الأنثى التي ستكون منحة وهبة نفيسة لمن تُمنح له، وكأن في تحطيمي وتمزيقي لأدلة قد تكون دامغة خير إثبات على أني لا أحتاجها هي أو غيرها.

وقد نفذّت ما نفذته بكامل إرادتي وكامل الراحة التي كنت أحتاج منها جزءً ولو بسيطًا كمنصة انطلاق لمخطط بدأت في تشغيله بإنقاذ كيان، إلى أن

جاء صالح مباغتًا باب الغرفة بطَرْقٌ فاق الطبقة العالية بمعدلات مزعجة، فظننت أنه قد أتى بخبرٍ أسود من مكانٍ ما، كنتيجة طبيعية لنوعية طَرَقَاتُه، ولكنه دخل بوجه بشَوش حاملاً بُشرًى يظنها سماوية حيث قال صارخًا مبشرًا.....

لقد أتى يا كمال، لقد أتى.

قلت بملامح تحمل الضيق ولازال وقع طَرَقَاتُه يؤذي مسامعي....

من هذا الذي أتي؟ ولما كل هذا الصراخ؟

اقترب مني صالح في فرحة عارمة أرى أنها مُبالغ فيها وقال....

الطبيب إلياس، إلياس أُحد.

ثم أكمل بعد أن هدأت جوارحه.....

لقد أنهى مؤتمره الطبي بكلية الطب جامعة أسيوط وحضر كما وعدنا تمامًا، وقد أراد أن يقابلك وها قد أتى، أتريد أن يصعد الآن، أم أنك أنت الذي ستوافيه نزولاً؟

نظرت لصالح ثم نظرت لرفات ما حطمته ومزقته توًا وقلت....

يحضر إلى أين أيها الجاهل؟ أنا الذي سأنزل له على وجه السرعة.

بادلني صالح بنظرة مشابهة إلى رفاتي ومن ثم إليّ وقال....

وأنا سأسأل السيد حجاج أن يقوم بتحضير شيئ ما لتقديمه لسيادة الطبيب.

ثم وصل إلى باب الغرفة وقال باندهاش مُركّب....

ياله من شخصية مهيبة ووقورة يا كمال.

قمتُ بهز رأسي مع نصف ابتسامة زائفة حتى أكبح انبهار صالح بشخصية الطبيب من ناحية، ومن ناحية أخرى كي يخرج ويتركني لشأني مؤقتًا لتجهيز نفسي هندامًا ونفسيًا لمقابلة إلياس أحد.

إلياس أُحد، أحد أعظم أطباء المخ والأعصاب في الأقطار العربية جمعاء، استشاري المخ والأعصاب وعلاج آلام الأعصاب بمستشفى القصر العيني، زميل كليه إمبريال كوليدج لندن بإنجلترا، دكتوراه المخ والأعصاب جامعة القاهرة، زميل تأهيل النفسية والعصبية بمستشفى فالدوس، إيطاليا، عضو الجمعية العالمية للصداع، رئيس وعضو الجمعية المصرية لأمراض المخ والأعصاب، دكتوراه في الطب النفسي، وحاصل على زمالة المجلس العربي للطب النفسي.

هذه ليست سيرة ذاتية لأحد الأطباء يريد الترشح لأعظم المناصب الطبية المرموقة، ولا لافتة لعيادة طبيب تأخذ حيزًا أكبر من الطبيعي في مدخل أكبر أحياء العاصمة، وإنما مجرد تعريف بالقامة التي تنتظرني بالبهو، تقترب سنينه من عُمر السيد رئيس التحرير كما أنه صديق شخصي له، أهم عضو في الفريق الطبي الخاص للسيدة أريام والسيد كمال العمّاري، ويحمل له من الأسرار مثلما تحمله خزانته الشخصية، وعلى الرغم من أنه يعلم أضرار التدخين ولكنه مُدخن غليون شَره، وكأنما يتحدى المخاطر ثقةً في طبّه، كثيف الشعر كما أنه كثيف الثقافة.

هذا ما كان يدور ببالي وأنا أتوجّه نزولًا لملاقاة طبيب يعلم كافة المخارج والمداخل لمرض يتأكد الجميع من إصابتي به، وكأنني في طريقي لملاقاة والدة عريس تنوي أن تتفحص عروس وحيدها قبل عقد القران، ينتابني القليل

من الخوف مع الخجل والكثير من التخبط، وما ظننته أدركته بالفعل عند نزولي على سلالم المنزل وهو يجلس ببهـو المنزل يضع يمنـاه على يسراه على مقعد من أحد مقعدين تـم وضعهما خصيصًا لتلك الجلسة بنـاءً على طلبه، تتوسطهم طاولة متوسطة الحجم وُضع عليها ما أعده له السيد حجاج الذي يقف مع صالح والسيد محمود البستاني محيطين به وكأنه يمثل بمفرده وفدًا أجنبيًا رفيعِ المستوى، يرمقني تفحّصًا من خلف نظارته السميكة، ومع كل خطوة نزولًا صادرة عنّي يقابلها هو بأنفاس عميقة من غليونه، رشفها سويًا ثم أطلقهم مرة واحدة، فأصدر سحابة ضبابية أضافت للموقف غموضًا بجانب خفوت الإضاءة على الرغم من أن موعدنا نهاري، وقف بمجرد ما أن تواجهنا، مد يده تزامنًا مع نظرة ثقة عميقة من طرفي انصهرت على الفور بسبب لفح نظرته من أسفل نظارته، وقال بوضوح دون مقدمات وبنبرة أب يستخلص شاهد عقوبته لابنه منه شخصيًا....

من أين عرفتَ الثاليوم؟

ثم سأل ثانية وهو يشد بيده على يدي لالتقائهما معًا....

عقار السيدتان السام؟

أدركتُ سريعًا من سؤاله أنه لا يعرف الكثير فحسب بل والتفاصيل أيضًا، وأنه قد أتي ليحل المعضلة لا لتشخيصها.

لم أجب، ونظرت إلى صالح وأنا أندب بداخلي حماقتي على تمزيق وإتلاف أدلة قد تفيد في إثبات صحة ادعائي لرجل قادم من أعمق مناطق العقل.

سأل مجددًا بعينه وحواجبه فقط دون أن يترك يدي.

أجبت بابتسامة واجبة مع ثقة عالية عكس ما تخفيه أعماقي....

لستَ وحدك المثقف الفذ، سيدي الطبيب.

ابتسم ابتسامة لا تتماشى مع قولي وقال بعد أن حرر يدي من براثن يده ببطءٍ شديد....

لا يعرف الثاليوم إلّا الأطباء أو الدجالين مرتادي الشعوذة.

مَطَتُّ شفتاي ورفعت حاجبي دون أن يصدر مني أي إجابة.

قال وهو يجلس على مقعده بعظمة....

للأسف، وقتنا ضيق.

ثم نظر مباشرة إلى عيني وسحب نفس عميق من غليونه وقال ولايزال دخانه في صدره....

لقد انتهزت فرصة تعطّل المؤتمر ليوم واحد فقط وجئتُ توًا، وذلك بناءً على إصرار السيدة أريام قبل أن يحدث ما حدث، عفاها الله.

قلت وقد بدت بوادر سعادة على ملامحي من كلامه....

عفاهنّ.

ابتسم وأخرج ما احتبس في صدره، وطلب بأدب من الوقوف أن يتركونا بمفردنا ثم قال لي بذات الأدب....

أتمانع أن نتبادل أطراف حديث أتطلّع إليه شوقًا؟، مع العلم بأنك لستَ مجبرًا على الموافقة.

أجبته بابتسامة غير مكتملة وقد انصرف الوقوف جميعًا....

أنا ملكك.

قال وهو يشير لأن أجاوره الجلسة....

إذا جاز لي أن أسأل، ماذا عساي أن أفعل إذا خرجت من هنا دون الوصول إلى تصور مبدئي لما حضرت من أجله؟

سألتُ بانطباع بدايته التوتر ونهايته التركيز الشديد وأنا أتخذ موقعي من المقعد....

أتقصد حالتي؟

قال بخبرات متراكمة....

دراساتي النفسية بجانب تخصصي في مجال المخ والأعصاب تجعلني أصيب الهدف بنسبة تركيز عالية تقترب من المثالية، هذا إلى جانب سنوات عمري التي أفنيتها في المجال، كما يجب أن تعلم بأن طبيب السيد كمال العماري الشخصي ليس بطبيب عادي.

قلتُ باستغراب....

ثمّ؟

قال وهو يرجع إلى الخلف ويعيد وضع يمناه فوق يسراه وقد أطلق سحابة عالية من دخان غليونه....

أتود أن تشرح لي ماذا يحدث معك، وماذا ترى بالتحديد؟ أم أبدأ أنا بشرح أعراض مرض قد أكون قد توصلت إلى تشخيصه من خلال المعلومات التي وردتْ لي من أكثر من مصدر؟

قلت وقد بدأ اعتزازه بنفسه يثير عصبية أكاد أخفيها....

قُلّ ما أنت قد حضرتَ لقوله.

لاحظ إلياس عصبيتي بطبيعة الحال وقال بهدوء مثالي....

سأشرح لك، وعليك أن تتفهم شرحي لاحتمالية ثقله، وإن اتفق عرض ما من تلك الأعـراض المشروحـة مع ما يحدث معـك وصرحّتَ لي بذلك، سنكون إذن على وفاق مستنير، وستكون جلستنا التالية ما هي إلّا جني لثمار تعاون متبادل يعلم كلانا موعد حصاده، أما وإن أنكرتَ الصدق واخترت أن تدخل إلى دروب لن تكلّفنا سوى الإهدار، صدقني فسوف تتعدد جلساتنا وستتنوع أماكنها من أجل فقط أن نصل إلى تلك النقطة.

سألت وقد تملّكني بعضًا من الغطرسة....

أليس من المفترض أن يكون المريض هو المتكلم والطبيب هو من عليه الاستماع؟

قال وقد نسفَ غطرستي بإجابته....

ولنفترض أنك مريض على حد اعترافك.

فهل تضمن لي بأن ما ستُسْمعَني إياه يمكن أن يدخل ضمن مجال التصديق، أو على أقل تقدير هل يمكن أن يندرج تحت مسمى منطقية الأشياء؟

شعرت وقتها بأنه كان يجب عليّ أن أنتقل إليه يومًا ما حتى أنتقي من بين يومياته عمل مُشين أو نشاط غير لائق يضعه على طاولة الذُلّ أمامي، أو يعقد لسانه أمام شمس معارفي الصادقة، وسألت لعلي أتقدم عليه بنقطة في مباراتنا الجدلية تلك....

ألم يكن لك في الثاليوم مقدمة جيدة؟

قال ولم يعر سؤالي أي اهتمام....

أنا لا أستبعد مطلقًا ما قد تخـاف التصريح عنه، فكما للطب النفسي مداخل عظيمة سهلة الولوج من خلالها إلى مقصد الهدف، له كذلك أبواب خلفية لا يدركها إلّا من خاضها، فالمـرض النفسي والـداء العضـوي وجهان لعقل واحد.

قلتُ بثقة وقد نمى إلى مخيلتي صِدْق ما عشته واختبرته....

حتى وإن امتلكت أدلة تفوق الدامغة؟

سكتُ برهة ثم أردفتُ....

صدقني يا سيادة الطبيب، أنا لست بحاجة إليك، فالعهد الذي بيني وبين نفسي لن أنكصه أبدًا.

ارتشف بعضًا من مشروبه ثم قال في صدق ثوري....

نَكْص العهود ليس من مبادئ الأطباء يا كمال، فنحن في نفس الجبهة وسنقاتل سويًا مهما كان العدو، حتى وإن كان أنت، حتى وإن كانت نفسك التي تحملها بين طيات تكوينك، حتى وإن كنت تشعر داخل ذاتك بامتلاكك لأدلة دامغة من شأنها دحض أي دخيل يريد صدقًا وضع الأمور في نصابها السليم، بعكس ما يتفق عليه إدراكك.

قلت بحدة وقد تسلّل الملل إلى جلستي....

عليك أن تتذكّر بأنك قلتَ بأنني لستُ مجبرًا على البدء، كما أود أن أؤكد لك بأنني لستُ مجبرًا على الاستمرار.

أدرك إلياس بأننا على وشك دخول منطقة لا يرجوها طبيب لمريضه، كما

أدركتُ بأنني دخلت في إطار الاصطدام الحتمي في سور حديدي على الرغم من ضغطي على المكابح بشدة، وقال بهدوئه الذي لم يبرح جلستنا مطلقًا، سأحـاول الشرح بمنتهى البساطـة....

قد يُصاب بعض الأشخاص بمشاكـل في الذاكـرة أو تداخل وتناقض في المشاعر مثل الشعور بالخوف الشديد أو الفرح الشديد، وقد يحدث نسيان في الذاكرة قصيرة الأمد، ويصل إلى خلل في العواطف في بعض الأحيان، فقد يكون المريض مستيقظًا وواعيًا عند حدوث ما يسمى بالنوبات ولكنه يصبح غير مستجيب لما يحدث حوله، وقد يشم روائح غريبة أو الإحساس بمذاق مفاجئ، وقد يشعر في بعض الأحيـان بأنه يعيش فيما مضى، حيث إنه يرى أن ما يحدث في الواقع كان قد حدث في الماضي، وعند تلاشى النوبة لا يتذكر المريض ما قام به أثنائها ويكون سببها مجهولًا، وقد يلجأ بعض الأطباء في الحالات الأشد خطورة إلى تدخل جراحي لعلاجها، وقد يرجع أسبابها إلى ظهور أورام سرطانية في الدماغ عند المريض، أو نتيجة لبعض العوامل الوراثيـة أو مشاكل في جينـاته، أو التعـرض لضربة مباشرة في منطقة معينة بالمخ.

ثم أنهى ببساطة ما بدأه ببساطة وقال.....

هذا اختصار بسيط لتوصيف ما قد يمكن أن نتشارك في تشخيصه، والآن ضربة الإرسال في يدك يا كمـال، وعليك أن ترد اللعبة، قد تكون لهجتي في الشرح مقالية تقريرية طبية إلى أبعد حـد، لكن عليك أن تضع في اعتبارك بأنني قد توخيت الحرص بالفعل في كل كلمة منتقاة، اعذرني.

مرّرَ سرده الخطير شريطًا عشته ومررت به بداية من طعم حليب أمي في فمي، أو بمعنى أدق وأصح "أم نادر"، مرورًا بمشاعر عديدة منها صدمتي

الحزينة في زفاف كيان، نهاية بصدمة رأسي في صخرة ميدان القتال، كل هذا تراوح نشاطه ما بين الواقع تارات والحلم تارات أخرى، وأنا بين هذا وذاك لم أنتبه إلى أن كل كلمة صادرة عن إلياس أحد كان يتبعها بنظرة تحليلية عميقة لكل عرض صحيح مرّ بي أو مررت به، حيث كان يقوم بالتسجيل العقلي دون التدوين الورقي إلى أن إنتهى بأنه قد يكون بإمكاننا أن نتلاقى في نقطة مشتركة لجني ثمار تعاون متبادل في جلسة تالية مُتفق عليها وأنّـا بدأنا مرحلة علاجية مُبشرة.

قلتُ بثقة حادة من شأنها أن تنجح في وأد استنتاجاته وطموحاته في مهدها، وتمحى لديه نظرة الوصول.....

تشخيص شامل مانع جامع، وأضف إلى ذلك أنك تعلم أدق تفاصيل أعراضي، فما هو المطلوب منّي إذن؟

سأل وهو يعلم جيدًا أن سؤالي قد يكون شَرَكًا بيّن....

وهل أصبتُ فيما شخّصته؟

هممت مجيبًا برد أهوج يستند إلى هوى دون فكر، ولكنه كبح بحنكة راقية جماح مزاجي وسأل مجددًا....

هل كان للجرعات الموصوفة تأثيرًا إيجابيًا حين حافظتَ على توقيت تناولها؟ أم كانت سلبية التأثير؟

اختلط تفكيري في الرد ما بين الاستياء والإثبات، فلا أعلم كيف أدله على طـريق عـدم احتياجي له بالفعـل! ولا أدري كيف أزيـح نفسي عن طريقـه؟ فأنا داخلي محارب يبحث عن ذاته، وأمامي بحيرة ماء فاسدة لا يجوز أن أرتوي منها لمعرفتي لما قد تثمر عنه شربتي، وأرتاب من أن أعبرها

فأندمُ على عدم ظهور غيث آخر في طريقي، فقلت متذمرًا بنيّة إنهاء الجلسة العلاجية تلك...

ما هو المطلوب منّي إذن؟

قال بحرفيّة أبهرتني....

من الجائز أن أوصف لك بعض الالتزامات الواجبـة وأمضي وتمضي كلًّا فيما اختاره، ولكنني أشعر للأمانة بأنني على رغبة جمَّة لخوض ما ترفض أن تشركني به.

ارتشف من غليونه عدة أنفاس متتالية ثم اقترب من جلستي بخطورة وقال....

ربما تكون لديك تلك المغامرة التي لطالما بحثتُ عنهـا وتتوق روحي لاختبارها، أو تأخذني لعالم سمعت عنه دومًا من أُناس جعلوني أبسط كفّي لأرتوي منه ولكنه لم يبلغ فاهي بسبب مرضهم فعليًا، أرجوك امنحني تلك المغامرة، وإن لم تكن موجودة فأكون لك حينئذ طوق لا أقدر أن أطلقِ عليه نجاة، وإنما قد نطلق عليه إن جاز القول مساعدة، مجرد يد لتلتقطكَ من جريان في اتجاه شلال حتمي، وصدقني، صدقني إن أفلتَّ يدي فستكون الهاوية مريعة، وقد تكون قاسية بلا هوادة وذهاب بلا عودة.

ساد الصمت بداخلي قبل الخارج لأنه لمسَ بكلماته منابع الدموع التي لم تنهمر لفقداني عائلتي وكذلك حبي المبتور لكيان، كما وطأت كلماته مواضع العوالم الغريبة التي وطأتها قدمي دون أن يكون لي بها أو خارجها خليل أو أنيس، وتذكرت على الفور ذلك العجوز الذي لطالما طمأنني عن طريق حواراتنا الطويلة المتبادلة، فاقتربت من جلسته وقلت بصوت لا يسمعه إلّا

غليونه....

أنا أرى أناسًا لا يراهم أحد سواي، وأتحدث مع أناس لا يستطيع إنسان غيري أن يقيم معهم حديث.

قال دافعًا إياي على المضي في حرث وتقليب ما تكبّد داخلي....

إننا على الطريق ذاته إذن.

نظرتُ إليه مباشرة وقد تسارعت أنفاسي رغمًا عني وتغرغرت عيناي بدموع خفيفة حبيسة ثم قلت....

لقد فقدت كل ما تعلقت به روحي.

قال بنبرة انتزعت الإجابة من داخلي انتزاعًا وكأنني تحت تأثير تنويم مغناطيسي متقدم المستوى ....

قصَّ لي بعضًا من أحداث حياتك، ولا تتخير مواضع معينة، قص ما يجيش بداخلك.

قلت بتوتر....

اسمي كمال أسع.....

توقفت فجأة عن الكلام لأن هذا ليس باسمي على ما أظن ثم أردفت بريبة متداخلة ....

لا أعرف عائلتي أو أسمائهم، لا أعرف اسم والدي، وقد يكون كمال ليس اسمي من الأساس.

سأل وقد بدت الصداقة واضحة في حديثه....

ألا تتذكر من أين جئت؟ أو تعرضك لحادث؟ أو قد تكون قد عانيت من مرض ليس لك به علم؟ أليس كذلك؟

لم أجب لصعوبة أسئلته.

وقفَ واقتربَ منّي وقال في ود لافت....

أتمانع أن أتفقد بعضًا من مواقع جسدك؟

لم أمانع ولم أرد، وتابعته فقط بنظري وهو يُنفِّذَ ما همّ القيام به وقد اقترب من رأسي وبدأ يتحسس مواضع معينة في رأسي حتى وصل لمنطقة نتج عن ضغطه عليها ألم جلب معه الألم الذي تعرضتُ له خلال معاركي في أحلامي، فلم يبدر عني ردة فعل تجاه ضغطة يده، لكنه شعَرَ بأنه ثمة شيء انتابني عند تلك النقطة بعينها، فأعاد الضغط مجددًا ولكن بقوة تزيد عن المرة الأولى، قوة جعلتْ مشهد الألم يتراء أمامي رأي العين، فتأوهت من ذلك الضغط واستخلصت رأسي من يده ووقفت ممتنعًا عن استكمال ما بدأه وقلت بثورة لا تبدو خامدة....

هذا يكفي، يكفي ما خضناه اليوم، لقد تمكن الإرهاق منّي بالفعل.

رضَخَ إلياس فورًا لممانعتي رضوخًا أنهى المظاهرات الاحتجاجية داخلي والتي كانت على وشك إطلاق قنابل مسيّلة لكل ما هو مكبوت، لأنه بطبيعة حال المتمرس لا يريد أن يخسر الأراضي التي قام باحتلالها داخلي من خلال استعمار كلماته التي لمستْ التكتلات الخاملة، كما أنه يريد أن يحافظ على جسور الثقة التي مدّها من خلال علاقته معي التي بناها بيننا، مع كمال، أو مع مهما يكن.

الأمر الهام إنه استجاب لإثارتي وقال بذات الود....

لك ما تريد يا صديقي، ولكن اسمح لي أن نلتزم ببعض الإرشادات التي سأقولها لك حتى نتقابل مجددًا.

ابتعد قليلاً ثم قام بإشعال غليونه الذي انطفأ من سخونة ما توصلنا إليه، أنا كتائه يريد الاختلاء بنفسه على الفور كي أستعيد حسابات أدرك بأنها خاسرة لا مناص، وهو كطبيب أدرك من خلال خبراته أنه أنار جانب يتأكد من ظلمته، ثم قال....

الآن فقط قد اطمأننت عليك كليًا ولكن يجب عليك أن تحصل على قسط كاف من النوم، حيث يمكن لقلة النوم أن تعمل على حدوث تلك النوبات، كما ينبغي عليك المحافظة على تناول الجرعات في وقتها ولا يجوز تناولها بشكل عشوائي.

شعر إلياس بأن الملل قد تسرّب إليّ بالفعل، فقال بابتسامة تبدو حقيقية....

وأخيرًا يتعين عليك ارتداء الخوذات عند قيامك ببعض الأنشطة الرياضية، مثل قيادة الدراجات، والأفضل ألّا تقوم بأي نشاط من الأساس.

أنهى حديثه بوجه يعلوه ابتسامة نصر عريضة، كتلك التي تبدو على وجوه المُرشّحين أثناء وقت التصويت، وقد انتبه الجمع لنهاية الجلسة فحضروا جميعًا متهللين من أثار الجلسة التي تَفَيَّأَتِ نتائجها حول جلستنا وحضر معهم ذلك العجوز الذي لا يراه أحد سواي، فنظرتُ له وتتصارع داخلي تساؤلات تشتاق لأجوبة، وقد عاينت الوقوف مختلسًا النظر حتى التقى ناظري بنظر إلياس الذي بادرني بسؤال سريع حيث قال....

أهناك خطبًا ما يا كمال؟

أجبتُ وقد أشحتُ بنظري تجاه العجوز الذي لا يزال ظاهرًا لي وعلى وجهه ابتسامة تشجيعية لا أعلم معناها، حيث قلتُ....

لا، الأمر على ما يرام، على ما يبدو.

ثم سألت بعد أن رجعت إلى إلياس بكامل عيني....

متى ستحضر مجددًا؟، أو متى سنلتقي؟

أجاب إلياس وهو يهم بالوقوف تزامنًا مع دخول سائق العائلة لاصطحابه إلى المطار ليعود أدراجه حيث مشاغله....

سأعود لأنهي فعاليات مؤتمري الطبي وبعدها سنرتب موعدًا، قد يكون هنا بالنمسا، لكن الأقرب سيكون بالقاهرة.

قال ذلك ثم وضع يده فوق كتف صالح وسأل....

كم من الوقت ستمكثون بالنمسا؟

أجاب صالح سريعًا....

من المفترض حتى انتهاء المهمة التي حضرنا لأجلها، ولكن نظرًا للتغيرات التي طرأت هنا سنكون قيد انتظار خروج السيدات من المستشفى والاطمئنان على زميلنا نادر، هذا ما لم نتلق تعليمات أخرى قادمة من القاهرة.

نظر صالح تجاهي ثم إلى إلياس وسأل....

حقًا، ألم تتواصل مع السيد رئيس التحرير، فنحن غير قادرين على التواصل معه بالمرة؟

أجاب إلياس ولايزال واضعًا يده على كتف صالح وقال....

لا تقلق، فتلك من عادات السيد كمال العمّاري، يختفي لفترات ولا أحد يستطيع تحديد أين اختفى، ولا يجرؤ أحدًا على تعقّبه.

قالها وربّت على كتف صالح ثلاث كشكر واضح على إمداده بسيل من المعلومات الهامة لمواجهتي، هذا ما ظننته، ثم نظر صوبي مباشرة بعد أن أكتشف شرودي بحثًا عن العجوز الذي تبدد فجأة وقال....

سنلتقي مجددًا أيها البطل.

سكتَ برهة ثم قال مؤكدًا....

عليك أن تلتزم بالجرعات العلاجية كما اتفقنا، وأنا سأمُر على مستشفى إسنا التخصصي للاطمئنان على السيدتين ومنها إلى المطار، وأومأ برأسه إلى السائق للتنفيذ ثم انطلقا.

خروجهما من المنزل بدا للجميع خروجًا طبيعيًا، وهو في الواقع كذلك إن كانت مجريات الأمور تتّخذْ منحى آخر غير الذي أحيا به، على كل حال فقد عادتْ الحياة بالمنزل إلى أوج طبيعتها بعد دخول الليل، ظهر ذلك من خلال الأنشطة المنزلية المعتادة، حيث قام السيد محمود البستاني باستكمال أعمال البستنة التي لا تنقطع، وقام السيد حجاج بتحضير وجبة العشاء والذي بدا صالح متشوقًا إليها تشوقًا مخيفًا، بخلافي، لأنني فضّلتُ أن انزوي بنِفسي داخل غرفتي، وقد اهتديت إلى ذلك لإعادة تحليل لقائي مع إلياس أحد، ذلك اللقاء الذي يبدو للجميع مجرد مشهد لا يخرج عن طبيب ومريض، ولكنه بالنسبة لي، غير.



(١٨)

كيف دخل إلياس بتشخيصه إلى انتقالاتي؟

كان هذا السؤال يتصدر طليعة الأسئلة التي تتصارع داخلي إلحاحًا، بجانب أسئلة أخرى تتوالى في الإلحاح، مثل ما وضع عائلة نادر ورؤية كيان لي في واقعة التسمم؟ ومن أين لي اسم العقار السام؟ وأين تلك التساؤلات مما قمتُ بتدوينه ومزقّته، وصور كيان التي حطمتها بهاتفي توًا، أين تلك الأسئلة من كل ما عشته وعايشته بجسدي وروحي ومشاعري، وما وضع فص صدغي الحقيقي؟ وكيف دخلوا هؤلاء الأشخاص في دائرتي وكيف دخلت في دِائرتهم، أيمكن بعد كل تلك البراهين أن أكون مصابًا بما توصل إليه إلياس أحد؟

يالها من أسئلة قد بلغ منّي الضيق من كثرتها مبلغًا باهظًا لم أعد قادرًا على توفيره، بل وبدت قسوتها على ملامحي كقسوة السنوات على ملامح المُسن، فلم أعد كمال الأنيق المتأنق، بل لم أعد مقتنعًا بأنني كمال أساسًا، وهذا ما أضافته جلسة إلياس التشخيصية، وعلى الرغم من شراسها لكنها لم تنل من ثقتي بعبوري بشيء، وكذلك لم تبخس حقي في كوني مميزًا، لكنها قدّمتْ ترتيبي في مضمار ركضي نحوي، فحياتي ومن بعدها كل الحيوات، وهذا ما توصلت إلى ضرورة إنهاءه، حتمية الوصول إلى إجابات لتلك الأسئلة....

من أنا؟

ومن هم هؤلاء الناس في حياتي؟

نعم، هذا هو السؤال الأهم، هذا هو السؤال الأول والأخير، لقد تأخر وتأخرت في طرحه لدرجة أني تعلّقتُ بأشياء جعلتْ لحياتي مذاقًا مُرًا حد العلقم، لذا وجب ترتيب ما بعثرته تلك الرحلة عديمة المعلومات سواء عند انطلاقها أو عند هبوطها.

وما أن وجب الترتيب والتنفيذ، وقد هممتُ لذلك فعليًا، إلّا ومر خلفي طيف سريع كسرعة البرق، ولم يكن الفـزع وحـده هو الذي حضر معه وإنما حضر معه كـل ما فـات من أسئلة، وما أن التفتُ إلى مسار مـرور الطيف السريع خلفي إلا ولم أجد له أدنى أثر، فتكـرر المـرور الخـاطف ومعـه الالتفات البارق مرات ليست بالقليلة، حتى كدتُّ أُصاب بالغثيان من كثرة الالتفاتات، وصرخت صرخة بالغة قادرة على استدعاء مسئولي حقوق الإنسان من داخل مكاتبهم، حيث سألت مرتابًا....

من أنت؟، وماذا تريد؟

جاءني الرد من أحد أركان الغرفة حيث قال....

ما عليك سوى الثبات، اثبت على ما أنت عليه، تتبع حدسك وستصل.

اتجهت سريعًا لمصدر الإجابة فوجدته ذلك العجوز يقف بجلبابه العتيق ويملأ وجهه ابتسامة عريضة ثم قال....

صدقني ستصل ما دمت قادرًا.

قلت بخيبة أمل دون أن أتحرك من مكاني....

لكن الشواهد ترجّح كفة مرضي، وكلامي معك أيضًا يؤكد ذلك.

قال بنبرة تشجيعية خالصة مُهدئًا إياي ....

أنت الذي بيدك الشواهد، وبيدك أيضًا نفيها وإثباتها، لا عليك سوى أن تتبع حدسك وستصل.

سألتُ بصوت مرتفع للغاية...

من أنت إذن؟

أجاب سريعًا....

أنا دليلك الأمين، ومرشدك الوفي.

سألتُ باستغراب متعدد....

ومنذ متى وأنت لي كذلك؟ لما لم يكن دورك واضحًا بالنسبة لي منذ بداية ظهورك في حياتي؟

تحرك من ركنه والتف حول وقوفي وأجاب شارحًا....

أتعتقد أن هذه البوابة هي المنفذ الوحيد لذلك العالم الذي وطأته قدمك، أتظنَ أنها منفذك السري الخفي لما لا يستطيع غيرك النفاذ إليه، إن كنت تعتقد ذلك فأنت مخطئ، فكما للسماوات أبواب لا يتم النفاذ إليها إلّا من خلالها، كذلك هذا العالم، له منافذ بعينها، لا يتم الولوج إليه إلّا من خلالها، وتلك إحداها، ولكل واحدة عجوز، وأنا عجوزك.

سألتُ باستفسار مُركّب....

ماذا تقصد؟

أجاب بعنفوان شاب في الثلاثين شعرت به....

أنت رأس السهم، ولا يمتلك القدرة على زيارة هذا العالم إلّا من مُنحتْ له تلك العطية، ومن قُدر له يومًا زيارته فَعَلَيْهِ الالتزام بمعاييره،

على ألّا تتبدل مبادئ الزائر حتى ولو سراب الطموحات لمع بريقه، ووهج الإغراءات تزايد وميضه، وغُدَد الفضول أفرزت هُرمونها، فالثبات قرين الثقة، ومن فقد الثقة بنفسه، فقد نفسه، ومن فقد نفسه هان عليه الاختيار وتلاشى مغـزى تواجده وكيـانه، إذ ربما يوم ما تكون قادرًا على تحرير من لا يستطيع تحرير نفسه.

رنَّ صدى كلامه بمسامعي، وكأنها قطعة مُعادة من شريط مخزون داخل إدراكي مرّ عليها سنوات ضِعفَ سنيني، وأزال من فوقها غبار ضِعفَ ما يغطي الصحراء التي تقبع خَلف البوابة، وأيقنت من خلال القيثارَة المُرنّمة تلك، بأن البوابة ليس مجرد وسيلة لطيّ الأماكن والأزمنة، كما أنها ليست متعة شخصية للسيادة والسلطان، ولكنها طموح استثنائي إلى التحرر لتلك الأيادي التي لطالما رأيتها تتقاطع وتتعارك مع قضبان زنزاناتها في أحلامي المتكررة، وأن كمال أو مهما أكن أمسيتُ ركنًا أصيلًا من الحدث، فربطتُ بين العبور والأحلام وبين الشراكـة التي أبرمتها، وبادرته بسؤال عميق كما لو كنت الماعز الذي وُضع طُعماً لاستدراج الديناصور إلى مكان مُجهّز ومكشوف للقتال، حيث سألتُ....

وما هي استراتيجية القتال، وما هو المطلوب مني بالتحديد؟

أجاب مباشرة بذات العنفوان الشبابي....

بمجرد أن تذنب النفس وتستحلّ فعلتها فإنها تتعلّق تلقائيًا بمسوخ الرذائل ويتعلقون بها، وتتّحد مع جنس ما نعمتْ به، ويشكّلون معًا حيدًا من الانسجام كالحيد المرجاني الحاد الذي يجرح كل من طاف أو سبح بالقرب منه، كما يستحوذ عليها مريدو الذنوب للسيطرة، فيتولون هم زمام الأمور بينما تُسجن هي في زنزانة يطلق عليها مجازًا زنزانة الوحدة والندم

ترجو التحرر، وتبقى مسلوبة وأسيرة للمتعة الزائلة عن طريق التمنّي بطول أمدها.

نظر العجوز مباشرة إلى عيني، وشعرَ من خلال كلماته الفلسفية العميقة بأنني تحولت إلى فارس تائه داخل عباءته الفضفاضة، كالجرس الذي يرن دون إدراكه لموعد وقوفه، ولكنه تجاهل رنين تيهي وأكمل....

تعد الزنزانة مرآة داخلية يعكر سطحها انعكاسات ذات متاع زائف هدفه الإلهاء، ويقوم عليها نُسَخ مُوحشة من ميول النفس الهاوية لهوى الرذيلة، والأرواح ما بين الثبات والهوى أصناف، منهم من تقيّده الرذيلة فيصبح عبدًا لها وتقوده ظنًّا منه بأنه القائد، ومنهم من يريد التحرر، ومن أرادوا ذلك ستجد منهم من قد ينجح في التحرر بذاته، ومنهم من يعْلَقَ، ونجدة العالقين هي المهمة العظمي، هي البطولة لمن تجرّد ونحّى غواش الإغراءات، وهذا لمن قُدّر له العبور، وعليك أن تعلم بأنك لستَ بمبعوث أو تقي، أنت مجرد سبب، وما أكثر الأسباب وقوة حجتها، وما أكثر من مُنحوا تلك العطية واستغلوها بفحش، حتى أصبحوا مجرمين متخفيّين في عالمهم، أو بمعنى أصح، في عالمكم.

صمتَ قليلًا وكأنه يجلب أمرًا ما من أعماق الواقع الدفين وقال بتمهّل متناه....

أتظنَ يا بني أن كل الوجوه التي تراها تبوح بما يغوص في أعماق وجدانها، بالطبع لا، فالمبتسم الضاحك احتاج إلى عشرات العمليات الداخلية لإظهار ما لا يعكس جرحه ولا يفضح حبسه، وكم من عابس الوجه متجهم الملامح يعكس حقًا ظلام سجنه الداخلي وغيوم مرآته وزنزانته، والأنفس بين هذا وذاك متراوحة تراوح البندول، فلا تستطيع أن

تميز بين المتحرر والمأسور.

ثم أنهى كلامه قائلًا....

كم من خَرِب التكوين سليم الهيئة!

وكم من سليم التكوين مسكين الهيئة!

شعرت من كلماته أن مجرة درب التبانة على اتساعها لن تستطيع على استيعاب ما قام بشرحه تـوًا، كما تأكدتُ من أن القتال بالميادين يختلف البتة عن الجالس خلف شاشة المتابعة، وقد قال تلك الكلمات وتبدد مجددًا ولم أكن أعلم بأن صالح يسترق السمع من خلف باب غرفتي بسبب مجيئه لتأكيده على موعد الجرعة العلاجية الموصي عليها، حيث دخل إلى الغرفة سائلًا وتنتاب ملامحه علامات الدهشة المركبة....

مع من تتكلم يا كمال؟

لم أجبه ولازال عقلي رغمًا عن كل الواقع متعلقًا بالحدس والمهمة وما ذكره العجوز.

انتبه صالح إلى شرودي فأعاد سؤاله....

ها، يا أنت!

لم أستجب ولم أرد لأنني كنت حقًا غير موجود.

اقترب صالح من وجهي وسأل صارخًا....

مع من كنت تتحدث؟

قلت وقد عدت سريعًا إليه....

لقد نال الجهد مني يا صالح، أنا منهك جسديًا وعقليًا حد الهلاك.

قال صالح ببلاهة....

لقد جئتُ إليك لأُخبرك بأن إلياس أُحد في انتظارك بالأسفل.

لم أفهم كلماته، وشعرت بضغط على جميع أعضائي كما لو كان قد تم إلقائي في رقعة بالمحيط غير موجودة بالخريطة، واقتربت منه بشدة وسألت بضغينة واضحة....

ماذا تقصد بقولك هذا؟ ألم يحضر الطبيب وجلسنا سويًا مسبقًا؟

أجاب صالح بنفس البلاهة ولكن يعلوها ابتسامة سخيفة ليست بمحلها بالمرة....

نعم، لقد حضر بالفعل، وأنا أمزح معك لا أكثر.

ثم أردف بعد أن زاد صوت ابتسامته....

لقد كنت أختبركَ.

مع من كنت تتحدث إذن؟

خطر ببالي العديد من الجزاءات التي يستحقها بالفعل، منها اللكم أو الصفع، وقد يصل إلى الخنق، لكنني آثرتُ البعد حتى لا يرد اسمي في صفحة الحوادث تحت عنوان" صحفي يقتل زميله بسبب خفة ظله"، وقررت أن أسدد لكمات غضبي للعدم بدلًا منه، وقد استدرت لتنفيذ ذلك مع بعض السباب الصحي والذي تكفّل بإخراج بعضًا من فوران الدم المغلي.

قال صالح ببشاشة متجاهلًا حديثي مع العدم....

لا عليك يا صديقي، لقد طمأننا الطبيب على حالتك، وستكون بخير

بمجرد تناولك الجرعة، وسوف نعود جميعًا إلى القاهرة لمباشرة العلاج في الوقت المناسب بعد أمواج الصدمات المتلاحقة تلك.

نظرتُ إلى صالح بود صادق بعض الشيء وقلت....

أنت صديق مخلص يا صالح، حقًا.

اقترب من وقفتي وأعطاني الجرعة التي حانت مع شربة ماء وكنت أحتاجها بالفعل، وقال....

لقد قام الطبيب بزيادة عدد الأقراص في الجرعة الواحدة لزيادة تأثير المفعول.

فكرتُ قليلًا في وضع الجرعة العلاجية بين ما قام العجوز بسرده، ولكن صالح لم يُمهل لتفكيري أن يستمر حيث رفع يدٍي تجاه فمي عنوة، فتناولتها ولم أنتبه إلى أن تأثير العلاج كان أسرع مفعولًا من كلمات صالح نفسه، فقد كانت الجرعات شديدة عن كل مرة وأدخلتني في بوادر غيبوبة سريعة الحضور، وهذا ما انتبه إليه صالح، فقام بإسنادي حتى وصلنا سويًا إلى مرقدي ونمت، وإذ بي أجدني أتجول بممرات مبنى الجريدة بالقاهرة، أتنقل بين أدوارها ومكاتبها دون أن يمنعني باب، أو يحول بيني وبين ما أريده حاجز، أسير بخطوات واثقة ثابتة أمتلك من خلالها كل ما تطأ عليه قدمي بما في ذلك مكتب السيد رئيس التحرير شخصيًا، ذلك المكتب العظيم الذي لهثت أنفاس الكل لينالوا منه نظرة أو جلسة أو لقاء، أو حتى تكليف من خلاله.

دخلت وجلست على كرسيه باعتيادية، والغريب أنني لم أشعر بالغرابة، وكأنني نَزلتُ بما هو ملكي من الأساس، والأغرب أنني أتعامل من هذا

المنطلق، فتحت الخزانة والتقطت من داخلها مفاتيح تبدو من ملمسها وهيئتها مدى قَدُمَها، فتذكرتُ على الفور أن هذا هو منبت وجودها في الأحلام السابقة، وضعتها في جيب معطفي الفاخر، ثم توجهت في سيارة فارهة كم تمنيت امتلاكها إلى شقتي التي أحيا بها بمفردي، تلك الشقة التي لا أعلم عهدي السابق بها كان على أي شكل، والتي لا تليق بالهيئة الفاخرة التي أبدو عليها، قمت باستبدال ما أرتديه وتوجهت رأسًا إلى مطار القاهرة الدَّوْليّ، استقللت طائرة خاصة، ويبدو من معاملة كل من أقابلهم بأنها لي هي وممتلكات أخرى، والأكثر غرابة أنني أتعامل مع الأحداث المتعاقبة بمباشرة تلقائية على الرغم من معايشتي لها مسبقًا.

نزلت الطائرة بعد منتصف الليل بمطار مدينة الأقصر الدَّوْليّ وكان في استقبالي سيارة فارهة من نفس نوعية الطائرة الخاصة والمعطف باهظ الثمن، قادتني إلى منزل النمسا وتركتني لديه ورحلتْ، دخلته وتوجهت مباشرة إلى تلك البوابة "بوابة العبور" التي تقبع في نهاية الحديقة، تلك البوابة التي عبرتها ومن وقتها قلبت حياتي رأسًا على عقب، وقفتُ لديها استحضر إحداثيات موقع لا أعلم وجهته ثم عبرتْ، وقد مرتْ عليّ مراسم العبور مرور أكرم من الكرام وإذ أجدني ممتطيًا جواد حالك السواد، لجامه شعره وأقبض عليه بيُسراي، أقف به فوق صخرة ملساء مُقاتلًا لا يتبعني جُند، قابضًا بيميني على سيف فولاذي أمام صدري بلا غمد، مرتديًا عباءة سوداء بغطاء رأس مصدره ذات العباءة، مكتمل الطاقة والقُوة لأعلى الدرجات، تلمع عيني بدمع الرغبة، راصدًا طريقًا صخريًا مخيفًا تترامى على جانبيه زِنْزَانات تُقاطع قضبانها أيادي لأرواح أسيرة ترجو إطلاق السراح، يعلو عَلى صرير أنفاسها أصوات تراتيم خفيّة بلغات متداخلة، ويدفعنِي نداء داخلي مجهول لتحرير ذوي الأيادي، وأدرك أن التحرير يستلزم قتالًا، كما

أدرك أنه لا مفر لتلك الأرواح سواي.

وقد وجدت حقًا ما أدركته، فاصطف عبر الطريق الذي يحوي الزنْزَانات جنود ملعونين معلومي الهوية أحفظهم كملامح وجهي تتزايد أعدادَهم كما تتعالى أطواهم، يقودهم ساكن الظلمة تحت شلاله المخيف الذي تبعه حين تقدم من خلف الاصطفاف حتى أصبحَ في الطليعة، وما كانت تلك الطليعة سوى سرية بين سرايا عدة، فجاء أمر الهجوم من تحت شلال الظلمة، آمرًا جنوده ذوي الهيئات المرعبة بالاجتياح، ذلك النداء الذي لطالما سمعته بلغة عربية غير مستقيمة، وكأنه إعتاد على أن يلقي ذلك الأمر إلى جنود متعددي الجنسيات، وحان الآن دور العرب منهم، أو من الممكن أن تنوع لغاته يرجع إلى تعدد المقاتلين الذين يواجهون جيوشه في ميادين القتال.

في المقابل صدر أمر رد الهجوم من النداء الذي يكمن داخلي، فَالْتَقَى جمعهم مع سيفي وأنا على صهوة جوادي أمده بالطاقة ويمدني بالرشاقة، أضرب عنق هذا وأنحر رقبة ذاك، تتطاير الأشلاء وتتناثر القطع وتنفجر الدماء، يتناقص عددهم ولا تتناقص قوتي، أقاتل ونصب عيني ساكني الزِنْزَانات، فتحريرهم هو المراد.

وما أن كفّة التحرير كادت تميل لذي القوة، إلّا وجاء الأمر بإرسال سريتين آخرتين للدعم، وما كان ذلك الإمداد إلّا خطوة استباقية لدك حصون التقدم، فازداد العدد من حولي، وفقد السلاح الفولاذي في يدي صقله وبات يحتاج إلى إعادة الشحذ لمجابهة الأعداد الغفيرة المتزايدة، ولم تسعفني القوة، وما نفعها دون أداة، وسقط غطاء الرأس جراء الضربات متعددة المصادر وهوت قائمتي لتصطدم بصخرة من صخور ميدان القتال، فسال الدم وارتج العقل داخل الرأس وبدأ مراد تحرير الأرواح في التلاشي

شيئًا فشيئًا، حتى اختفى تمامًا مع فقدان الوعـي الذي حـل بالضرورة كما حـلّ في السابق تمامًا.

استفقت وسألت بعقلي دون غيره، لأن جسدي راكد كسابق عهده بالحلم الفائت....

تبًا، ما هذا؟

أيمكن أن تكون الأحلام بمثل هذه الواقعية المخيفة؟ أم أن جرعة إلياس أُحد المركزة هي التي جلبت الحلم من بداياته؟

جاءتني خاطرة مفادها أن حادثة السقوط الواقعة في نهاية ما عشته، هي ذاتها الحادثة التي قد تكون من أسباب مرض صرع الفصّ الصدّغي الذي أشار إليه إلياس أحد، فهي بمثابة ضربة مباشرة إلى المخ، أعلم أنها قد تكون فكرة غير مكتملة المنطق، ولكن أين المنطق فيما يحدث معي من الأساس؟

إذن لهذا الحلم أصل وبداية، وبدايته ليست النمسا وإنما القاهرة، لكن ما هي تلك التفصيلة الذي قد يضيفها ذلك الحلم في إيضاح الصورة الكاملة، ولماذا ألم تلك المرة مُضاعف؟ وما علاقة السيد رئيس التحرير والجريدة بما يدور معي في واقعي وخيالي؟ أيمكن أن يكون امتلاكه للمنزل ذي البوابة هو السبب في تداخله مع بداية انطلاقتي.

اتخذت قراري حتى لا أنساق وراء تراكمات الاحتمالات المملة، وقمتُ من نومتي، ولكن ذلك القيام ليس ككل قيام، وكأنه قيام من تحلّل أزلي إلى خلود أبدي، فالتفاصيل لم تكن مجرد أضغاث أحلام أو أخلاط أشياء، فكيف تكون كذلك وهي في كل مرة تضع طوبة إلى جانب طوبة حتى وصلنا لذلك الجدران الذي لا يحتمل طريق ثالث لعبوره، إما الاجتياز أو الهدم، وبما أن

الهدم يحتاج إلى قوة يفتقدها كمال بكل ما يحمله الاسم من نقصان، فالاجتياز أولى لما له من دعم مباشر، فهو مدعوم ببوابة النمسا، التي جاءت إلى طريقي بتدابير توحي بأهمية دورها في ذلك.

وضعتُ قدمي أرضًا وانتصبت قائمتي وقوفًا ولا يشغلني أمرًا سوى الوصول إلى البوابة، فخطوت تجاه النافذة كي أستطلعها، وفي كل خطوة يزداد إحساس الامتلاك لدي، وهو ذات الامتلاك الذي كان يصاحبني أثناء جولتي داخل حلمي منذ وجودي بمكتب السيد رئيس التحرير نهاية بالسقوط، وقفتُ لدى النافذة أبْصر الحديقة تحت جنـح الليل السائد أتطلع إلى البوابة وما بعدها بعين ضيقة ويد تشد على أختها، وأتطلع كذلك حيثما ستقذفني إليه، فما هي إحداثيات رحلتي القادمة من حيث المكان والزمان، هل أطلب التقدم إلى الخلف أم الرجوع إلى الأمام، فإن اتجهت رجوعًا سأصطدم حتمًا بفقدي للعـائلة من الأساس وفي هذا جرح متكرر لما عايشته مع فقدان عائلة نادر، وإن اتجهت تقدمـًا فما هو الأساس الذي سأجد نفسي عليه إن كان الأصل حاليًا تائهًا هكذا.

تحسستُ خطواتي خروجًا من غرفتي ومتأكد من غرق كل قاطني المنزل في نومة هنيئة عداي، خرجت للحديقة وقد توقف أي نسيم قد يساعد في انتزاع ما يجثو على قلبي من قلق حول ماهية كمال الذي أحاول أن أكتشفه، وما يدفعني للأمام، ذلك الإحساس الذي لا يزال مصاحبًا لمشواري وهو أن كل ما هو قادم سيكون ملكًا لي.

وصلت إلى البوابة وأسندت برأسي عليها، وأكاد أقسم عليها بأن تدلّني على إحداثيات رحلتي الجبّارة، ولكنها لم تقسم أو تجيب، وأدركتُ بأنها مجرد قطعة خردة صمّاء عمياء لا تُدل ولا تُرشد، فهي مجرد أداة في يد من امتلك

الميزة والتي هي في الأساس ملكي، فاقتربت من مقبضها في تـؤدة متناهية، وتزامن هذا مع رجوع سريان التيارات الهوائية المختنقة بالأرجاء المحيطة حولي وحولها، ومـا أن لمسته إلّا وشعرتُ بأنه انقض عليّ انقضاض العاشقين المتلهفين والتحم براحة يدي كأول لقاء بيننا، وكان الالتحام متبادلًا دون حائل أو مانع، فكما اقتربت أنا اقترب هو بالمقابل، أدرته ببطيء وقد طلبتُ من الإحداثيات أن تقذفني حيث كمال الذي أرغبه ولكن في أكثر فترات حياته استقرارًا، عساي أن أجدها نقطة صالحة للانطلاق السليم في اتجاه معرفة من أكون؟ وإن ضلّت تلك الإحداثيات فلربما إلى أقرب شخص أو طريق يدلّني إليّ، وأعلم أن الإحداثيات المطلوبة هي في الحقيقة إحداثيات مبهمة غير واضحة، ولكنني لا أمتلك سوى بعض الإرشادات غير المكتملة في كتيب تفتقد صفحاته إلى التوضيح.

عبرتُ وجاءت طقوس العبور شديدة مفزعة تفوق طقوس أول عبور، وكأنها تنذرني بأن ما أنا قادم عليه شأنه كشأن تلك المراسم، قوي، شديد، مفاجئ، وقد يكون صادمًا، فالضوء أعم وأشمل، كما أن الصفير أعلى وأشد، وقد اختل من شدتهما اتزاني وانقطع الوعي بديهيًا استجابة لما فات.





(١٩)

استفقت وأنا مغمض العينين يحوم حولي وداخلي توتر مُريب مما استفقت به، فكافحتُ قدر استطاعتي وقمت بفتح إحداها رويدًا رويدًا وإذ بي أجدني في مكان لطالما حلمت به، فانفتحت الأخرى من تلقاء ذاتها على اتساعها، إنه مكتب السيد رئيس التحرير، السيد كمّال العمّاري، نعم، مكتبه في الجريدة، لقد كنت هنا توًا، أيعقل أن إحداثيات رحلتي أضلّت طريقها إلى كمال، وأن الذي سيدلني عليّ هو السيد رئيس التحرير نفسه، فكيف هذا ونحن بالنمسا لم نستطع الوصول إليه من الأساس، ولكن المكتب يبدو كما كان عليه أثناء وجودي به في أحلامي، نعم لقد كنتُ هنا توًا، قلتها مجددًا وأنا أكاد أطير من بهاء ورفاهية المكتب وأنا أخطو على أرضيته بقدمي، ولكن ما الذي أحضرني إلى هنا؟ من المؤكد أن للبوابة ترتيبات لا تخطئ.

وبينما أنا أستمتع بهالة فخامة المكتب التي تحيط به وبمن داخله، التقطت أنفي رائحة مشروبًا قادمة من مكتبه رأسًا، فتوجهت إليه وتسبقني أنفي باندهاش يفوق اندهاشي أنا شخصيًا، حتى وصلت إلى مصدر الرائحة المخزّنة في شريط ذكرياتي المعيوب، فارتفع حاجبي استجابة لما التقطته أنفي، يا للعجب إنه ذلك المشروب العجيب، نعم إنه مشروبي العجيب الذي تحدثت عنه السيدة أم نادر، وصالح كذلك، أيمكن أن يكون ذوقي العطب هو ذات ذوق السيد كمال العمّاري، أمسكت بذلك الكوب الفاخر والتفت متوجهًا مباشرة كي أتمركز على كرسي المكتب المغري بقدر فخامته، جلست وتركت إحساس الهيمنة يسري بعروقي، وتتمتع عيني بمحتويات

غرفة المكتب ككل وكذلك التماثيل الصغيرة الفاخرة التي تتسطح وتزيّن المكتب بوجه خاص، والتي تدل عظمتها وأصالتها بأن من صنعوها قد أحضروها بأنفسهم عن طيب خاطر.

ارتشفت رشفة من ذلك المشروب الساخن والذي يبدو أنه مطلوب توًا، مذاقه مميز حقًا، فأمعنتُ النظر داخل الكوب لعلي أعرف مكوناته لكن النظرة ذهبت سدى، فطمعت في رشفة أخرى ويالها من رشفة أطلقت على أثرها العنان لعيني في أرجاء غرفة المكتب، كما أطلقت العنان لخيالي بأنني المالك الأصلي لما أنا به حاليًا، وما أن أوشكت على إنهاء ما قبضت عليه بيدي من جودة مذاقه، حتى صدر صوت من دورة مياه المكتب الخاصة، فارتعشت يدي كما ارتعش مصدر المبررات لدي عن سبب وجودي هنا، وإذ أجد السيد كمال العمّاري بنفسه قد ظهر أمامي بكامل هيئته، وقفت رغماً عن إرادتي دون أمر، فتلاقت الأعين على اتساعها وصمتت الألسن على وضعها، صمتت لفترة، أنا من باب الإحراج وهو من باب الدهشة، ولكن دهشته لم تكن دهشة مفاجأة، بل بدت وكأنها دهشة اللقاء بعد انتظار دام لفترة لم أستطع تحديد مدتها بسبب جملته التي خرقت مجال الصمت بقوة هَديرُ الرَّعْدِ وسرعة صاعقة البرقٍ، حيث قال بعمق يدنو من عمق أكثر نقطةَ بالمحيطَ وهو لايزال متمسكا بموقعه....

لقد كنت في انتظارك منذ زمن.

لم أجب ولم أتحرك ولم يرمش لي طرفًا بسبب ما أضافته تلك الجملة من هول إلى هول الموقف ذاته.

بدأ في التحرك من موقعه تجاهي بمعدل خطوتين بالكمال والتمام، ثم سأل بنبرة أب غاب عنه ولده عمرًا عن عمد....

أَلَزِمَ حضورك إلى هنا كل تلك الفترة؟

هل احتجت إلى كل تلك الأيام للمرور؟

تركتْ يدي الكوب الذي ارتشفت منه بشهية منذ قليل، وانفتحت شهيتي لمعرفة ترجمة أسئلته التي محت أهمية أسئلتي التي أحملها عبر انتقالي، وتحركت أعضاء جسدي مستفسرة دون كلمات عما بدر منه بدءًا من عيني مرورًا بيدي حتى قدمي التي تراجعت خطوة واحدة فقط للخلف بسبب وجود كرسي المكتب في مسارها.

تمعّنَ السيد رئيس التحرير ملامحي محدقًا ومحرّكًا وتيرة استفهامي تصاعدًا وسأل....

ألم تجد إجابات لتساؤلاتك إذن؟

سكتَ برهة ثم أكمل....

أعلمُ بأنك الآن هائم فوق محيط مجهول العمق من الأسئلة، ولكنني سأنتشلك مما أنت فيه بجملة واحدة يا كمال....

هدأتُ بمجرد نطقه باسمي، لأنني اطمأننت بأنني كمال، وفي هذا راحة مبدئية لما حضرت من أجله، فسألتُ بأدب جمّ....

هل كنت في انتظاري؟

شعرتُ بأنني تسرعتُ في سؤالي الاستفهامي عن انتظاره لي، وأردت أن أرجع لحظة للاستفسار عما قاله بشأن الجملة الواحدة، حيث سألت بابتسامة ليست عريضة....

ماذا تقصد بقولك؟ سيادتك.

أجاب بنفس الأدب وقد اقترب أكثر حتى تواجهنا كالمرآة....

لا أعرف كيف ستتقبل حقيقة الأمر، ولا أعرف أيضًا كيف أقولها لك يا كمال يا عمّاري؟

ابتسمت لقوله، ولم يبادلني هو الابتسامة، لكنه قال مجددًا بنبرة تأكيدية....

نعم تلك هي الحقيقة، ببساطة، أنت كمال العمّاري، أنت، أنا، أنت أنا بالفعل.

ارتسمت على وجهي ملامح لم تُدرج في قاموس الانطباعات بعد، كما أنني لم أجد بمفردات اللغة كلام سوى كلمتين، حيث سألتُ بربع ابتسامة معيوبة....

ماذا تقصد؟

قال ولم تَقِلّ نبرته التأكيدية عن معدلاتها الثابتة....

هذه هي الحقيقة يا كمال، فأنت كمال العمَاري، أنا وأنت ذات الشخص يا أغلى ما رأته عيني.

وقعت كلماته عليّ كحطام بناية مكونة من ألف طابق، وجلستُ تلقائيًا من قوة الحطام على كرسي لا أدري أن أقول مكتبه أم مكتبي، فمن بين مليون مليار احتمال لم يرد هذا الاحتمال بالأخص إلى ذهني أو ذهن أي ذي عقل، أو بلا، ولم يهديني إدراكي ولو لمرة واحدة إلى درب آخره العمّاري، واختلطت بداخلي مشاعر متباينة غير موصوفة، بعضها من الفرح كوني إمبراطورًا، يقاطعها بحدة وبكثرة مشاعر أخرى من الاندهاش كوني شخصًا مهملًا لقيط الإدراك، وتم إعادة عرض شريط العذاب والمغامرات والانتقالات والأحلام التي عايشتها بالنمسا دقيقة بدقيقة، وقفزة بقفزة، ذلك الشريط

الذي قد يُصنّف كمادة تعليمية مثمرة في كيفية إزهاق روح بالصدمات النفسية والعصبية من دون تدخل جنائي، ونشطت فقاعات مائية عديمة الفائدة حول ما تبقى من وعي كمال المتيبس حد الشقوق لكنه ليس العمّاري، بل كمال الأخرق الذي عادى نادر لسذاجته وصادق صالح لبراءته وأحب كيان لبكر مشاعره.

أنجبت التساؤلات التي حضرت بها ومن أجلها توائماً عديدة أمثالها وتزيد، أسئلة تنحدر من أعلي نقطة ممكنة وتتجمع في أدنى نقطة ممكنة، عقلي، نعم عقلي، وبالأخص في فص صدغي الذي أصابه الشلل من الحقيقة، كما أصابت مصدر النطق لديّ بذات العلة، فالوضع لا يختلف كثيرًا عن وقوعك تحت تهديد سَبْع جائع والمهرب الوحيد هو منحدر جبلي شديد الوعورة والارتفاع.

شعرَ العمّاري باحتمالية سقوطي داخل بئر ليس بالعمق الكافي لإخفائي، وإنما عجزي عن الخروج منه هو ما جعله يقترب بشدة من جلستي، فكان قاب قوسين أو أدنى من وجهي وهو يتفحّص ملامحي التي بدا عليها جريان السنين من هول ما عانيته بالنمسا، حيث قال وتكاد عيناه تمطر نهرًا من الدموع لكنها محبوسة....

أعلم تمام العلم ما أنت به الآن، وأعلم أنك تتساءل لِمَا لم أعترف لك منذ البداية؟! لكن عليك أن تتيقن بأنني لو كنت اعترفت لكَ بذلك الأمر لكنتَ وضعتني في خانة المجذوبين والمهترئين عقليًا وكنتُ قد فقدتك للأبد.

سكت برهة ثم استطرد في عزة، وقد انتصبت قامته بالكامل....

نعم، لم أعترف لك لاستحالة تصديقك للأمر دون أن تتأكد من ذلك من خلال معايشتك له شخصيًا، ومن خلال أيضًا اكتشافك لما تخفيه لك الحياة

من قُرة أعين وملك لا يبلى.

لم أجيب على شرحه ولم أنتبه إلى تفصيله المسترسل للأمر، ونظرت مباشرة إلى عينيه، وعيني تذخر بمثل ما تذخر به عيناه، ثم قلت بصوت يحمل من الألم والاندهاش أطنانًا....

أتعلم!! لم يعد الأمر مدهشًا أو موجعًا بالنسبة لما عايشته خلال رحلتي بالنمسا بقدر كوني أنا أنت.

امتنع مدّ الكلام وانحسرت رغبة الحوار وتصاعدت فجأة حركات صدري من سرعات ضربات ما يحتويه، ولم تحتمل دمعة من دموعي الحبيسة البقاء داخل حدقتي، فتحررت وتحررت معها أسئلة غاضبة، حيث أردفت قائلًا بغضب مكتوم....

كيف لم يسوقني حدسي إليك منذ البداية؟ كيف لم أنتبه إلى ذلك من خلال أحلامي غير المكتملة، كيف؟ كيف؟

سكتُّ برهة واضعًا سبابتي بين أسناني ثم أردفت وكأنني أدرء فشلي عن نفسي مدافعًا....

لكن كيف كان سيسوقني حدسي الضرير إليك، كيف وأنا مُغمض العينين عديم الدلائل مخدوع الواقع، كيف كنت سأصل إليك ببساطة رغم كل الفوضى العارمة المثارة حول إدراكي الزائف المنقوص؟ فأنا....

لم أجد كلمات إضافية لأقولها حقًا، وابتعد العمّاري في أسف عن جلستي على المكتب ووقف مواجهًا له وقال بانكسار....

أنا مدين لك بتفاصيل كل شيء، وعندما سأقصُّ عليك ستتأكد وقتها من صحة مبررات ما منعته عنك منذ البداية.

لم يبدر مني أي انطباع سوى اتساع حدقتي، والدمعة الوحيدة المتحررة تضاعفت لتكون اثنتين، ورجعت بكامل ظهري لأستند على كرسي المكتب الفاخر الخاص بي فرضًا، ورجعت برأسي إلى الخلف كي تتخذ وضعية الراحة الشائكة لمنتهاه، وشعرت أنني ضحية حادث أليم وأن الذي صدمني "سيارة الإسعاف" بنفسها، ولم أتكلم.

تنفسَ العمّاري عميقًا ثم أكمل شارحًا....

أنت، نحن، أقصد أنا، كمال العمّاري شاب أقصري عديم الأسرة، كنت أعاني من الفقر المدقع، حالي كحال بني قريتي وعمري، وكان المستقبل يحمل لي من الغيوم كما تحمل سحب الأطلسي في ديسمبر، وكان هذا المنزل لأحد أفراد عائلة العماري الأثرياء والذي لا يهتم بأحد سواه وأسرته، اكتشفت عبوري لتلك البوابة في زهرة شبابي، ولا أعلم إنً كانت صدفة أم تدابير، تغاضيت عن الهدف المرجو من العبور ووقعت في شَرَك الشراكة، وهذا أمر طبيعي لشاب تاهت من أقدامه دروب التطلعات ووجد فجأة مصعدًا فرديًا سريع الوصول لما يتمناه أي إنس، فلم أكترث بمن أضع يدي معه لكي أنال ما أريده حتى وإن كان الشيطان ذاته، فامتلكت كل شيء تمنيته، الأراضي والعقارات والأرصدة، ودخلت أماكن وسمعت أخبار لم يجرؤ أحد على الاطلاع عليها أو الاقتراب منها، امتلكت المنزل وكافة الأراضي المحيطة به، وكذلك امتلكت المصانع والمؤسسات والكيانات العملاقة، امتلكت الصحيفة والزواج، أصبحت كمال العمّاري الذي يرجو لقائه أباطرة التفوق الاقتصادي والسياسي، فعلّت بنود الشراكة مع ساكن الظلمة وامتلكت وحدي دون غيري، وأزلتُ من طريقي كل ما ظننته مانعًا، فنشوة الشهوة ليست في الامتلاك فقط، وإنما تكمن عظمتها في امتلاكك ما لا يستطيع غيرك امتلاكه.

سألتُ باستهزاء وأنا أتأرجح على كرسي المكتب الفاخر بعد أن جفت دمعتيّ....

وبالتأكيد حين وصلتَ لما نحن عليه الآن ورأيتَ قرب الأجل والذي لا مناص منه، فرجعتَ لتصحيح ما أفسده مزاجك؟

لم يجب، ونظر تجاه جلستي بجلال كمال العمّاري المعهود عنه حسب ما أدركته خلال فترة لقائي به القصيرة قبل سفري للنمسا.

سكتُ أنا أيضًا بالمقابل برهة طويلة نسبيًا، ثم سألت وكأني أقوم باستفزاز غموضه....

وما وضعي أنا في مغامراتك؟

أجاب بغطرسة معتادة وبهدوء مخيف....

هل تظنَّ أن أحدًا بقدر كمال العمّاري يحتاج إلى فريق مثلكم للفوز بمقعد انتخابي محدود النفوذ بالمقارنة بما أنا عليه، وأكون كاذبًا إن قلتُ لك إن سبب رجوعي داخل جلدتكَ الحالية هو لكي أُنفّذ هدف العبور المرجو عبر البوابة، وهو قدرتي على إنقاذ الأرواح المسلوبة بين ثنايا خطاياها عن طريق فتح بوابات زنزانات حبسهم في ذلك العالم محدود الزوار، تلك الميزة التي تجاهلتها عن عمد بكل ما تتسع الكلمة من أنانية، بالطبع لا، ولكن ما كنت أسعى إليه هو تجربة، مجرد تجربة، حالة أو أمر جديد لم أعتده طيلة سنوات إمبراطوريتي، أردتُ أن أواجه نِدًا قادر على الكر والفر والهجوم، خصم يمتلك بعضًا من القدرة على إظهار بعضًا من المقاومة التي افتقدتها بين بني جنسي.

استدار حول نفسه لفة كاملة وكأنه يسترجع بهاء تجربته التي سعد بها

سعادة واضحة وقال....

وأثنـاء المعركة التي كنت بها فارس استثنائي، أصابني ما أصابك، تلك الضربة اللعينـة التي تلقينـاها، فأصابت فصّنا الصدّغي وسبّبتْ ما يسمى بفقدان الذاكرة الصرعي العـابر، وفي حالتنا لم يكن عـابرًا بسبب أن السبب لـم يكن عابرًا، لأنها لم تكن مجرد ضربة من عالم معلوم، لكنها ضربة آتية من عالم شاسع لا تغطيه إحداثيات ولا تلتقطه رادارات ولا تحدّه أجوبه.

سكتَ ثم نظر إلى عيني مباشرة وقال آسفًا....

فعلقْـتَ أنت هنـاك في نفس العمر الذي اخترته للمواجهة وهو شبابك الحالي، ذلك السن الذي حاولت مرارًا الخلود به، بيد أن محاولاتي كلها باءت بديهيًا بالفشل، وبقيتُ أنا هنـا كمال العمّاري المُعطّل، بقيت بكل ما يحمله اسمي من ترددات مخيفة عاجزًا مسلوب الروح والإدراك والإرادة، وباتت الغلبة لك وهي لاتزال لك الآن، وستستمر، ولديك الاختيار الأصوب لأنك عُدتَ من أجل أن نكون نحن كمال القوي الذي لطالما حييّنا عليه، شريطة التماثل للشفاء كي نلتحم من جديد، وأتعهد لك بأننا لن نخوض مجددًا مثل تلك المعارك التي لا طائل منها أبدًا.

سألتُ بغريزة الصُحفي بعدما أفاض على إدراكي بصدمات غزيرة....

وماذا لو لم تتقابل مساعينا؟

قال ويخالط قوله زئير أسد مُهدّد عرينه....

سأبقى هنا حبيس الجسد والزمن حتى ينتهي الأجل، وسأكون كالظل الذي لا يفارق من له الغلبة علي كمال العماري، وفي حالتي ستكون أريام العطيفي.

سكتَ قليلًا ثم أكمل بحسرة....

سأكون فاقد الرأي والأهلية والإرادة كطابع البريد الذي يتم إلصاقه بخطابات لا يعلم محتواها ولا يعي وجهتها، ومُحرّم عليه الاعتراض.

اجتمعت لدي خيوط ما اختلط عليّ وأنا بالنمسا، واكتمل بشرح العمّاري الضلع الناقص في مربع الفهم الغائب، وأدركتُ أن السيدة أريام هي زوجتي وقد أصابها ما أصابها لأنها الجزء الذي يخصني بالاتفاق، ولذلك عندما امتنعت عن تنفيذ إيذاء عائلة نادر كان الرد عائدًا على ما يخصني من نفِس جنس ما امتنعت عن تحقيقه، وما كانت كيان سوى ضحية بريئة تصادفَ وجودها بجوار قنبلة موقوتة حان وقت انفجارها فدمدمتْ الهدف والبريء.

لكنني طمعتُ فيما هو أكثر، لأنه حق أصيل لي، وسألتُ بقوة اشتهر بها كمال العمّاري....

كيف وجدتني بعد إصابتنا؟

أجاب العمّاري وكأنه راوي القصة....

لقد جمعتنا المسارات بحدوث ما تنبأتُ به.

سألت بحواجب معقوفة....

ماذا تقصد بذلك؟

قال شارحًا....

أنت تعلم أن الغلبة لصاحب الإدراك أثناء العبور، وحين تمت الإصابة اللعينة فقدتَ إدراكك الأصلي، وبما أن الغلبة لك فرجعتَ حيث بدأت،

من تلك الشقة بالقاهرة، شقتنا التي انطلقت منها مناوراتي الخفية، وهذا ما توقعته، وبالفعل وجدتكَ بها، فلم أجد بديلًا سوى أن أبدأ معك من جديد، فوفّرتَ لك وظيفة وهاتف، وأنت تقبلّت ذلك بصدر رحب، وتعايشت ككمال، شاب في مقتبل العمر يحمل قدرًا عاليًا من التمرد الشبابي الصحي، وكان لابد من وضعك في طريق البوابة بأي ثمن حتى نصل إلى ما وصلنا إليه الآن، وبالفعل، لقد نجحتَ.

سألتُ وقد مزّقني الحنين لما ظننته تاريخًا....

وماذا بشأن ما عشته وظننته جزءً أصيلًا من حياتي؟

أكد العمّاري باقتضاب أنه مجرد إحساس عارض من اختياري وعليّ أن أتحمل نتيجة اختفائه....

لقد تعلّقتَ بعائلة نادر لحرماننا من العائلة، وتمسّكتَ بصداقة صالح لعدم وجود صاحب في حياتنا، وحاربتَ من أجل حب كيان بسبب فقداننا للذة الحب الحقيقي.

وضعت يدي فوق جبهتي وأنا أتلوى من ضياع ما يتمناه كل إنسان، وكذلك ضياع فرصتي في إمكانية تواجد تاريخ أستند إليه فيما تعرّضت له خلال رحلتي النادرة، كما أدركت أنني واقع بين خيارين لا ثالث لهما، الأول أن أتقبّل ما سرده العمّاري وأعود عمّاريًا، والثاني والأخير أن أرفض ما يدفعني إليه وأمزّق ما يربطني به وأحيا في حياة مريضة إن برأت فيها سأعود أيضًا عماريًا، فوقفت سريعًا وقلتُ له صارخًا وبحدة....

أتعلمَ ما أوصلتني إليه؟، أتعلم كمّ الارتباك والمعاناة التي أرْهَقَتْ كل جزء من تكويني؟

ارتبك العمّاري بدوره من ردة فعلي غير المخطط له من طرفه بالمرة، وقال بجبروت بطيء، بنيّة تصدير إليّ مدى قوته وقدر ما اختبره خلال حياته من طغيان وسلطان وسيادة....

لقد كنتُ في خلوةٍ كل أنثى حتى أنتقى منهن من تناسبني، من تستحق أن تعيش في كامل الترف وكمال الإمبراطورية، وكم عانيت كي أصل! ولكنني لم أجدها إلّا وأنا في أرذل العمر، كما حرمت من زينة الإنجاب نتيجة لذلك الإجهاد المضنى في البحث.

توقف عن الكلام فجأة واقترب من المكتب ثم اقترب بجزئه العلوي من وقفتي ولا يمنعنا من الاقتران سوى مقدار مساحة المكتب الفاخر بيننا، وأكمل بصوت يساوره الهدوء المغلّف بالتهديد، وكأن كمال العمّاري الحقيقي قد ظهر حقًا، مما أثار رهبتي دون أن تبدو على ملامحي، حيث قال....

أنا قادم إليك من مكان لم أترك به لغير الموبقات مجالًا، لقد فعلت كل ما يُخيّلَ إليك من الأخطاء، ونجحت في إحاطة نفسي بطاقم من خير الأطباء القادرين على إحياء من وَلَّى، حطّمتُ أمال شباب وامتلكت طموحاتهم، سجنت مستقبل أباطرة وحكمت عليه بالعمى، أصبحت الأرض أرضي والتراب ينطق باسمي، بنيت إمبراطورية من الكراهية وحراسها من الحقد، ذهبت لأعظم الذنوب وعدت منها متشبعًا كمال التشبّع، فأخذتُ منها لذتها ولم تأخذ مني عقوبة أو عار أو خزي لأنني أزلته ولم يتعلق إثمهما سوى في كياني.

شعرتُ فجأة بتسليط ضوء خافت بين كلامه على كمال الذي أمثله، لكنه أعادني إلى الظلمة مجدداً وبسرعة تفوق الفائقة حيث أردف بلامبالاة مخيفة....

وهذا ما احترفت تطهيره بجمال الانشغال. وإن عدت، لاخترت ذات الطريق بكل وعورته وصعوبته وإنجازاته، وقراري بتجربة ما أردت أن أخوضه بتحرير حبيبي الزنزانات، ليس مللًا من الملـذات أو ضيقًا لدروب التوبة، وإنما فهما وإدراكًا بأن الخطبة الملحمية التي ألقاها ساكن الظلمة عند اجتماع العهد المقطوع بالشراكة بيننا وقتها، لـم تكن سوى ظـلًا منحصرًا لتـل من الطيبات طمعت في اختباره كنوع جـديد من الامتلاك، لأن ما حدث لك حدث معي، فاستغشيت به طلبًا لما أردته، لكن للأسف منعتنا خسارة المعركة مؤقتًا، وها نحن ذا سويًا، وسنصل، والشجعان لا يستسلمون أبدًا.

انتابتني مشاعر مرتبكة متداخلة من تداخل ما سمعته توًا من شخص أقل ما يمكن أن يوصف به هو أنا، وأصابتني صراحته بألم ظننت بأنني لن أبرأ منه أبدًا، ولم أمتلك قدرة على الاستجابة لذلك التنوعً الخطير في شهوة الامتلاك لذاتها، فخرجتُ من موضعي من خلف مكتبه وترجلّت حتى أصبحنا متواجهين لا يفصلنا سوى حجم العُملة الحديدية كلًا منّا في اتجاه، وقلتُ بهدوء صادر عن مارجٍ من لهيب ما يحترق بداخلي....

لكنك لم تعش ضياع حبك أمام عينيك، وكذلك لم تختبر فقدان عائلتك، لم تعش ولم تشعر باقتراب صديق منك أو زوجة، حتى تلك التي اخترتها، فقد أجريتَ عليها تجارب ليس لك بها أو عليها حق كما لو كانت فأر تجارب عديم الحيلة.

استدرنا كلًا في اتجاه وابتعدنا سويًا، أنا خطوة في اتجاه المكتب وهو خطوة في الاتجاه الآخر، ثم أكملت حديثي بذات الهدوء وبكلمات ظهرية مقصودة....

ياله من جبروت، أنت لم تعبأ من الأساس بما قـد تخسره إن خالفتَ ما

اتفقت عليه، لقد دخلتَ إلى معركة لإشباع رغبة في نفسك دون أن تعير للخسائر أي تقدير، ألهذا الحد لا يوجد لديك عزيزًا؟

أعدنا الالتفاف متواجهان واستدرت تجاهه كما استدار هو، وقلتُ مخاطبًا عينيه....

أنت أردتَ خوض الميزة المعطلة من باب التجربة، وأنا أردتها من باب الإيمان، الإيمان بحقي أن أكتشف أو أصل إلى ما رسمته يومًا أو تطلّعت إليه، فجرأتك قادتك إلى ضرب بنود الشراكة عرض الحائط، فلم تقلق على قريب أو تأمن على ابن أو جاه، وأنا كأي حي أريد الوصول، لكن ليس الوصول بمعايير أنا سلطانها فتخلو نتائجها من أي حياة أو روح، وتتحول ممتلكات قصتك إلى كيانات فارغة من أي انتصار، حتى وإن بدا كذلك، أن تكون طبيعيًا فهذا هو الكمال يا كمال يا عمّاري، لكنك سقطتَ عبثًا في فخ الخلود والاستمرارية وظننتها مثالية، فلا وجود لها من الأساس، فالمثالية تعني الكمال المطلق وهذا ما نحبو إليه دومًا لإدراكه، ولن ندركه أبدًا، وطريقنا إليه ينير بسنا برق التقصير فنعلم من خلال دربه وضوءه بأننا لازلنا على الطريق، حتى وإن شعرنا بأننا قد وصلنا للمرجو وتملّكتْ عقولنا تلك النشوة بمتعة الوصول إلّا واستفقنا على صاعقة منيرة مخيفة بأن الطريق لاتزال طويلة، فتدمع أعيننا من هول الصدمة التي تطيح بمن ظنّ بمثاليته، وتربّت على كتف مَن يأس مِن استكمال السير لكنه أراد الاستمرار لقصوره. أما كونك تعتقد بأنك تمتلك أقدار غيرك، فهذا قمة النقص حتى وإن كنت تظنَ نفسك مميزًا أو خارقًا.

سمع كمال العمّاري تلك الخطبة المغايرة لأهدافه، وتأكد بتقاطع قضبان السير، ورجع خطوتين للخلف ثم استدار حول نفسه فلم يسعفه جسده ولا

عمره، وظنّ أن كل ما مدّ بساطه تحت أقدامه قد بدأ في الانسحاب، فجلس على أحـد الكراسي الفاخـرة المنتشرة في ثنايا مكتبه ثـم تنفس بصعوبة بعد مـا تحشرج نفس ما داخـل تفاحتـه وقـال باستماته مرعبة....

لماذا تدافع عن حياة ليست ملكك من الأساس، صدقني، أنا حياتك وما أمتلك، أنا ولا أحد سواي، لا عليك سوى أن تستجيب لكونك مريضًا وتلتزم بالعلاج حتى تتماثل للشفاء ونتحد، تعالى إلى موضعي لترى العالم من عرشي، أترك الأمنيات لمن ينام على وسادة الأمل ليُمني نفسه بعدم استيقاظه على قحل الحرمان.

سكت فجأة ثم ابتسم ساخرًا وسأل سؤالًا اعتراضيًا فجأة....

وماذا فعلتَ أنت؟

ساد الصمت بيننا بعد توجيهه هذا السؤال فهممت بشق غبار الصمت بشرح كالسابق، لكنه سبقني لائمًا....

أَلَمْ تقع في شَرَك الشراكـة أيضًا؟ أَلَمْ ترتضي شروط مـا تلـومني عليه الآن؟ أَلَمْ ترغب في امتلاك ما تمنيته وخطّطتَ لذلك؟ أَلَمْ تقفز داخل ما ابتعدت عنك تفاصيله؟ أم أن مرضك قد نجح في جعلك شخصًا ضعيفًا تتأثر قرارته الحتمية بأعراض جانبية تشبهك؟ يالك من أحمق مفتقد الطموح، ذلك الوقود القادر على إطلاق مكوك تنفيذ الفكرة بمجرد فقط أن تخطر.

أجبت ببراءة رأها العمّاري بلاهة، وقد أسندت قائمتي على المكتب بنصف جلسة وقلتُ مقارعًا حججه الخفية....

كلامك ينطوي على سؤال أنت تهرب من طرحه، وهو لمّ لا تريد أن تكون كمال العمّاري حقًا؟ ببساطة لأنني لا أريد أن أحيا كاملًا، فإن كان هناك

كاملين غيري لتطلعت وحاربت لأن أكون كذلك، ويجب عليك أن تعرف بأنه لا ينفع أن أكون كاملًا كمالًا مطلقًا في الخفاء فقط، فكل ما أريده أن أكون "كمال"، مجرد كمال يخطو في طريقه لا غير، يتعثر ويصل، يحلم ويفقد، أما بخصوص قفزاتي فيما ابتعدت عني تفاصيله فلن أنكر هذا، لكنني امتنعت تارة واشتهيت تارة، وقد تخونني غرائزي تارة وينقذني ندمي تارة، وهذا هو الطبيعي، هذا ما أرجوه فقط يا كمال يا عمّاري، وما دفعني لتمنّي ذلك هو ما اختبرته في النمسا من قسوة على كثرتها وجمال على قلته بالرغم من معاناتي وزلّاتي المتكررة بسببك.

قال كمال العمّاري مستعطفًا إيّاي بلهجة تودد مخادعة، لكنها في حقيقة الأمر مستذئبة استذئابًا مُعديًا وكأنه يحاول إنقاذ قصر تم بنائه على رمال البحر وآن وقت ضياعه بين أمواج المد...

أتعتقدَ بأنني هكذا دومًا، أتظنَ بأنني حبيت الفحش والظلم دون غيره، بالطبع لا يا كمال، صدقني، لقد حاولت باستماته مُلهمة، لكن وَهَنَ العزم مني ونازعتني نفسي للميل عن الهدف رويدًا رويدًا حتى استلطفت النزعة فملت، ولم أكن أعلم بأن النزعة من ساكن الظلمة وشَركه، أو بمعنى أدق كنت أعلم ولكن الجزء الخائن من نفسي سمح له بالدخول من تلك الثغرة حتى وصل لمركز صناعة القرار، فغدا القيد والسوط معًا.

صمتَ كمال العمّاري صمتًا ملتحفًا بدمعة مخادعة ثم قال وهو يستجدي نفسه التي بداخلي....

صدقني، ارجع لي سالمًا وسنحيا سويًا كمال الذي ترجوه.

انخدعت مبدئيًا بتسلله البريء وسألت....

من أين لك الثقة بأن أحدًا من أهل النمسا لن يتعرف على كمال العمّاري في شبابه؟

فأجاب وقد بدا عليه بعضًا من الارتياح الدال على التوافق المبدئي المتبادل....

أولًا لم يكن أمامي خيارًا آخر سوى ذلك لوضعك بمرمى البوابة، ثانيًا أنت عمرك الآن هو منتصف عمري الحقيقي، وقد تغير وجه النمسا عما كانت عليه عندما كنت بعمرك، فلا أحد يعلم ذلك الشاب النكرة، ومن كانوا في عمري لقوا حتفهم بالتأكيد، ومن منهم لايزال على قيد الحياة فهم إما قعيد أو لا تسعفه ذاكرته لاستحضاري، كما أنني كنت نادر الحضور العلني إلى النمسا، وإن حضرت فلا يوجد أحد يعلم بحضوري وتتهيأ كل الظروف لذلك، حتى القائمين على المنزل، تأتي لهم التعليمات بترك المنزل خاليًا جاهزًا للحياة إلى أن تأتي لهم التعليمات الأخرى بإمكانية رجوعهم لي بعد إنهاء ما جئت لأجله، فهم لا يعلمون ذلك الشاب الذي أنا عليه الآن.

تفحصّ كمال العمّاري ملامحي بعيون ثاقبة ليرى وقع الحوار المتبادل عليها، ثم قال بابتسامة معهودة عند إتمام صفقة ما....

على كل حال نحن متفقان كمال الاتفاق.

ثم نظر لي برأس مائلة كنوع من التلطف وسأل....

أليس كذلك؟

امتلئ صدري بتخمة من الإجابات التي كنت على استعداد للعبور والانتقال للقمر حتى أصل إليها، كما أرهقني فيض الاستكشافات المرعبة الخانقة التي نجحت في استدراجها منه ببراعة، رافضًا أن أكون عماريًا،

وقلت بصراحة مُبشرة باستدعائي لمراسم الرجوع....

لا أظن ذلك أيها العمّاري، فالمنافسة داخلنا محتدمة بالقدر نفسه، فأنت قد اخترت ما كنت عليه وما تريد أن تكون عليه دومًا، وربما يكون سقوطنا بالمعركة بابًا خلفيًا لهروب مَن حبسته داخلك طيلة سنوات عمرك، فأنت عبارة عن تربة صالحة لزرع كل معاني الحقد والأنانية والحرمان والنفاق، أنت الجانب المظلم لكل مكسب لم تكسبه، والطريق الملعون لكل شاه شردت خارج قطيع نجاحك، لقد امتلكت المكان والزمن، لكنك لن تستطيع أن تملكني بالرغم من أنك تملكني بالفعل، فيا لسخرية البوابة، جعلتكَ تمتلك ما تطأه قدمك ويعلو رأسك ولكنها أفقدتك أغرب شيئًا وهو أنا "كمال" ولكن ليس العمَاري.

فَتَحَتْ تلك الكلمـات أبواب الضياع على مصراعيها أمام كمال العمَاري، وأدرك بأن حياة البراح المنطلقة ستنتهي إلى تلك الغرفة أو ما شابهها لباقي أيامه أو سنواته، ولكنه ككمال العمّاري لن يقبل ذلك بسهولة حتى وإن كلَفه ذلك حياتي، ولكنه فاجأني حين أشار إلى مشروبه قال....

إذن لك ما شئت، ولكن عليك أن تعدني بالحفاظ على كمال، فمن الجائز أن تعود لي يومًا، ولنشرب نخب هذا الوعد.

ابتسم ابتسامة رائعة ثم قال....

هل يمكن أن تجلب لي سيجارًا من علبة سجائري.

استجبت لطلبه بنبل واستدرت لتلبيته، لكنه استغل تلك الاستدارة واقترب من وقفتي وقام برفع تمثال حديدي من فوق مكتبه وسدده إلى رأسي بكل ما يحمله من رغبة لاستعادة ذاته، في محاولة أخيرة منه لأن تكون تلك

الضربة ذات رد فعل معاكس لضربة المعركة، فأعـود ويعـود، وبالفعـل نجح في ذلك لكنه لم يدرك بأنني استدعيت مراسم الرجوع فور استدارتي، وقد أدركت بأنه حتى فاقد الإدراك قد يخرج عن المألوف في حالة إحساسه بضياع إدراكه منه، فنزل التمثال الحديدي على المكتب ومعه خيبة أمل لا رجعة فيها ولا منها.



(٢٠)

ليتني لم أكتشف من أنا!!....

هذا ما قلته بصوت عال وأنا أجلس على طرف سرير غرفتي بالنمسا بعد الرجوع، وأندب حظي على ما رأيته من أمور يشيب لها الولدان، فأنا أنا وفي نفس الوقت لست أنا، أنا كمال ولا أريد أن أكون عمّاريًا، فقد اجتمعت في رحلتي كل الأضرار، لقد تأكدتُ من مرضي العنيف، كما اكتشفت أصلي المخيف، كما صُدمت بأن كل ما حولي ليس لي، لا صداقة صالح ولا عداوة نادر ولا عشق كيان، وأنني مجرد صورة قديمة من أصل يتمنى كل العقلاء أن يكونوا نصفه إلّا أنا.

قمتُ لأترجّل بغرفتي ولا أعلم الهدف، ولا توجد بين خلايا عقلي خلية واحدة قادرة على استيعاب ما نحن قدمنا منه "أنا والعمّاري"، وكان نهار الصبح قد فلق كل غاسق، على أمل أن ينقذ نوره كل غارق، ولكن كيف يكون الإنقاذ وفي نجدتي الهلاك، فإن تتبعت أثر الشراكة فأنا أعلم مسبقًا أي مصير سينتظرني، وإن سعيتُ لإنقاذ أرواح الذين علقوا فبأي كمال سأواجه العالم بعدها، هل سأواجهه بكمال عديم الخلفية غير القادر على إنشاء قاعدة ذكريات مستديمة أم ذلك الذي إذا تعرّضَ لضربة تُعادل تلك التي تلقيتها فأعود العمّاري الذي لطّختُ سمعته وكيانه بلسانه نفسه، ذلك المسخ الذي لا أرجوه، والذي سرق سنوات شبابي لملء فراغات شهواته التي لا تشبع.

ساقتني خطواتي المتواترة بين الكمالين خلال مشواري المنهك فكريًا وجسديًا بالغرفة، فأبصرتُ البوابة من نافذتي ولم تكن نظرة كسابقتها

ولكنها حملَتْ من التيه والتخبط بقدر ما تحمله الأرض من جبال، ولوهلة دبَّ في أعماقي شعور لم أختبره من قبل كأحد الكمالين على ما أظن، شعرت بأنني المغفل الأوحد خلال تلك الرحلة من القاهرة إلى النمسا والعكس، أنا الوحيد ذا اللُعاب المُسال على شفاه سذاجته، ولا يوجد تفسيرًا لما أنا فيه خير من أنني خرجتُ من باب الدخول، لا أول يبدأ ولا أخير يُروى، فساكن الظلمة وأعوانه كانوا على كمال العلم بمن أنا من الأساس وقد تصرّفوا طبقًا لذلك، بدليل تنفيذهم للشروط الجزائية لتلك الشراكة على ما يخصني وهي السيدة الوقورة أريام العطيفي، زوجتي، كما أنه أبرم معي ما أبرمه وكأنني زائر حديث الولادة.

ناداني هاتف لا أعرف مصدره لكنه أمل ارتقى بلا منبت، لأن منبته يعاني من مرض، ويرفض الانصياع لما فيه الصلاح، هذا الكلام ليس لي وإنما لكمال العمّاري، ولذلك كان قرار تنفيذ ذلك الهاتف الداخلي لإسكات ترهات العمّاري والتي ستبدو ملازمة لي طوال ما بقيتُ كمال الناقص من وجهة نظره، أمر أراه واجبًا.

وصلت للبوابة، ولا يشغلني بما يشغل طريقي إليها، فالعلاقات أصبحت ثانوية عابرة عديمة الجذور، وغدا السلوك على اختلافه مجرد نشاطًا خاويًا فارغًا من أي رجاء، حددتُ في رأسي إحداثيات العبور لكنه لم يكن مجرد عبور لمكان أو زمن أقصِد منه اقتباس معلومة أو مشهد أو شهوة، بل عبور خائف متوتر، يشوبه الجُبن العريض المرتدي لعباءة الشجاعة الضيقة، حيث كان اتجاه الرحلة إلى حيث مقر إبرام الشراكة مع ساكن الظلمة وذلك من أجل الحصول على إجابات كالتي حصلّتها في مكتب كمال العمّاري، وانتقلت بالفعل.

وإذ بي أجدني في مكان صخري كالذي صحبني منه ذلك الدليل ذو الهيئة المرعبة حيث عرش ساكن الظلمة عندما انتقلت من زفاف كيان إليه، نعـم، إنني أتذكـر تلك البدايـة جيدًا، حيث كانت نهايتهـا تلك الشراكـة المنقوصة، ولكن ذلك المكان لم يكن مُضاء هكذا كمـا في الزيـارة الأولـى، فالمكان تتخلله أضواء نهارية تنفذ من سقفه، وكذلك لم أجد أي دليل يصحبني حيث مقر الجلسة المُقامة سلفًا، وكأن وجودي بات غير مُرحّب به، أو من الممكن أن يكون الجمع قد اختفى لاكتشافهم أمري، ولكن كيف هذا وهـم يتصرفـون في حياتي منذ البداية على أسـاس معرفتهم بكينونتي! التمست الأعذار الواهية، واخترت مسار لأتجـه منه لكي أصل لما جئتُ من أجله.

تزايدت الخطوات المرتبكة ومعها الأفكار الشاردة حتى التقطت أذني صوت خرير ماء جاري قادم من مسافة ليست بالبعيدة، اتجهت بمسامعي صوبه واكتشفت أنه ذات المجرى الذي صاحب خطواتي سابقًا فتتبعته حتى قادني لذلك البهو ذو التماثيل الضخمة المرعبة، وقد كان على خلاف ظلمته السابقة والتي شقّتها مراجل الجنود ذوي الهيئات الفاسدة حينها، بل كان يتمتع بإضاءة دالة على أن كل ما هو مخفى تحت جنح الأسرار قد تم كشفه، دخلتُ البهو ظنًا مني بأنه خاوي كخواء طريقه، لكنني وجدتُ ما نزع شهيق وزفير الضجـر مـن داخـل قفصي، حيث وجـدتُ الجلسة منعقدة بكـل مدعويها، ويترأسها ساكن الظلمة على عرشه حيث بادر دخولي بضحكة عالية تردد صداها بين أرجاء البهو انتقلت عدواها للحلقة الدائرية من ذوي الهيئات المرعبة بعباءتهم المعهودة، بيد أنهم توقفوا فجأة حين توقف هو وقال بصوت مُجسّم وبعربية ركيكة....

ها هو قد أتى التائه الحائر المغفل.

تكررت الضحكات المستفزة وأنا أصعد الدرجتين الصخريتين ومنها عبر سطح البحيرة المستديرة حتى تواجهت مباشرة مع عرشه، وما أن انقطعت الخطوات حتى انقطعت معها ذبذبات الضحكات وقال بشماتة واضحة....

كان يجب أن تكون جلستنا السابقة هي الجلسة المُثلى والنهائية، ولكنك آثرتَ المشقة حين فضلّت تغيير ما تعاهدنا عليه أيها الأبلة، ألك الآن كل الشجاعة لكي تواجه ماضيك؟

لم أكد أجيب على كلامه حتى بدا من خلف العرش ذلك الأشعث وفي عينه بريق خسارته في معركة استخلاص اسم عقار السيدة أريام "زوجتي" وكيان خلال وضعه الذليل آنذاك، فانحبست نيتي داخل فمي وتاهت الكلمات حتى قاطع ساكن الظلمة تلك الرجفة الخفية وقال وكأنه يقوم بإشهاد كافة الحضور....

ماذا تريد الآن؟ أجئتَ غازيًا للتحرير، أم جئت مهزومًا مدحورًا بعد أن اكتشفت مصيرك الحائر ما بين كمال وكمال؟

استجمعت بقايا الجهاد بداخلي وسألت في أسف....

لما لم تصارحني منذ البداية؟

قال سريعًا....

وإذا تمّت المصارحة، هل كان سيتغير قرارك وقتها؟ لا أظن ذلك، فلقد اخترت عن كامل اقتناع ما اختاره سلفك.

قلت بصوت شبه ثوري مدافعًا عن اختياري....

ولكنك لم تمهلني حرية الاختيار، لقد أبرمتَ معي اتفاقًا لا يرفضه

مجذوب، لقد خيرتني ما بين امتلاك العالم وبين اللا شيء، فاخترت العالم، في حين لم تفصح عن ماهية ذلك المكان ودوري أنا به.

عاجلني بسؤال سريع....

والآن بعد أن أوضحت لك الأمور، أتتوقع أن يتم تعديل الاتفاق؟

لم يمهلني الإجابة كذلك وتكفّل هو حيث قال....

كلا أيها المغفل، فأنت جئت إلى هنا بعِد افتضاح أمرك، فأنت أقوى الكائنات وأضعفهم في ذات الوقت، تملكَ ما لا يملكه حي، وفي نفس الوقت تخاف ممن يضع يده على رأسك.

أصابت كلمات ساكن الظلمة خوفي وضربته فأثارته كما تثير الرياح رماد الحريق، وأردف في تحد صارخ لما أمتلكه من مميزات مُعطّلة، حيث قال بقوة محسوسة....

إن سلبتني هدوئي سلبتك محاسني، وهدوئي يكمن في بقاء الزنزانات مغلقة على ساكنيها، أما محاسني التي سأسلبها منك هي تلك الهدية التي سأقدمها إليك.

قال تلك الجملة وقد تقدم على أثرها الأشعث، اقترب مني وطاف حولي باستخفاف، وهمَّ بالانقضاض عليّ فوجد مني خوف، خوف من رجوعي إلى إدراك كمال العماري فيختفي كمال الذي لا أرجو سواه، ولكنه امتنع فور صدور أمر التوقف من تحت شلال الظلمة حيث قال موجهًا كلامه للأشعث بتهديد يكسوه الاستهزاء....

أتركه لمحاولاته البائسة، فقفزاته باتت غير مجدية، وإن حاول تنفيذ ما يسوقه إليه رشده فسيعرف وقتها أنه اختار أن يفقد ما تمناه يومًا.

وضعت كلتا يداي فوق وجهي من ضغط الذل المحيط بزيارتي المذلة، وقد اتخذت قرارًا شبه معيوب كإدراكي المنقوص بشنّ حرب أتمناها ضارية ضد كل من أراد أن ينتقص من كمال الذي أرجوه، وما أن رفعتها حتى اختفت الجموع فجأة كعادتهم، وتركوني ما بين كفّتي ميزان متعادلتين بالكمال والتمام الأولى العمّاري والثانية المعيوب، فاستبدَّ غضبٌ غير مكتمل بناصيتي، وأردت أن يكون له منفذ كي لا ينفجر داخلي فأموت بنيران صديقة، وتلعثمت الاختيارات والإحداثيات داخل عقلي انتهت إلى قرار اندهشت من رسو بوصلتي عليه.

لقد قررتُ أن أنتقل إلى موقع نادر المختفي به ومن ثمّ محاولة إنقاذه، وكأن هذا القرار تحد صارخ لكل من أراد أن يمتلك منّي جزءًا، أراد به الوصول لمبتغاه دوني أو من دون ما أرغب، أو بمعنى آخر خرق لأي اتفاق قد أبرمته وأنا لست في كامل قواي الاختيارية.

بمهارة متناهية التفرد أصبتُ ما أردته بسهولة، ووصلت إلى موقع نادر ثم اتجهت لنقطة شرطة النمسا حيث استقبلني سيادة الرائد استقبال المتعجبين من كوني قَدَمتُ إليه بنفسي دون استدعاء، وقد قمتُ بدلّه على موقع نادر بمنتهى الدقة والتوضيح، وأن الأمر لم يتعدى عمل عائلات صعيدية معتاد، حيث قامت إحداها بالتحفظ على نادر وكان هدفها إثارة رهبة فريق كمال العمّاري بأنه ليس بأمان داخل النمسا ومن ثَمّ توصيل رسالة إليه بأنه غير مُرحب به ومن ثمّ صرف النظر عن فكرة الترشح نهائيًا.

تعجّبَ سيادة الرائد من دقة ما توصلتُ إليه بالرغم من استمرار تحرياته الدؤوبة ولكنها دون نفع يُذكر، وخرجت من مكتبه دون أن أضيف أي جديد وتوجهت عائدًا إلى حياتي الواقعية بمنزل النمسا وتمركزت به في انتظار

ما تؤل إليه ردة فعل فعلي المعـاكس بتحرير نادر، وكنت على أتم الاستعداد لسماع أخبار من نوعية انفجار مبنى الجريدة أو انقلاب حافلة عمّال تابعة لمصنع من مصانع العمّاري، أو على أكثر تقدير إصابتي بشلل نصفي حتى يتذوق نصفي الآخر الحرمـان، إلى أن جـاء صالح بالبشرى حيث دخـل عليّ متهلل وقال في سعادة....

لقد خرجت السيدتان من مستشفى إسنا التخصصي، لقد خرجتا بالفعل يا كمال، وهن الآن بفندق الكرنك بالأقصر في أحسن حـال، ثم نظر في عيني ومنها إلى أعماقي وقال بلهجة عاشق قديم....

أتود زيارتهن..؟

ابتسمت ابتسامة وداع لما عايشته وأعايشه من ثرثرة صديق وإنقاذ عدو ونجاة حبيب، ولكن قبل الابتسامة خطر ببالي الشرط الجـزائي لخرق الشَراكـة، وأن هـذه البشرى المفترض أن تكون سعيدة معاكسة تمامًا لما توقعته من مصائب آتية لا محالة، إلّا أن تلك الخاطرة تبخرتْ فور تيقني من أن اللعب أصبح فوق معدل المكشوف ليصل إلى المفضوح، وقلت وكأنها الكلمات الأخيرة....

اذهب أنت، ولا تنسى اصطحاب نادر في زيارتك؟

اتسعت حدقة عين صالح وسأل....

نادر؟ أين هو؟ أهناك جديد بخصوصه؟ أم أنك فقدت صوابك مجددًا؟

ابتسمت مجددًا لكلماته وقلت بلهجة شجاع يخاف من ظله....

ألم أقل لك بأن كل شيء سيكون على ما يرام، وها هو قد كان، ونادر سيصل بين الفينة والأخرى، وعند حضوره ....

قطع كلامي دخول نادر ونفدت الكلمات من قلبي وفمي، والتقط طرفه صالح حيث سأله باندهاش....

أين كنت يا نادر؟ وماذا حدث لك؟ أأنت على ما يرام؟

لم ينتظر صالح إجابة نادر واقترب من وقفتي واستدار حولي بإعجاب ثم سأل....

كيف علمتَ بحضوره؟ وماذا فعلتُ لإحضاره؟

لم أجب لعدم وجود رد، وتاهت احتمالات وصولهم لإجابة بسبب تحول وقفتنا إلى احتفالية زاد من جمالها انضمام السيد محمود البستاني والسيد حجاج، وما بين الاحتفالية الصعيدية الضيقة لم تنفك عين نادر أن تبرح عيني وكذلك أعين صالح واللذان اختلفت نظراتهما ما بين الشكر والغيرة والتساؤل والإعجاب والحب والتعجب، وكان الأخير هو البند الزائد في سهام نظراتهم، والتي على الرغم من حدتها إلّا أنها أشعرتني بأنني إنسان كامل، وانتهت تلك الوقفة بتوجّه صالح ونادر العاجل إلى فندق الكرنك حيث السيدة أريام العطيفي وكيان.

خرجا وتركاني هائمًا بين خيارين لا قوة لي على تنفيذ أحدهما، فالأول هو أن أبرأ مما أنا فيه وأعود كرهًا لمن أمطرته بوابل من اللعنات وهو كمال العمّاري، والثاني أن أبقى في شبابي وفي هذه الحالة لن تسعفني حالتي بتكوين تاريخًا ثابتًا في عقلي المهزوز وهذا ما أثبتته رحلتي، ولي في زيارات عائلة نادر المنسية خير دليل، وعلى الرغم من تكرار عرض هذين الخيارين مرارًا، إلّا أنني لا أملك سواهما، فلا أحد يملك ألمِ غيره كما أنني لا أملك أن أرفع الألم عن غيري وعنّي، وهنا ساقتني قدمي لطَرق أبواب شوارع النمسا أتجول بها عبثًا عسى أن يتعرف عليّ عارف أو أجد نقطة إرشادية تدلني، أو في

أضعف الإيمان أن أستمتع بإدراكي الشاب لحين حدوث أمر طارئ على حالتي فأعود.

ألقتني الصدفة في طريق ذلك المُسن الذي قابلته بالمقهى عند بداية رحلتنا إلى النمسا والذي لم يسقط قط من ضمن الأحداث الساقطة، ونصحني نصيحة لم أعيها في وقتها حين قـال لي، إن ضاقـت عليك، احضر، وإن جئت فاعلم أنها ضاقت. وفي حقيقة الأمر لا أعلم إن كانت صدفة أم أنها التدابير حيث وقف بوجهي فجأة من تلقاء نفسه وتفحّصني بنظره المعدوم حتى تأكد من كوني أنا وقال بدون مقدمات....

لقد جئت بمفردك الآن، إذن هي ضاقت، لا تندهش، فأنا أعرفك لأنني في مثل عمرك، وأعـرف بأنك المنشود منذ قحـط شبابنا، ولكنني لم ولن أفشي السر أبدًا.

سكتَ فجأة ثم ابتسم حتى يذيب ما تجمد من ملامحي وقال كلام لا يناسب هيئه البسيطة....

هي حرب ضروس، سلاحها مميز وأنت تملكه، فهناك من ينتظر عودتك لتحرير ما علقَ، وعليك أن تعلم بأن ما أنت عليه الآن ليس عكس نفسك، عليك أن تتحلى بالفضيلة فإنها وسط بين رذيلتين، وإن كنتَ قد تورطّت في طريقٍ ما، فما عليك سوى القيام بالتعبئة القصوى لما قد فرغ.

أنهى العجوز كلامه المُلقى دفعة واحدة ثم رحل في طريقه، ولم يمهلني أن أسأله أو أودعه، أو على الأقل أن أستخلص منه أي تفصيله عن صديق الطفولة والشباب، وقد أصابني السأم المتواصل من تلقي العظات من أناس لن يكونوا في مجالي مجددًا، حتى ذلك العجوز، فمن الطبيعي أنني لا أعرفه ولن أتذكره وهذا واضح وضوح الشمس، ولكن كان من الواجب عليه أن

يضعني في مسار يسمح لي أن أشكره، فكما أنني بحاجة ماسة للنصح فإنني بحاجة أمس لتقديم الشكر إلى أحدهم، ولكنه لم يحدث، فما أتعس ألّا أكون شاكرًا أو مشكورا.



(٢١)

تفهّمْتُ كلماته وكذلك تفهمتُ أحاسيس من كانوا حولي تجاهي، واختفيت عن أنظار من يريدني ومن لا يريدني، عدتُ إلى القاهرة من دون تخطيط أو عناء، وابتعدت عن النمسا وبوابتها لفراغ جعبة غرائزي من النشـوات وجفاف منابع رغبتي من التطلعات، ولكي أقطع أي طريق للعودة إليّ، فضلّت أن أترك شقة كمال العمّاري ذات المناورات الخفية، حتى أفوّت عليه فرصة ملاقاتي مرة أخرى، وأنا للأمانة لا أرجوها، ولا يرضيني ما أنا عليه ولا أمتلك غيره خيارًا، ففي رجوعي الهلاك وفي بقائي الهلاك أيضًا. أمسيت أهيمُ مستغشيًا بملامحي القديمـة حـالي كحـال ملايين البشر الهائمـون تحت ملامحهم دون أن يتعرف عليهم أحد، تتخبط أيامي ما بين الطرقـات ووجباتي ما بين الهبات، يرفضني الواقع وأرفضه، وبدت خطواتي وهيئتي كمجذوب امتلك متاع الدنيا ثم تخلى عنها طواعية لحاجة في نفسه، لا يعلمها إلّا هو، وبالرغـم من ذلك فقد اجتزت أنا وفصّي الصدّغي مخاطرة السير على الحبـل المعلق بين جبلين بنجاح مقبول، ولذلك اخترت من بين شلالاتِ العظات والتجارب السابقة المنهالة على إدراكي نصيحة الطبيب إلياس أُحد الغالية ألا وهي ضرورة عدم قيامي بأي أنشطة من الأساس، فكان اليوم يجر شبيهه بلا أنشطة مغايرة حتى ساقتني الصدفة لا أعلم أم التدابير إلى تاريخ اليوم، وقد تذكّرت على الفور أنه ذات التاريخ الذي قرأته على لافتة زفاف كيان على نادر أسعد، فاليوم هو يوم عقد قران من غَيّرتْ بحبها كياني حتى وإن لم تكن ضمن ممتلكاتي، تلك الجميلة التي قَدّمت

إنقاذها على معرفة من أكون في ترتيب أولوياتي، فشعرتُ من خلال تقديمي هذا بأنني أمتلك الحب والإيثارية وغيرها من المشاعر الكاملة، فمال بي الحنين لرؤية سبب نبض ما ظننته قلبًا، ولم أجد منصة لتلك الانطلاقة سوى شقة من هربت منه مع أنه يسكنني.

تأنّقتُ تأنّق النجوم ليلة توزيع الجوائز، ووصلتُ إلى ذات المكان الذي قفزتُ إليه مسبقًا، وانتابني قدر غير محدود من الانشراح كوني أصبت التاريخ الصحيح بذاكرتي، فاطمأننتُ على أهليتي، دخلتُ إلى قاعة الزفاف ووجدت تلك اللافتة المكتوب عليها أسماء العروسان كما توقعتُ، ورأيتُ أمي وأبي وأخـوتي متأنقين متأهبين لاستقبال مَسَرَّة نادر بِكْرَهم بشراهـة، ولا أملك أن أصفهم بغير ذلك لوقع ذلك في وجداني، وقد اختمر بداخلي الشوق لمقابلتهم كما غمرني شوقهم بالمقابل، ونجحتُ في أن أقتبس من دفئهم جذوة تنير دربي، ثم توجهتُ إلى مكان وجود العروسين.

وإذ بها تطلّ كالشمس من خلف سحابة أمشير تسبقها خيوط أشعتها لتنبأ بموكب الجميلة ذات الطلة الفريدة الساحرة، وقفتْ كيان بلباس العرس كالحور، وهو أقل ما يمكن أن تُوصف به، مُحاطة بهالة من البهاء والحُسن، جمال منحوت يصلح للاقتناء وعرضه في متاحف تُنظم لها رحلات خصيصًا كل موسم، يجاورها نادر أسعد المحظوظ من وجهة نظر الجميع وأنا أيضًا، يعلو وجهها ابتسامة تعكس سعادتها، فابتسمتْ شفتاي رغمًا عني لسعادتها، وقد اكتفيت واكتفى شريط ذاكرتي المعطوب بهذا المشهد والذي قد يكون من الممكن أن أعيش عليه حتى أبلغ عمري الحقيقي إن كان هذا مصيري وهممتُ بالرحيل، وما إن استدرت إلّا وواجهت ما لم يخطر على ذهني مطلقًا، إنه السيد رئيس التحرير وزوجته المصون حيث بادرتني بالقول والابتسامة القاتلة ملء فم زوجها....

هذا هو كمال الذي نعهده دومًا، لقد كنا على تمام الثقة بحضورك.

أجبتُ سريعًا بسؤال لا أعلم من أين خَطَرَ على عقلي، ونظري لا يبرح اهتمام كمال العمّاري بي....

كيف حال الحملة الانتخابية؟

قالتْ وبدتْ وكأنها صاحبة القرار....

لقد آثرنا الإلغاء بعدما حدث بالدائرة الملعونة تلك.

أدركتُ بيقين راسخ ما كان يرتاب منه كمال العمّاري بناءً على حديث زوجته معي، ولكنني لم أكترث بما يخيفه حقًا على اعتبار أن إدراكه لا يمت بصلة ولو بسيطة لإدراكي، فلم يبدر مني أي انطباعات أخرى سوى ابتسامة طويلة دالة على أنني قد حصّلتُ على ما أتيتُ من أجله، وكان لا بد من تغيير الاستراتيجية كي أهرب قدر المستطاع من أنياب نظراته الحادة والتي يريد أن يغرسها في إدراكي ليمتصّه، لكنني لازلتُ أمامه كمال الأبله خاوي الحلول، حتى جاءت منحة إلهية سماوية، تشبثت بها كجزع نخلة في عرض محيط، تلك المنحة هي صالح، تمسكت به وجذبته من ذراعه عنوة بمجرد أن لمحته يمر خلف السيد رئيس التحرير وزوجته اللذان ودّعتهما بنظرة فابتسامة فهروب، وقد استجاب لي صالح وهلّل فرحًا للقاءنا وقال بصوت مرتفع للغاية جذب انتباه بعضًا من الجوار....

مرحى، مرحى.

ابتعد عنّي خطوة ليطالع كامل هيئتي المتأنقة ثم قال في ثرثرة معتادة أكرها وأعشقها في نفس الوقت....

لقد كنتُ متأكدًا من حضورك اليوم أيها البطل، أين كنتَ طيلة الفترة

الماضية، وما كل تلك الأناقة!

سحبته رغماً عنه بعيدًا عن الحضور ووضعتُ يدي فوق فمه لأمنعه من ثرثرته المعهودة بالقوة، ولكن من الواضح أني أخفقت، حيث أزالها وأكمل حديثه سائلاً...

أأنت على ما يرام؟، لما لم تُجبَ على اتصالاتي، لقد قمتُ بزيارة شقتك أكثر من مرة لكنك لم تكن موجودًا بها، أخبرني، أين كنت؟

ابتسمت ابتسامة عريضة من بقائه على حاله الذي تركته عليه وطلبت منه متوسلاً إياه أن يمهلني فرصة للحديث كالعادة، وقد استجاب، فقلت له ببراءة عميقة....

أيمكن أن تسدي لي خدمة؟

مط صالح شفتيه وسأل...

أي نوع من الخدمات تريد يا صديقي؟

سألتُ برجاء....

ألديكَ مانع أن تقترب معي للعروسين لتقديم التهنئة؟

نظر صالح إلى داخل عيني ليتأكد من عدم ظهور بوادر خرف قديم، لأن الوضع لا يحتمل حرفيًا، وقال وكله رغبة....

بالتأكيد، أظن أنهما سيسعدان، لاسيما بعد معرفتهما بدورك البطولي في أحداث النمسا، ولكن قبل ذلك عليك أن تبوح لي بمكان وسبب اختفاءك أيها البطل، وكيف جئتَ من النمسا من دوننا وأين.....

وضعت يدي فوق فاهه لسد ما أفاضه على مسامعي من أسئلة لن تفي

إجابتها بشيء لكلانا، وقلت له بنبرة أكثر هدوءًا....

ألديكَ مانع أن تقترب معي للعروسين لتقديم التهنئة؟

اصطحبني صالح مقهورًا بعد أن قطعتُ شهوة ثرثرته من الوصول إلى منتهاها، وتوجهنا حيث مقام العروسين، اعتلينا درجات سلم ثلاث حتى اجتمعت رباعيتنا، وقد همّ العروسان بالوقوف بمجرد انتهاء صعودنا للدرجات، وقفتُ صامتًا وكأن مخزون كلماتي نَشبتْ به حرائق الإحراج، لكنني في ذات الوقت أبدو منبهرًا ببطولتي التي نَجحتْ في الوصول بهذا العرس إلى بر قاعة الزفاف، لكنها بطولة فانية ستموت بمجرد مماتي أو شفائي، فتقدم صالح بتقديم التهنئة حيث قال....

مبارك عليكما. أعلم أنها المرة الثانية التي أقدم فيها التهنئة لكنها المميزة لوجود كمال بها، والذي أصرَّ على الحضور وتقديم واجب التهنئة لكما شخصيًا.

نجح صالح بهذه المجاملة البسيطة في انتزاع ما انحبس داخلي بالفعل، وقد نجحت أخيرًا في تقديم التهنئة الحارة من أعماق قلبي والذي ردها نادر قائلًا ببشاشة غامرة....

على الرغم من الأجواء الملبدة التي عشناها بالنمسا إلّا أن عليّ القول بأنه لولاك ما كان لهذا العرس وجودًا، أقولها حقًا، شكرًا جدًا لك يا كمال.

قالها ويده تحتضن يدي بدفء جمّ، ثم توجهتْ دفة الحديث إلى القمر المجاور وما أن سقطتْ عيني على عينيها إلّا وتذكّرتُ على الفور نظرتها الأخيرة وهي بين أحضاني قبل دخولها في غيبوبة العقار السام داخل غرفتها بفندق الكرنك، حيث قالت برقّة تذيب جليد القطب ذاته بعد أن دفنتْ

يدها في قلب يدي....

ستجني يومًا نتاج بطولتك، ولن تجدي معك كلمات الشكر كافة.

ابتسمت كيان وقد اكتسى وجهها الرائع بحمرة الخجل عن آخر درجات لونه ونظرت إلى زوجها ثم إليّ وقالت بأنوثة رائعة....

وستجد يومًا المرأة التي تستحقك وتستحقها.

لقد شكرتني بطريقة مختلفة أو تبدو هكذا لبكر معرفتي بأنواع الحمد، لكنه يكفي أنه منها، ولم أملك من أمري سوى أنني بادلتُ كلماتها بامتنان متناه بحركة رأس راقية كفستان زفافها واستدرت نزولًا للدرجات التي صعدّتها توًا مع صالح.

نَزلت بفخر كما لو أنني قد تسلّمت نوط الواجب من الدرجة التي لا أعرفها، وهربت من كل مَنْ يعرف كمال بين الجمع، فأنا لا أنتمي إلى هنا كما أن هنا لا ينتمي إليّ، وأبصرتُ وجوه الناس بين أرجاء الزفاف، ووجدت حالهم يتراوح ما بين احتمالات عدة، ما بين فَرِحْ حقًا، وبين منتعل قناع فَرِح، فلم أستطع التمييز بين المتحررين وبين ذوي الروح المأسورة في ذلك العَالم المتاح لي دخوله على هيئة فارس، يهابه من ينحنون أمام قواهم فزعًا.

من خلال ما مررتُ به أيقنت بأن الحياة قاسية، قاسية حقًا، وكاذب من يقول إن لقسوتها معنى، وبالرغم من كذبه صادق، قد تكون جارحة بعضًا ومؤذية بعضًا آخر، وقد تصل حد الانتحار هربًا من مواجهات غير متكافئة النزالات، وعلى الرغم مما يجيش بقلبي من مشاعر كراهية تجاهها، إلّا ويزاحمها بقدر مساحتها مشاعر تعلق، تعلق بحقي في الإحساس، حقي في البكاء فرحًا وحزنًا وفشلًا ونجاحًا، حقي في الخزي والهروب منه، في

الشرف والقتال من أجله، حقي أن أرفض ولا أقبل، حقي أن أتعلم أشياء لم تكن أبدًا في الحسبان.

أريد حقًا أن أتحرر من إحساس انتظار الاختفاء الجبري الذي يحيطني، وإن كان هناك من يرغب في التحرر من زنزانته لينال فرصة من حقه فلما أضيّع عليه تلك الفرصة، أخوفًا على حياتي التي لا تُصنّف تصنيفًا واضحًا بين الحيوات، أم طمعًا فيما لن أستطيع إليه وصولًا، وإن حافظت عليها فهل ستحافظ هي عليّ بالمقابل! قست تلك المعايير على ذاتي فوجدتني فَرِح الهيئة خَرِب التكوين، فقلتُ لنفسي وعيني تلمع بدمع الرغبة بتحرير العالقين وقَد أحاطت بي أضواء غزيرة وأصوات عالية....

ليكن ما يكون.

إلى النمسا.

..تمّت..